

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الأستاذ الدكتور/يوسف القرضاوي

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على إمام الدعاة، الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد وعلى آل وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يوفقه إلى توظيف مواهبه وقدراته في نصره الحق، لا في تأييد الباطل، وفي سبيل الله لا في سبيل الطاغوت، وإني لأحمد الله تعالى حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، على أن وظفني منذ بدء الشباب في خدمة دينه، ونصرة دعوته، وتبليغ رسالته إلى خلقه بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن.

فمنذ أن أتممت السابعة عشرة من عمري، وأنا أعتلي المنبر لخطبة الجمعة، ودعوة الناس إلى الله تعالى، ولا زلت أذكر أول خطبة خطبتها في «جامع المتولي» بقرينتنا «صفت تراب» وأنا في السنة الرابعة من القسم الابتدائي بمعهد طنطا، كان موضوعها «الشكر» لله سبحانه على نعمائه، وقد استقبلها أهل البلدة استقبالا حسنا، بل ممتازا، وكان موضع إعجابهم وثنائهم

وحديث المجالس بينهم، ولا سيما الأزهريين⁽¹⁾.

فقد وجدوا في هذه الخطبة نمطاً جديداً، في المضمون وفي طريقة تناول والاستدلال، والعرض والأداء، ولم تكن تقليداً لأحد، بل كانت نسج وحدها.

كان هذا الاستقبال مشجعاً لي على التكرار والاستمرار كلما وجدت الفرصة سانحة في القرية، أو في غيرها، وخصوصاً بعد أن انضمت إلى جماعة الإخوان المسلمين في طنطا، واعتبروني داعية من دعائهم وغداً يبعثون بي إلى القرى والمدن في أنحاء «مديرية الغربية» التي كانت تشمل في ذلك الوقت ما يعرف الآن بـ «محافظة الغربية» «محافظة كفر الشيخ» وأكثر محافظة دمياط، وبعض محافظة الدقهلية.

وفي سنة (1951م) عملت خطيباً منتظماً في «مسجد آل طه» بمدينة المحلة الكبرى، المدينة الصناعية العمالية الشهيرة، وقد كان الناس يؤمنون المسجد بالآلاف، ويصلون في الشوارع، مما دفع أصحاب المسجد - جزاهم الله خيراً - أن يبنوا بجواره ملحقاتاً من عدة طوابق، يسع أضعاف ما يسع المسجد الأصلي.

وكان أحد إخواني وتلاميذي المخلصين - وهو الأديب الشاعر الداعية الأستاذ محمد حوטר - يسجل هذه الخطب بقلمه، وكان له طريقة خاصة في

(1) أما أول درس ديني لي ألقيته على الناس، فقد سبق الخطبة بنحو سنة، وذلك في شهر رمضان، حين تأخر العالم الموكول إليه درس العصر، وهو الشيخ عبد الملطب البتة فظظ عن حضور الدرس، وتلفت الناس يميئاً وشمالاً، فوجدوني، فقالوا: ما قولك يا شيخ يوسف في أن تجلس وتقول لنا كلمتين مما تعلمت في الأزهر، وقد كان، وفي الدرس تلقيت أسئلة وأجبت عنها بتوفيق الله إجابات رضى الناس عنها، وتحدثوا بها، والله الحمد.

الاختزال، يسودها بقلمه أو بأقلامه الرصاص، أثناء الخطبة، ثم يبيضها في المساء قبل أن ينسى.

وقد تجمع لدي عدد من الخطب لا بأس به، اقترح الأصدقاء أن أنشرها وأخرجها للناس في صورة كتاب أو ديوان، قد يكون فيه ما ينفع الناس، ويحتذيه الخطباء الناشئون، وفعلاً أعددت مجموعة منتقاة من الخطب، بعد أن هذبتها ونقحتها، وسميتها «نحفات الجمعة».

ولكن شاء الله أن يذهب هذا الديوان مع ما ذهب عند حل جماعة الإخوان - الحل الأول في عهد الثورة - في يناير (1954م) وذهبت معه فكرة جمع الخطب، حتى بعد أن عينت خطيباً بجامع الزمالك سنة (1956م) في أعقاب العدوان الثلاثي على مصر، وشعور المسؤولين بشدة الحاجة إلى خطباء مرموقين يقوون الروح المعنوية لدى الشعب، ويشعلون جذوة الحماسة في صدره، فرغبت إلى وزارة الأوقاف ووزيرها الشيخ أحمد حسن الباقوري، ومعه شيوخنا: البهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسيد سابق - أن أتولى الخطابة في هذا المسجد الذي كان يخطب فيه الشيخ الغزالي، ثم نقل إلى منبر الأزهري.

وظللت نحو سنة ونصف أخطب في مسجد الزمالك، وأعقد ندوة بعد الصلاة للرد على أسئلة المصلين فيما يتعلق بأمور دينهم.

ولم يفكر أحد في جمع هذه الخطب، لسبب بسيط، هو أن هذه الخطب كانت مرتجلة، ولا يوجد من يكتبها مثل الأخ حوטר، ولا من يسجلها على شريط، فقد كان التسجيل الصوتي في ذلك الوقت أمراً نادراً ومكلفاً.

وحيثما قدمت إلى الدوحة في سنة (1381هـ - 1961م) معارًا من الأزهر، ظننت في أول الأمر أنني سأزوي متفرغًا للكتابة، تاركًا لغيري الخطب والدروس والمحاضرات، ثم تبين لي أنني كنت واهمًا، فسرعان ما اختلطت بالمجتمع القطري، الذي دفعني إلى ممارسة مهنتي ورسالتي القديمة: الخطابة والدروس، فأما الخطب فلم تكن منتظمة، إلا حينما أتسلم مسجدًا لفترة من الزمن، وأما الدروس فكانت تنتظم في رمضان، بعد العصر في مسجد الشيخ خليفة بن حمد ولي العهد، ثم أمير البلاد بعد ذلك، وفي التراويح في المسجد الذي أصلي فيه، وقد انتقلت من مسجد إلى آخر، حتى استقر بي المقام منذ نحو عشرين عامًا في مسجد الشيوخ الكبير.

إنما انتظمت في الخطابة منذ أنشئ مسجد أبي بكر الصديق بالدوحة، وأسند إلي خطبة الجمعة به، ثم أنشئ مسجد عمر بن الخطاب، فنقلت إليه، وغدا هو المسجد الذي تذاق منه خطبة الجمعة في التلفاز على الهواء.

ومنذ انتظامي في الخطابة بالدوحة، وبعض الإخوة يسجلون هذه الخطب، بعضها على أشرطة «الكاسيت» وبعضها على «الفيديو».

أما دروس رمضان عصرًا وعشاء لمدة ثلاث وثلاثين سنة، فقد سجل منها أعداد كبيرة، بعضها كان عندي، ثم اكتشفت منذ سنوات أنها قد أصابها البلى والتلف، لأنها لم تحفظ بطريقة صحيحة.

وهناك إخوة كرام سجلوا كثيرًا من الخطب والمحاضرات في بلاد شتى، وفي إذاعة قطر «حديث الغروب» في شهر رمضان لمدة خمس سنوات، وبرنامج «نور وهداية» لمدة بضعة عشر عامًا.

أما تليفزيون قطر فيوجد فيه برنامج «هدى الإسلام» الذي بدأ منذ أن بدأ التليفزيون وإلى اليوم، وهو أجوبة عن أسئلة المواطنين في شئون الدين والحياة، كما يوجد فيه أحاديث برنامج «من مشكاة النبوة» حديث العصر في رمضان لمدة خمسة أعوام، وقد شرع أخ كريم في تسجيلها وتفريغها بغية نشرها.

ومنذ عدة سنوات وكثير من الإخوة يطلب مني تفريغ خطبي لتطبع ويستفيد منها الناس، فيما يرون، ومنهم الأخ الأستاذ قطب عبد الحميد قطب الذي أخرج خطب شيخنا الغزالي، وكنت متردداً في أول الأمر، لأن الكلام المرتجل له طبيعته وأسلوبه الخاص، فإذا كتب ربما فقد تأثيره وحرارته.

ثم شرح الله صدري لذلك، وعند عرض علي الأخ الفاضل، والشاب العالم الصاعد الواعد: الأستاذ خالد خليفة السعد من دولة البحرين هذه الفكرة، وشفعها بأن أرسل إلي بعض النماذج التي فرغها وعلق عليها وخرج أحاديثها باختصار، إلا القليل مما لم يعرف مظانه، فطلب مني أن أخرجها، كما طلب إلي مراجعة هذه الخطب وملء بعض الفجوات مما يكون قد تأكل من الشريط وإقرارها في صورتها النهائية.

وقد عرفت من الأخ خالد ولمست: أنه مستمتع ممتاز لخطبي، وقارئ ممتاز لكتبي، وأنه متتبع جيد للكثير الكثير من محاضراتي المسجلة، ومقالاتي المنشورة، وهذا كله رجح عندي قيامه بهذا العمل، فهو أهل لهذا الأمر لأكثر من سبب: أهله له دراسته الشرعية، فهو يعد الآن للماجستير في الكلية الزيتونية في تونس، وأهله له شغفه بالعلم والقراءة، وأهله له اشتغاله بدعوة إلى الله، فهو يخطب ويدرس في أحد مساجد البحرين، كما أهله أمر

آخر هو حبه لصاحب هذه الخطب وتعلقه به، أسأل الله أن يجعلني خليقًا بهذه العواطف النبيلة.

ولا أريد ان أتحدث عن هذه الخطب، بل أدعها تقدم نفسها للقارئ، وحسبي أن أقول: إنها قطعة من نفسي، معبرة عن فكري ومشاعري، موصولة بكتاب الله، وسنة رسوله الكريم، وتراث هذه الأمة العظيم، وأبطالها الغر الميامين في شتى أدوار التاريخ: أبطال العلم والفكر، وأبطال العمل والتقوى، وأبطال الإصلاح والتجديد، وأبطال الجهاد والكفاح، كما أنها موصولة بواقع العالم عامة، وواقع العالم الإسلامي اليوم خاصة: بآلامه وآماله، بما يعانيه من كيد أعدائه، وجهل أبنائه، وعجز علمائه، وسرف أغنيائه، وضياع فقرائه، وفساد أمرائه، وما يجاور ذلك من مبشرات تتمثل في هذه الصحوة لإسلامية الشاملة، والبعث الإسلامي الكبير، الذي جدد العقول بالعلم، وجدد القلوب بالإيمان، وجدد الحياة بالجهاد والتضحية في سبيل الله، وهيا أجيالاً تعمل بالإسلام وتعمل للإسلام، وتدعو إلى الإسلام عقيدة وشريعة، ودينًا ودولة، وتعتبر المسلمين أينما كانوا أمة واحدة يسعى بذمتهم أديانهم، ويرد عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم.

إن المسجد في الإسلام له رسالة أساسية في الحياة الإسلامية، فهو يقوم بمهمة كبيرة: دعوية وتثقيفية وتربوية، ولكن روح المسجد هو إمامه وخطيبه، الذي يمكن أن يوقظ الناس وأن ينومهم، يمكن أن ينهض بهم وأن يخرهم، وذلك بحسب ما يقدم لهم في خطبه ودروسه، فإذا قدم لهم الدين: عقيدة سليمة، وعبادة خالصة، وأخلاقًا فاضلة، وآدابًا سامية، وأعمالًا صالحة، وتشريعات عادلة، وعلومًا نافعة، وفنونًا راقية، وحضارة متوازنة،

معبّرًا عن أفكاره بأسلوب بين، وشرحه شرحًا يقتنع العقل، ويستميل القلب، ويحرك الإرادة، جامعًا بين الأصالة والمعاصرة، معتمدًا على المصادر الموثقة، بعيدًا عن إسرائيليات التفسير، ومنكرات الحديث وموضوعاته، وخرافات العوام، وأوهام الخواص، متحرّياً منهج الاعتدال والوسطية في تناوله للقضايا، بمعزل عن غلو الغالين، وتفريط المتسيبين ... إذا فعل ذلك كان في عداد المصلحين المخلصين، والموظفين النافعين، والعلماء الربانيين، وقليل ما هم.

أما إذا قدم الدين على عكس هذه الصورة فإن إثمه أكبر من نفعه، وهو يهدم أكثر مما يثبّد، ويضر أكثر مما يفيد، وهو - للأسف - ما يصنعه كثيرون من الخطباء الذين تضج منهم المنابر، وتشكو المساجد.

إن المسجد إذا قام برسالته كما ينبغي، يستطيع أن يحدث انقلابًا سلميًّا في حياة المسلمين، حين يوعيهم بواجبهم، ويعايشهم في همومهم، وينبهم على نقاط ضعفهم ليقووها، وعلى ثغرات حياتهم ليجتهدوا أن يسدوها، فهو يفقههم بحقائق دينهم، ويرقيهم في أمر دنياهم.

والمطلوب من الخطيب هنا أن يقوم بهذه الرسالة العظيمة في غاية من الرفق والحكمة، حتى لا يتنبه له محترفو السياسة فيحسوا أن في هذه التوعية المستمرة، والتوجيه القوي الدائم، خطرًا على كراسيهم وعلى سرفهم وترفهم وانحرافهم على نهج الإسلام السوي، فيعملوا على إبعاده عن منبره، وإسكات صوت كان ينطق بالحق، ويدوي بالخير، ويدعو إلى العدل وإلى صراط مستقيم.

لقد شعر رجال التنصير في أوائل هذه القرن «العشرين الميلادي» في مصر بأهمية خطبة الجمعة ولقاء الجمعة، فكتب أحد قادتهم في تقرير له قال في ختامه ما معناه: إن الإسلام سيظل صخرة عاتية، تتحطم عليها محاولات التبشير المسيحي، ما دام للإسلام هذه الركائز الأربع: القرآن ... والأزهر ... واجتماع الجمعة الأسبوعي ... ومؤتمر الحج السنوي.

ولذا حاولوا إضعاف تأثير هذه الأربع بأساليب شتى لا يتسع المقام لذكرها هنا.

فلا بد للخطباء أن يدركوا منزلتهم وأهميتهم في المجتمع المسلم، وإن لم يأخذوا حقوقهم المادية كما يجب، فهذا جزء من الخطة المرسومة.

ونصيحتي لأبنائي وإخواني الخطباء أن يجددوا معلوماتهم باستمرار، وأن يظلوا يقرأون، كما كان السلف يفعلون، فليس هناك وقت يقف فيه المرء عن القراءة، فالعلم بحر لا ساحل له ولا قرار، والله تعالى يقول لرسوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: 114].

فلا بد للخطيب الذي يواجه الناس كل أسبوع أن يقرأ ويستزيد ويستنير، حتى لا يكرر نفسه، ويميل سامعيه، ولا بد له من أن ينوع قراءاته، ما بين دينية وأدبية وتاريخية وإنسانية وغير ذلك من أنواع الثقافات التي ذكرتها في كتابي «ثقافة الداعية».

ولا بد له قبل ذلك من أن يجرد نيته لله تعالى، وأن يجاهد نفسه للتخلص من حظوظها في حب الظهور ومראה الناس، فإن الناس لن يغنوا عنه من الله شيئاً وليجعل شعاره: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَلَمِينَ} [الأنعام: 162].

فهذا الإخلاص هو الذي يجعل لكلامه حرارة، ويمنحه قوة التأثير في الآخرين، فقد قيل: إن الكلام إذا خرج من القلب دخل إلى القلوب، وإذا خرج من طرف اللسان لم يتجاوز الأذان، وفي هذا قيل: ليست النائحة كالتكلى! وينبغي للخطيب أن يكون على سجيته، لا يتكلف أن يقلد غيره، وأن يكون نسخة من فلان أو إعلان من الناس، حتى لا يفقد أصالته، على أنه لن يكون مثل الأصل الذي يقلده مهما حاول.

وينبغي للخطيب أن يحترم المنبر الذي وقف عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يستخدمه في غير أهداف الدين، وتوعية المسلمين، وتجميع صفوفهم على الهدى، وكلمتهم على التقى، وقلوبهم على المحبة، ونياتهم على الصدق، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل، كما ينبغي له أن يتجنب إثارة المسائل الفرعية الخلافية، التي من شأنها أن تفرق الجماعات، وتنشئ الحزابات، وتزيد الأمة انقسامًا، وأن يتناول ذلك عند الحاجة في دروسه بعلم وموضوعية وروح أخوية بناءة.

كما ينبغي للخطيب أن يكون كلامه صورة لنفسه، ومعبرًا عن سلوكه، وألا يدعو الناس إلى شيء، يعمل هو بضده، وينهاهم عن أمر هو متورط فيه، فيقول له الناس في قرارة أنفسهم، وربما بألسنتهم: يا طيب داو نفسك أولًا.

يا واعظ الناس قد أصبحت إذ عبت منهم أمورًا أنت تأتيها
تعيب دنيا وناسًا راغبين لها وأنت أكثر منهم رغبة فيها

والله تعالى يقول في كتابه الكريم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ} 2 كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ} [الصف: 2، 3] وقال لنبى إسرائيل: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 44].

ثم على الخطيب أن يكون دائم الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل، موصول الحبال بربه، يسأله سبحانه أن يسدد لسانه، ويثبت قدمه، ويرزقه التوفيق والعون من عنده عز وجل، فما التوفيق إلا بالله، وما العون إلا من الله، ورحم الله الشاعر الذي قال:

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده!
شكر الله للأخ المحب الحبيب خالد السعد، جهده وسعيه، وجزاه عني وعن الإسلام والمسلمين خير ما يجزي عباده الذين يعلمون فيعملون، ويعملون فيخلصون، يخلصون فيقبلون. نمين.
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. يوسف القرضاوى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

بقلم الأستاذ: خالد السعد

أحمد الله تعالى على نعمه التي لا تُعد، وآلائه التي لا تُحصى، وأصلي وأسلم على معلم الناس الخير، سيدنا ونبينا محمد، وعلى آله وأصحابه، وعلى من اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلا أجد نفسي في حاجة إلى أن أعرف بصاحب هذه الخطب: سماحة أستاذنا العلامة، الفقيه الجليل، إمام العصر، الدكتور الشيخ يوسف بن عبد الله القرضاوي حفظه الله ورعاه، فهو في غنى عن التعريف والتتويه، فقد سارت بذكر علمه الركبان، ولم يعد بلد من بلدان الإسلام إلا واطلع على فقهه وتلمذ عليه، وله في كل بلد تلاميذ، وفي قطر مريدون.

ويعد سماحته واحدًا من أبرز رموز الدعوة الإسلامية في العصر الحديث، وتمثل قضايا الصحة وسبل ترشيدها، هاجسه الدائم، وشغله الشاغل، وله في هذا الميدان جهود جبارة، ومساهمات ملموسة، لا ينكرها إلا جاحد أو حاسد أو مكابر.

وسماحة الشيخ القرضاوي في طبيعة الخطباء المرموقين والموهوبين، الذين اشتهروا بخطبهم منذ سنوات طويلة، لا على مستوى قطر والخليج، بل على مستوى العالم كله.

وخطبه دائماً مرتبطة بالواقع، تقوم اعوجاجه، وتعالج أمراضه، في ضوء تعاليم الإسلام، موثقة بالأدلة، خالصة من الزوائد والشوائب، بعيداً عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، لا غلو فيها ولا تقريظ، لا تسكت عن حق ولا تتكلم بباطل.

والأسلوب الذي يسلكه الشيخ القرضاوي ظظظ في عرض الإسلام على جماهير الناس أسلوب متميز، وهو من أنجح الأساليب في ترسيخ قيم الإسلام وعقائده في العقول والأنفس، لما يتسم به من جمال العرض، وصدق اللهجة، وحرارة العاطفة، فضلاً عن الروح المتدفقة بالإيمان الحي المتحرك والمتفاعل مع الناس والأحداث، مع ما حباه الله به من فصاحة اللسان، وثبات الجنان، ورباطة الجأش، وقوة الصوت، وملكة التعبير، وجمال الأسلوب، وجودة الفهم، وسعة الاطلاع، وقدرة على الاتجال نادرة، وقوة الحافظة، التي تسعفه بما يريده من نصوص وشواهد في كل موضوع كأنها مصنفة بين يدي.

تراه في خطبه منفعلًا كأنه منذر جيش، يهز المنابر إذا علاها، ويحرك أوتار القلوب إذا خاطبها، ويثير العواطف إذا ذكرها.

كل ذلك بلغة سهلة بينة، تجمع بين دقة الفقيه، وإشراقه الأديب، وروح الداعية.

من يصغى إلى خطبه المنطوقة، أو يقرأها وهي مكتوبة، يجد فيها المنهج الواضح، والتوجيه السليم، والوعظ المتزن، والمزج الحكيم بين الجديد والقديم.

وهي ليست على النمط الذي يعني بالسجع أو يتكلفه، ولكنها إطلاقاً للسان على سجيته، وإن كانت لا تخلو من المحسنات البيديعية والبيان المشرق. أشياء كثيرة نجدها في هذه الخطب، لذا كان لزاماً على تلامذة الشيخ القرضاوي ومحبيه أن يسعوا إلى نشرها، لتعم فائدتها ويبقى أثرها. وهذا ما عقدت عليه العزم منذ مدة، فوجهت جهدي إلى جمع ما أمكنني جمعه من خطب الشيخ وتهيئته للنشر. وقد وفق الله فأعددت هذا الجزء، آملاً أن تتلوه في المستقبل القريب أجزاء أخرى بعونه تعالى.

وينحصر عملي في هذا الكتاب في:

- 1- انتقاء عدد من خطب الشيخ وتفريغها من الأشرطة المسجلة - المسموعة منها والمرئية - ونسخها على الورق.
 - 2- عزو النصوص القرآنية الكريمة إلى سورها وأرقامها.
 - 3- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة.
 - 4- رد بعض الاقتباسات التي ينقلها الشيخ إلى مصادرها، وإرجاع ما أمكن منها إلى أصله.
 - 5- إراء بعض الخطب بالتعليق التي رأيتها مفيدة للقارئ.
- وقد تفضل الشيخ - جزاه الله خيراً - بمراجعة هذه الخطب قبل طبعها، وأدخل عليها بعض التعديلات والتهديبات اللازمة التي يتطلبها أسلوب الكتابة.

وآمل من إخواني الخطباء - وبخاصة الناشئين منهم - أن ينتفعوا بهذه الخطب، ويفيدوا من طريقة صاحبها في تناول والاستدلال، ويفيدوا من تجربته العميقة في الخطابة والدعوة، والتي مضى عليها أكثر من نصف قرن، فمنذ أن كان طالباً بالمعاهد الأزهرية وهو يعتلي المنبر ويخطب الناس الجمعة، ولا يزال كذلك، رغم تقدم سنه، وكثرة أعبائه، وشواغله التي لا تنتهي.

حفظ الله شيخنا الجليل، وأمده بموفور الصحة والعافية، وأبقى له هذا اللسان المعبر الناطق بالحق واليقين، وأطال في عمره، ونسأ في أجله، وبارك في أنفاسه، ومتعنا والمسلمين بفضله وعلمه وجهاده، آمين.

كما أسأله سبحانه أن يبارك هذا الجهد الذي اعتز به، ويتقبله بقبول حسن، ويحقق النفع من ورائه، إنه أكرم مسؤول وأعظم مأمول، والحمد لله رب العالمين.

خالد السعد

* * *

مهمة الإنسان ورسالته في هذا الكون من مسجد عمر بن الخطاب بالدوحة⁽²⁾

الخطبة الأولى:

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن يجعل الله له نوراً فما له من نور. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم دين شرع {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3]، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

اللهم صلّ وسلم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنته، وأمتنا على ملته، واحشرنا في زمرة، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

(2) تولى الأستاذ القرضاوي مهمة خطبة الجمعة بمسجد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالدوحة منذ إنشائه، ما لم يكن مسافراً، كما يقوم تلفزيون قطر ببث الخطبة على الهواء، فيسمعها المسلمون في قطر والبحرين والإمارات والمنطقة الشرقية من السعودية وغيرها.

أما بعد ... فيا أيها الإخوة المسلمون:

لكل شيء في الوجود مهمة ورسالة ينبغي أن يؤديها ... للجماد رسالة، وللنبات رسالة، وللحيوان رسالة، وللإنسان رسالة.

ورسالة الإنسان أن يعبد الله عز وجل⁽³⁾ ويعرفه حق المعرفة، كما يقول الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56 مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ} [الذاريات: 56، 57]، ويقول سبحانه وتعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12]، أي أن الله خلق العالم العلوي بسماواته، وخلق العالم السفلي بأراضيه، لحكمة وغاية، هي أن يعرف الناس ربهم.

الإنسان هو المقصود من خلق السموات والأرض، هذا الإنسان على صغر حجمه، وعلى ضآلة جسمه، وعلى قصر عمره، الإنسان بالنسبة للكون شيء صغير صغير، نحن نعيش في جزء من قارة، والقارة جزء من هذه الكرة المعلقة، التي نسميها الأرض، والأرض جزء صغير صغير من المجموعة الشمسية، والمجموعة الشمسية جزء صغير صغير من المجرة التي نعيش فيها والتي يطلقون عليها: سكة التبانة، لأن النجوم تتناثر فيها، كما يتناثر التبن في سكة من يحملون التبن، لا عدد لها ولا حصر لها، بالملايين، وأي نجم فيها أضعاف هذه الأرض بمئات وآلاف المرات وربما بالملايين.

(3) انظر فصل «العبادة مهمة الإنسان الأولى في الوجود» من كتاب «العبادة في الإسلام» للأستاذ القرضاوي.

هذه إحدى المجرات التي في هذا الكون، والتي مجموعتنا الشمسية جزء منها، وهذه المجرة إحدى ملايين المجرات التي يقوم عليها هذا الكون.

الكون كون كبير فسيح جداً، لا يعلم حدوده إلا الله، وهو يمتد ويتسع كما يقول العلم الآن، وكما يشير إليه قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ} [الذاريات: 47].

كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول إذا اعتدل من ركوعه: «اللهم ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد»⁽⁴⁾ أي بعد السموات والأرض، ولهذا يسأل بعض الناس عن قوله تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ} [الحديد: 21]، وفي الآية الأخرى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: 133]، إذا كان عرضها عرض السموات والأرض، فماذا يكون طولها؟! والعرض دائماً أقل من الطول، إنها شيء لا يعلمه إلا الله.

إذن هناك عالم فوق السموات والأرض، والسموات حتى الآن لا نعلم حقيقتها ما هي؟ ما هي السموات؟ إن الله تعالى ذكر لنا أن السماء الدنيا زينها بمصابيح ... زينها بالكواكب وبالنجوم، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ ...} [الملك: 5]، {إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ} [الصافات: 6]

(4) رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، ورواه أبو داود، والنسائي، و تتمته: «... أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». «الأذكار» للنووي بتحقيق محيي الدين مستو، حديث (115).

أي النجوم، ومعنى هذا أن كل ما نراه ونعرفه من النجوم هو في السماء الدنيا التي نراها، والتي يصل إلينا شعاعها بعد دقائق أو بعد سنين، أو بعد ملايين السنين، بل يزعم العلماء اليوم أن بعض النجوم لم يصل إلينا شعاعها بعد، رغم ملايين السنين فيما يقولون، نحن لا نعرف إلا هذه السماء الدنيا، فماذا يكون وراءها؟! وأين سائر السموات السبع؟

إن الإنسان من حيث هذا الكون، من حيث حجمه، مخلوق ضئيل، ومن حيث الزمان مخلوق ضئيل، كم يعيش الإنسان؟ جاء في الحديث: «أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين»⁽⁵⁾، وهب أنه بلغ المائة، أو جاوز المائة إلى مائة وخمسين، أو مائتين، أو عمر ما عمر نوح، ولم نعرف في التاريخ أحدًا عمر ما عمر نوح، الذي لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا، حتى أخذهم الطوفان وهم ظالمون، ولا ندري كم عاش قبل البعثة، الغالب أنها أربعون سنة، ولا كم عش بعد الطوفان، على كل حال عمر أكثر من ألف سنة، ولكن ما النتيجة؟ النتيجة هي: الموت.

وإذا كان آخر العمر موتًا فسواه قصيره والطويل عند الموت يتلاشى هذا كله، ويصبح العمر كأنه لحظات، ويخيل للإنسان أنه لو عاش برهة ولو قصرت، يعوض فيها ما فات، ويتدارك ما فرط فيه، وهيئات هيئات {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا} [المنفقون: 11].

الإنسان من حيث عمره شيء ضئيل ضئيل جدًا، بالنسبة للأزل من قبله،

(5) رواه الترمذي عن أبي هريرة، ورواه أبو يعلى عن أنس، وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير»، وتنمة الحديث: «وأقلهم من يجوز ذلك».

وللأبد من بعده، ما قيمة هذا الإنسان إذن؟ ما قيمته؟ ليس له قيمة كبيرة من ناحية المكان، ولا من ناحية الزمان، ومن ناحية هذا الجسم لا قيمة له، هو جزء من التراب، لو حللته لوجدته مجموعة من المعادن والعناصر، بعضها من الحديد، وبعضها من الفسفور، وبعضها من كذا، وبعضها من كذا، تشتري ببضع ريالات، وتتحلل كلها بعد الموت، وتستحيل إلى تراب.

ليس للإنسان قيمة إذن من هذه الناحية المادية.

قيمة الإنسان في هذا الشيء الذي أودعه الله تعالى فيه، ليست في التراب، ولا في الطين، ولا في الصلصال، ولا في الحمأ المسنون، إنما في هذا السر، في هذه اللطيفة الربانية، في هذه الجوهرة الروحانية، في هذا الشيء الذي نفخه الله فيه، والذي استوجب به أن تسجد له الملائكة تحية وتكريماً، ولهذا قال الله تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ} (6) 71 فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص: 71، 72] لماذا يسجدون؟ تكريماً لهذه النفخة من روح الله.

هذا هو الذي جعل للإنسان مكانة أي مكانة، وإلا لو كان الأمر يدور حول الطين والحمأ المسنون، ما ساوى الإنسان شيئاً.

بهذه النفخة الروحانية كان الإنسان إنساناً، استحق أن يكون خليفة الله في الأرض، وأن تشرئب أعناق الملائكة لتتبوا منصبه ومنزلته: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ...} [البقرة: 30].

(6) وفي آية أخرى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [الحجر: 28].

يبدو أنهم استنتجوا ذلك من طبيعة الطين والحمأ المسنون التي رأوها في أول الأمر، ولم يدركوا السر الآخر: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} فقالوا: إن مثل هذا المخلوق الطيني، لا بد أن يغلب عليه الطين، وينزع إلى الأرض، ويخلد إلى التراب ويقع منه الفساد وسفك الدماء {... وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} [البقرة: 30] فكان الجواب الإلهي، أن قال الله لهم: {... إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [البقرة: 30] وعقد امتحاناً لآدم وللملائكة، ظهر فيه فضل هذا المخلوق، والسر كله يرجع إلى: {... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...} [الحجر: 29، ص: 72].

هذا هو الإنسان، حقيقة الإنسان ليست هذا الغلاف، ليست هذا الجسم المكون من الأجهزة والخلايا والدم واللحم والعظام والأعصاب، لو كان الأمر أمر جسم، لكان الثور أعظم من الإنسان، لكان الفيل أعظم من الإنسان، فما أضخمه، وما أعظم من جسمانه! ولكن سر الإنسان في هذا «الروح الإلهي» الذي يسري بين جنبيه! هذا هو أنت أيها الإنسان، بهذا صرت عظيمًا في ملكوت السماء؟ ينسبون إلى الإمام علي رضي الله عنه قوله:

دواؤك فيك وما تشعر ودواؤك منك وما تبصر!

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر!

العالم الأكبر في هذا الإنسان، هذا المخلوق العجيب، ومن هنا كانت قيمة الإنسان.

ومن هنا سخر الله له ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، الكون كله في خدمة الإنسان، مسخر لمنفعته، الشمس تضيئ له، والنجوم تهديه والبحار والأنهار، وكل ما هو في هذا الكون لخدمته، جعل الله له الأرض ذلولاً ليمشي في مناكبها ويأكل من رزقه، سخر

له البحر ليأكل منه لحمًا طريًا، وليجري الفلك فيه مواخر، وليبتغي من فضله، ولعله يشكر الله عز وجل⁽⁷⁾، سخر له المخلوقات العظيمة فوقه وتحتة، لتكون في خدمته، {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمُوتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْآنْهَرِ 32 وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ 33 وَعَاتِلَكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: 32 - 34].

أنظروا إلى كلمة «لكم» وتكريرها في هذه الآيات خمس مرات، الكون كله مسخر لمصلحة هذا الإنسان، ولخدمة هذا الإنسان.

ولكن الإنسان نفسه لمن سخر؟ ومن يخدم؟ إنه قد أعدّ لخدمة الرحمن، كل ما في الكون خلق للإنسان، أما الإنسان نفسه فخلق للرحمن!

إذا نظرت إلى مراتب الكائنات في هذا الكون، وجدت كل كائن يخدم ما هو أعلى منه مرتبة، الجماد يخدم النبات، والنبات مع الجماد يخدم الحيوان، والحيوان مع النبات والجماد يخدم الإنسان.

الأرض تخرج النبات، والماء والمطر والشمس وهذه المخلوقات تعمل لإحياء النبات، وإمداده بالغذاء، حتى ينمو ويتراعرع، ويزهر ويثمر، وهذا النبات يأتي الحيوان فيأكله {مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَمِكُمْ} [النازعات: 33].

الحيوان الذي خدمه النبات يخدم الإنسان وهو مسخر للإنسان، هذه الأنعام

(7) يشير إلى قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَلْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل: 14].

تخدمك وهي صحيحة، وتأكلها وهي ذبيحة.

أما الإنسان ذاته فمن يخدم؟ من ذا الذي يخدمه الإنسان؟ ليس هناك من هو أعلى من الإنسان من المخلوقات، إنما يخدم الإنسان الله عز وجل.

لهذا كانت الوثنية عكسًا للحقائق، وقلبًا للأمور، حينما جعلت الإنسان يذل ويخضع لما هو أدنى منه، يعبد الطبيعة، يعبد الأبقار، يعبد الأنهار، يعبد الأشجار، يعبد الكلاب، يعبد الشمس أو القمر، يعبد الجمادات أو النباتات، أو الحيوانات أو الأفلاك، وكلها دون الإنسان، وكلها في خدمة الإنسان.

الإنسان خلق لله، ليعرفه ويعبده {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ} - مثلهن في العدد، أو مثلهن في التكوير، أو مثلهن في روعة الخلق وإبداعه - {يُنزِّلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: 12]، لتعرفوا الله عز وجل بأسمائه الحسنی، وصفاته العلی، أنه القادر على كل شيء، والعالم المحيط بكل شيء.

ليس معنى معرفة الله أن نعرف حقيقة ذاته، لا هذا أمر تنقطع دونه الأعناق، إنما لم نعرف حقيقة أنفسنا، فكيف نعرف حقيقة خالقنا؟! إن بعض «البسائط» في هذا الكون عجزنا عن إدراك كنهها، إن الإنسان رغم تقدمه العلمي الهائل حتى أنه غزا الفضاء، ويحاول أن يصل إلى كواكب بعيدة، عجز عن معرفة حقيقة نفسه، حتى ألف رجل من أقطاب العلم كتابًا شهيرًا سماه: «الإنسان ذلك المجهول»⁽⁸⁾، ألفه الدكتور «الكسيس كاريل» الحائز

(8) وقد اقتبس منه الشهيد سيد قطب - عليه رحمة الله - مقتطفات ضمنها كتابه «الإسلام ومشكلات الحضارة» فصل: الإنسان ذلك المجهول، أراد بذلك أن يؤكد نظرية الإسلام

على «جائزة نوبل» في العلوم⁽⁹⁾. يقول: إننا عرفنا الكثير عن الجمادات، وعن الأشياء من حولنا، ولكننا نجهل الكثير عن أنفسنا، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85]. لم نعرف إلا القليل، ولهذا إذا قلنا: خلق الله الكون لنعرفه سبحانه، فليس معنى هذا أن نعرف كنه ذاته، لا.

نحن نتفكر في خلق الله ... في آلاء الله، ولكننا لا نتفكر في ذات الله، فهذا باب مغلق، نحن نؤمن بالغييب، ولا نبدد طاقتنا العقلية فيما لا سبيل للوصول إليه، أولى بنا أن نبحث في الكون، ونكتشف قوانينه، ونعرف سننه، ونسخره - كما أراد الله - لخدمتنا، بدل أن نضيع أنفسنا فيما لا طائل تحته.

لقد انحرف بعض المسلمين في بعض العصور، وبحثوا في أمور إلهية لا معنى لها: الذات والصفات وعلاقة الذات بالصفات، وقامت معارك كلامية وجدلية، كان معظمها منتحلاً ولا معنى له، وكان أكثرها من تأثير الفلسفات والنحل والملل الأخرى، ولو وقفوا عند القرآن ما جرهم إلى هذا، لو عرفوا أن عليهم أن يقفوا عند هذا الباب، ويقولوا ما قال الراسخون في العلم: {...} ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ { [آل عمران: 7]، لكان هذا أولى وأجدر وأبعد عن هذه المتاهات التي دخلوا فيها، دون أن يظفروا منها بثمرة، حتى قال قائلهم:

في شأن الإنسان، والتي تقرر تسليطه على عالم المادة، وتستخيره له، وإتيانه القدرة على معرفة النواميس الكونية اللازمة له في الخلافة، وفي الوقت ذاته تقرر جهله المطبق بالإنسان، وإعفاءه تبعاً لهذا من وضع منهج حياته الذاتية بنفسه، وعون الله له بوضع المنهج الملائم لكيانه وفطرته ووظيفته في الأرض، ثم إلزامه باتباع منهج الله هذا.

العلم للرحمن جل جلاله وسواه في جهلانه يتغمغم
 ما للتراب وللعلوم؟ وإنما يسعى ليعلم أنه يعلم!
 خلقنا الله تعالى لنعرفه، وإنما نعرفه بآثاره في الأنفس والآفاق: {وَفِي
 الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ 20 وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} [الذاريات: 20، 21]
 {سُنِّرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ
 أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53] العلم اليوم يسعدنا على بيان آثار الله
 تعالى في هذا الكون، وكيف نظم التنظيم الدقيق، وأحكم الأحكام البالغ، الذي
 يدل على عظمة الصانع، وعلى نظم المدبر، فلا تستطيع إلا أن تقول: سبحان
 الذي أحسن كل شيء خلقه: {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ...} [النمل: 88]، هذا
 ما يلحظه كل من ينظر في هذا الكون، وما أحسن ما قال أبو العتاهية قديماً:

ألا إننا كنا بائد وأي بنى آدم خالداً؟
 وبدءهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد
 فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد؟
 والله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
 وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد!

إنه الله، تراه في كل شيء، تراه بعين قلبك، بعين عقلك، ولا بعين بصرك،
 فأبصارنا أكل وأقل من أن تراه في هذه الدنيا، وإنما تراه هناك في الآخرة،
 حيث الكافرون عن ربهم محجوبون، وحيث المؤمنون على الأرائك
 ينظرون، كما قال الله سبحانه وتعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ 22 إِلَىٰ رَبِّهَا
 نَاطِرَةٌ} [القيامة: 22، 23] {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ} [المطففين: 15]
 أي: المشركين.

خلقنا الله تعالى لنعرفه، فإذا عرفناه عبدناه حق العباد، عرفنا أنفسنا فعرفنا ربنا، عرفنا مخلوقات الله فعرفنا خالقها، فأدينا له حقه، عبدنا له أنفسنا، لم نعبدها لأحد غيره، ولا لشيء غيره، فما يستحق شيء في الأرض ولا في السماء، أن نحني له ظهورنا راعين، أو نعفر له جباهنا ساجدين، لا ركوع إلا لله، ولا سجود إلا لله، ولا ذل إلا لله، ولا خضوع إلا لله، ولا رجاء إلا في الله، ولا خوف إلا من الله، هذه هي العبودية، أن نعبد الله: {... إِلَّا لِيَعْبُدُونَ...} (10) نمثل أو امره ونجتنب نواهيه، ونقيم دينه في الأرض، فهذه هي العباد بمعناها الشامل.

خلقنا الله تعالى لنعبده حق عبادته، لنتضرع إليه، لنسأله وندعوه، لنصلي له، لنحسن إلى خلقه، ونرحم الضعفاء من عباده، لنبذل المال والأنفس من أجله، هذه هي العباد، وقد روي في بعض الأحاديث الإلهية: «عبادي إني خلقتكم لأستأنس بكم من وحشة، ولا لأستكثر بكم من قلة، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه، ولا لجلب منفعة، ولا لدفع مضرة، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلاً، وتذكروني كثيراً، وتسبحوني بكرة وأصيلاً»، لهذا خلقنا الله عز وجل، خلقنا لهذه المهمة، لنعبد الله بكل ما تتسع له كلمة «العبادة»، وهي تشمل كل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال، إقامة الشعائر عبادة، وبر الوالدين عبادة، وصلة الأرحام، وإكرام الجيران، وأداء الواجبات، وفعل الخير، والدعوة إليه، والجهاد في سبيل الله، كلها عبادة.

(10) يشير إلى قوله عز وجل: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: 56].

ومن هذه العبادة أيضاً عمارة الأرض: {هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا...} [هود: 61]، ومن هذه العبادة القيام بحق الخلافة: {... إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...} [البقرة: 30]، {... وَيَسْتَخْلِفُكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ} [الأعراف: 129]، هذه هي مهمة الإنسان في هذه الحياة، وفي هذا الكون: أن يقوم بحقوق العبادة والخلافة والعمارة.

ولذلك إذا لم يقم الإنسان بهذه المهمة، كان أضل من الأنعام سبيلاً، الله تعالى يقول: {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا 43 أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان: 43]، وفي آية أخرى يقول: {وَلَقَدْ نَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف: 179]. هذا هو وصف حطب جهنم ووقود النار من أولئك الذين عطلوا تلك الأجهزة التي منحها الله إياهم، ليطلوا بها على الكون، لتكون نوافذ للمعرفة، ولكنهم خربوا هذه الآلات والأجهزة، فكان لهم قلوب ولكنهم لا يفقهون بها، وأعين ولكنهم لا يبصرون بها، وأذان ولكنهم لا يسمعون بها، لأنه إذا لم يفقه بقلبه مهمته التي خلق لها، ولم يعرف الخالق الذي أوجده، فإن قلبه لم يعد قلباً، أصبح لا معنى له، وكذلك إذا لم ير آثار الله في الكون، ولم يعتبر بها فهو أعمى وإن كان نظره ستة على ستة {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} [الحج: 46]، وإذا كان لا يسمع قوارع المواعظ، ولا يسمع صوت الحق، فهو أصم، كما قال الله تعالى في صنف من الناس: {صُمُّ بَعْضٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ} (11) [البقرة:

(11) وفي آية أخرى: {صُمُّ بَعْضٌ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} [البقرة: 171].

[18]، خربوا الآلات والأجهزة الإلهية، فانتهوا إلى أنهم أصبحوا كالأنعام بل هم أضل.

الإنسان يمكن أن يرتقي فيكون كالملائكة أو أفضل، ربما يكون أفضل من الملائكة، لأن الملائكة لم تؤت ما أوتي من الغرائز والشهوات، ولم يسلط عليها ما سلط على الإنسان من قواطع الطريق من الداخل ومن الخارج، فإذا تغلب الإنسان على هذه العوائق والقواطع وارتقى أصبح أفضل من الملائكة؛ وأصبح خير البرية على الإطلاق كما قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ} [البينة: 7].

وكما أن في الإنسان استعداداً ليرتقي ويرتقي، عنده استعداد لأن ينحدر وينحدر، ويهبط ويهبط، حتى يكون كالحيوان الأعجم، بل أضل من الحيوان سبباً: {... أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ...} [الأعراف: 179] لماذا كانوا أضل؟ كانوا أضل لأن الأنعام لم تؤت ما أوتي الإنسان، لم تؤت العقل الذي يفكر، ولا الإرادة التي تحرك أو ترجح، ولم تؤت هذه المواهب الروحية والعقلية التي أودعها الإنسان، الحيوان ليس فيه سر: {... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي...} [الحجر: 29، ص: 72] فالحيوان معذور.

ومن ناحية أخرى فإن الأنعام تؤدي مهمتها ... تقوم بدورها المطلوب منها في الحياة، هل رأيت بقرة تمردت على أن تحلب؟ أو بعيراً امتنع أن يركب؟ إنها تقوم بوظيفتها في الحرث والسقى، وحمل الأثقال إلى بلد لم تكونوا بالغية إلا بشق الأنفس، تركبونها وزينة ولكن الإنسان إذا لم يعرف الله، ولم يقم بعبادته وخلافته في الأرض، فإنه لم يؤدي مهمته ... لم يؤدي رسالته، ولذلك كان أضل من الأنعام سبباً.

ومن هنا ماذا تقول في هؤلاء الناس الذين يعيشون ويموتون ولم يعرفوا الله؟! أولئك الملاحدة الذين ينكرون وجود الله عز وجل، ما هم هؤلاء؟ هؤلاء كفار، ما قيمة هؤلاء؟ هذا التراب الذي يأكل من التراب، ويمشي على التراب، وينتهي إلى التراب، هذا الطين المتعالي المتعجرف، ما قيمته وما منزلته حتى يجحد وجود الله؟

وكذلك أولئك الذين يؤمنون بوجود الله، ولكنهم لا يقومون بحقه، حتى من بين أبناء المسلمين، هذا الذي يتسمى بمحمد وأحمد وعبد الله وعبد الرحمن، بما حمد وعبد من الأسماء، بأسماء الأنبياء وأسماء الصحابة، هؤلاء الذين يعيشون بين ظهراي المسلمين، ولا تراهم لله راعين ولا ساجدين، الذين يعبون من الشهوات، الذين يركضون وراء اللذات، الذين {... أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا} [مريم: 59]⁽¹²⁾، ما رسالة هؤلاء؟ ما رسالتك أيها الإنسان؟ أخلقت لمجرد أن تأكل وتشرب؟! هكذا تصنع الأنعام، ماذا زدت على البقرة في بيتك أو الناقة أو الجمل أو الحمار؟ ما قيمتك أيها الإنسان إذا لم تكن لك مهمة أعظم وأرقى؟ ما قيمتك إذا لم تعرف الله ولم تعبد الله؟

إن معرفة الله تعالى وعبادته هي الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، فعلى الإنسان أن يعرف غايته، أما إذا عاش لا يعرف لماذا يعيش؟ وما هي غايته؟ وما هي رسالته؟ فما هو بإنسان!

بعض الناس يعيش موجوداً كمفقود، حياً كميت، حاضرًا كغائب، هذا ليس

(12) أولها: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ}

بإنسان، لا يحسب من الأحياء، ولا يحسب من بني آدم.

وآخرون حددوا غايتهم في المتع ... في الشهوات، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى فيهم، وفي أمثالهم من الكفرة الفجرة: {... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ} [محمد: 12].

هناك أناس يعيشون بلا إحساس كما تعيش الجمادات، وأناس يعيشون بغرائزهم ولغرائزهم كما تعيش الأنعام، تجري وراء الشهوات، وأناس يعيشون كما تعيش الشياطين، مهمتها الكيد والإيذاء لخلق الله، والإفساد في الأرض.

أما الإنسان ... الإنسان الحق، أعني الإنسان المؤمن، فليس هناك إنسان إلا المؤمن، ما عدا المؤمن فليس بإنسان، وإن حسب من الناس، وإن سجلته التعدادات والإحصاءات فيما يسجل من أعداد الناس، المسألة ليست بالكم ... ليست بالعدد، الإنسان الحقيقي هو الإنسان المؤمن، الذي يعرف الله تعالى، ويقوم بحقه، ويعبده في أرضه، ويقوم أمر دينه، هذا هو الإنسان، وهو الذي جاء الإسلام ليصنعه ... ليربيه ... ليكونه، يكون شخصيته المتكاملة، وهو الذي رباه النبي صلى الله عليه وسلم في دار الأرقم بمكة، وفي مسجده بالمدينة، ليكون صالحًا في نفسه، مصلحًا لغيره، من {الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 3].

هذا الإنسان هو الذي انطلق بالقرآن، وانطلق بالإسلام، إلى أقاصي الدنيا شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وأقام فيها حضارة العلم والإيمان، ودولة العدل والإحسان، هذا هو الإنسان ... إنسان الإسلام.

فيا أيها المسلم ... يا أيها الإنسان: اعرف غايتك، واعرف رسالتك، وجند نفسك لها، وعش لهذه الغاية، عسى الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لنكون أناسي حقاً، نعرف حقنا، ونعرف واجبنا، ونعرف مهمتنا في أرض الله، اللهم وفقنا لما تحب وترى، اللهم آمين.

أقول قولي هذا واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

الحمد لله {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهِيهِ الْمَصِيرُ} [غافر: 3]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، يسبح له ما في السموات وما في الأرض، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه الذين {ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [الأعراف: 157]، ورضي الله عنم دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة⁽¹³⁾.

(13) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة المتفق عليه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعة فقال: «فيه ساعة لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلي يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه» وأشار بيده يقللها. والمراد بالساعة هنا «معناها اللغوي» وهو: برهة من الزمن، ولهذا قال: وأشار بيده يقللها، ليساره وقتها، وأما تعيين الساعة فقد ورد فيه أحاديث كثيرة صحيحة واختلف العلماء فيها اختلافاً كثيراً، وأفاض الإمام ابن القيم في

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنينا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، واعظنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا. وارض عنا وأرضنا.

اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصر إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وانصر إخواننا المجاهدين في أريتريا، وانصر إخواننا المجاهدين في الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين في كل مكان، اللهم خذ بأيديهم إلى مواطن النصر، اللهم أيدهم بملاً من جنديك، وأمدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التي لا تنام، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام، اللهم عليك باليهود الغادرين، اللهم عليك بالشيوعيين الملحدين، اللهم عليك بالصليبيين المستعمرين، اللهم عليك بأعدائك أعدائك أعداء الدين، اللهم رد عن المسلمين كيدهم، وقل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد

ذكر أقوالهم ورجح منها قولين، أحدهما: أنها من جلوس الإمام إلى انقضاء الصلاة، انظر: «زاد المعاد» (388/1 - 397) بتحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، وانظر أيضاً: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للشيخ القرضاوي: (241/1 - 243).

من عبادك المؤمنين {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56]. اللهم صلّ وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

التوبة

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

تحدثنا عن مهمة الإنسان في هذا الكون، المهمة التي خلق الله تعالى لها الإنسان، خلق الله الإنسان ليعرفه ويعبده: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

لهذا كان لا بد لنا من حديث عن هذه المهمة، عن هذه الغاية، عن هذه العبادة، وسنتحدث عن نوع من العبادة يغفل عنه الناس، فالعبادة نوعان: ظاهرة وباطنة.

الظاهرة: كالصلاة، والصوم، والزكاة، والحج، وهي أركان الإسلام العملية، ولكن هناك نوعاً آخر من العبادات له أهميته، وله ضرورته، ولا تصح هذه العبادات الظاهرة إلا إذا توافر ذلك اللون من العبادات الباطنة، إنها العبادات المتعلقة بالقلب، والقلب هو حقيقة الإنسان «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسد فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»⁽¹⁴⁾. «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم ولكن

(14) هو جزء من حديث النعمان بن بشير المتفق عليه، وأوله: «إن الحلال بين، وإن الحرام بين» وهو السادس من «الأربعين النووية»، وانظر: «جامع العلوم والحكم»، و«المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للشيخ القرضاوي (506/2)، الحديث (966).

ينظر إلى قلوبكم»⁽¹⁵⁾.

القلب هو موضع نظر الله تبارك وتعالى، وهو الحجة التي تقدمها يوم القيامة إذا أردت النجاة، هو المستند الفذ الذي به تثبت براءتك، وتثبت صحة إيمانك {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 88، 89]، {هُدًى مَا تُوَعَّدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ 32 مِّنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ} [ق: 32، 33]، القلب السليم ... القلب المنيب، هو أساس الدين حقاً.

القلوب عليها المعول، اعمل ما شئت من الأعمال الظاهرة، فلن تقبل عند الله إذا كان قلبك مغشوشاً، إذا كانت نية الرياء قد داخلتك، إذا لم تجرد النية لله وحده: {وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءً...} [البينة: 5]، ولا بد من أن يأتي وقت نتحدث فيه عن حقيقة النية والإخلاص، الذي هو أساس القبول للأعمال كلها.

ولكننا اليوم نتحدث عن عبادة قلبية مهمة، هي الخطوة الأولى في الطريق إلى الله عز وجل، هذه الخطوة هي: التوبة.

أن تتوب إلى الله عرعع، فإنك لا تستطيع أن تسلك الطريق إذا كنت تحمل أثقالاً تؤود ظهرك، ولا تقدر بها على أن تمشي خطوة إلى الأمام، لا بد من أن تتخفف، فلا بد من أن تسقط هذه الذنوب عن كاهلك، كيف تسقطها؟ إنما تسقطها بالتوبة، ما معنى التوبة؟ التوبة مأخوذة من «تاب»، وكلمة «تاب» في اللغة العربية تعني: عاد، ورجع، كأن الأصل أن تكون دائماً مع الله، لا

(15) رواه مسلم عن أبي هريرة «المنتقى من كتاب الترهيب والترهيب» (103/1 - 104، الحديث 7).

تفارقته، وكيف تستطيع أن تفارقه؟ ووجودك مستمد من وجوده، وحياتك وبقاؤك ورزقك وهدايتك، وكل ما بك من خير فهو منه تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ} [النحل: 53].

ماذا تكون أنت لولا الله؟! أنت أيها الإنسان، الطويل العريض، الذي يمشي في الأرض مرحًا، الذي يثني عطفه، ويصعر خديه، ماذا أنت لولا الله؟! لولا أن الله خلقك، وسواك، ونفخ فيك من روحه، وأعطاك القوة، وسخر لك هذا الكون، ورزقك العقل، وعلمك البيان، وهداك السبل، ماذا تكون لولا الله؟! الله!

الله هو صاحب كل فضل عليك، وأنت بغير الله لا شيء، لا تكون شيئاً مذكوراً، ولا شيئاً موجوداً، لهذا يجب أن يكون الإنسان دائماً مع الله، فإذا شرد عن الله بالذنوب أو الغفلة، فلا بد له من أن يعود ... أن يرجع إلى بيته ... إلى بيته الأصلي، وذلك هو التوبة.

التوبة عودة إلى الله، عودة إلى الأصل، ومن فضل الله علينا أن رزقنا التوبة، أن أعطانا حق التوبة، فكل بني آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون المستغفرون.

ليس عجباً أن يذنب ابن آدم، ليس عجباً أن يتورط في المعصية، فهذه طبيعة خلقته، أنه خلق خلقاً مزدوجاً، فيه قبضة الطين، وفيه نفخة الروح، الطين يهوى به إلى أسفل، والروح ترقى به إلى أعلى، أحياناً ينزع إلى الطين، ويخلد إلى الأرض، فيكون كالحوان أو أضل سبيلاً، وأحياناً يعلو ويعلو، حتى يكون كالملائكة، أو أرفع مقاماً.

فلا عجب من أن يغلب الطين في بعض الأحيان على الروح، أن يغلب العنصر الأرضي العنصر السماوي، أن يغلب العنصر الحيواني في الإنسان العنصر الرباني فيه، فيقع في المعاصي.

ليس عجباً أن يحدث ذلك، وقد عصى أبو البشرية آدم، عصى الإنسان الأول، أغواه الشيطان فأوقعه في المخالفة، دلاه غرور، وقاسمه وزوجه {إني لَكَمَا لَمِنَ النَّصِيحِينَ} [الأعراف: 21]، وقال له: {... هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى} [طه: 120]، وما زال يوسوس له حتى صدقه، وأكل من الشجرة {... وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى 121 ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طه: 121]، [122].

هذا فاروق ما بين الإسلام والنصرانية، النصرانية تجعل خطيئة آدم معلقة برقاب البشر جميعاً، فهم يحملون وزر معصية لم يفعلوها، ولم يشهدوها، لا هم، ولا آباؤهم، ولا أجدادهم، ولا أجداد أجدادهم، مع أن العدالة الإلهية أقرت في القرآن، وفي صحف موسى: {وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى 37 أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى} [النجم: 37، 38].

كيف يحمل الإنسان ذنب غيره؟! ثم إن معصية آدم قد انتهت بالتوبة، الله اجتباه فتاب عليه وهدى، فآدم حينما شعر بأن الشيطان غره، وورطه في هذه المعصية، سرعان ما استنقذ هذا الكائن الواعي في ضميره، هذا الكائن الروحي، هذه النفخة {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...} [الحجر: 29، ص: 72]، غلب هذا العنصر، فسرعان ما رجع إلى ربه، وقرع بابه، تائباً مستغفراً، وقال هو وزوجه: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23]، {فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ

أَلْتَوَّابُ الرَّحِيمِ} [البقرة: 37].

انتهت معصية آدم بالتوبة، وهكذا ينبغي أن تنتهي كل معصية يقترنها أبناء آدم.

ليس عجباً أن يذنب ابن آدم، فقد أذنب أبوه آدم، إنما العجيب أن يتمادى في الذنوب، أن ستمرئ طريق المعصية، ويتوغل فيه، أن ينسى ربه، وينسى التوبة إليه، فتتراكم عليه الذنوب، وتتراكم حتى يسود قلبه والعياذ بالله، وهنا الخطورة.

الخطورة في ألا يبادر الإنسان بالتوبة، النبي صلى الله عليه وسلم يقول⁽¹⁶⁾: «إن العبد إذا أخطأ خطيئته نكتت في قلبه نكتة، فإنه هو نزع واستغفر صقلت» أي مسح وجلي ومحي أثر المعصية، وعاد القلب أبيض كالمرأة الصافية فإن عاد زيد فيها حتى تملو قلبه، إذا أذنب ذنباً آخر، نكتت في قلبه نكتة سوداء أخرى، ثم لا يزال يذنب وتتكاثر هذه النكت السوداء، والنقاط السوداء، حتى تزيد على القلب وتغطي عليه: فذلك الران الذي ذكر الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]. الخطر أن يغفل

(16) في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (470/1)، الحديث (908).
ورواه السيوطي في «الجامع الصغير» وصححه، ولفظه: «إن العبد إذا أخطأ خطيئته نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب، صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تملو على قلبه، وهو الران الذي ذكر الله تعالى: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}» رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أبي هريرة.

الإنسان عن التوبة، ويستمر في طريق الشيطان، ولا يحس بما هو فيه من خطأ وخطيئة، هذا هو الخطر.

ويأتي هذا الخطر من أطول الأمل، طول الأمل معناه: استبعاد الموت، أن الموت لا يزال بعيداً، وأن العمر لا يزال فيه بقية، ابن العشرين يقول: أتوب حينما أبلغ الثلاثين، وابن الثلاثين يقول: حينما أبلغ الأربعين، وابن الأربعين يقول: حينما أبلغ الستين، وابن الستين يقول: عند الثمانين، وهكذا⁽¹⁷⁾.

هكذا يطيل الإنسان أمله، ولا يدري أن الموت أقرب من لمح البصر كل امرئ مصبح في أهله والموت أدنى من شرك نعله، إنك حينما تصبح لا تدري: أيأتي عليك المساء أم لا؟ وقد جاء في الحديث: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح»⁽¹⁸⁾.

(17) وما أجمل ما حكاه الإمام الغزالي - حول هذا المعنى - في «إحيائه»، إذا يقول: والإنسان مشغوف بالأمانى الباطلة، فيمني نفسه أبداً بما يوافق مراده، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا، فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه، ويقدر توابع البقاء، وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر، موقوفاً عليه، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدر قربه، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت، والحاجة إلى الاستعداد له، سوف ووعد نفسه وقال: الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب، وإذا كبر فيقول: إلى أن تصير شيخاً، فإذا صار شيخاً قال: إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار، وعمارة هذه الضيعة، أو ترجع من هذه السفارة، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك. فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال آخر، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم، ويفضي به شغل إلى شغل، بل إلى أشغال، إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه. «الإحياء» (456/4 - 457) ط. دار المعرفة ببيروت.

(18) من حديث ابن عمر، رواه البخاري، والترمذي، وأحمد، والبيهقي «المنتقى من كتاب

حينما تنام لا تدري أتعود الروح مرة أخرى إليك، أم تقيض في نومك؟ إنك حينما تلبس ثيابك، لا تدري أنتزعتها أنت بيدك، أم تنزعها عنك يد غاسلك؟ إنك حينما تخرج من بيتك لا تدري متى تكون الخطوة الثانية وإلى أين؟ أهي إلى الطريق أم إلى القبر؟ ألم تسمع إلى الذين يموتون بالسكته القلبية أو الذبحة الصدرية، أو بالحوادث المفاجئة.

الناس يموتون في حوادث مفاجئة في هذا العصر، حتى أن الإنسان لا يكون له علاقة بالحدث فيموت، يمشي في الطريق بعيداً فتأتي سيارة فتأخذه، طائرات تنزل على أهل قرى، لا هم راكبون فيها ولا غير ذلك، وتأتي فتأخذهم، ألم تسمعوا؟ الموت قريب وقريب، والمسألة مسألة مصيرية، إنها جنة أو نار، ليست خسارة درهم أو دينار، إما أن تخسر الجنة، وإما أن تدخل النار والعياذ بالله، إنها أشياء خطيرة فكيف تؤجلها؟!!

لقد قيل: أكثر أهل النار «المسوفون»، أتدرون ما المسوفون: المسوفون الذين يقولون: سوف نتوب، سوف نعمل، سوف نرجع، وقد قال بعض السلف: «سوف» جند من جنود إبليس، لأنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد، لا تضمن عمرك ساعة واحدة، وحينما يأتي ملك الموت ليقبض روح الإنسان يتمنى لو أجله وقتاً قصيراً: أسبوعاً ... يوماً ... نصف يوم ... ساعة ... دقيقة، وهيهات، الله تعالى يقول: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَلْهَكُم مَّا مَوْلُكُم وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ 9 وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ

الترغيب والترهيب» (866/2) الحديث (2080)، و«شرح السنة» للبغوي، بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (230/14) الحديث (4029).

الصُّلِحِينَ} [المنافقون: 9، 10]، لولا أخرتني إلى أجل قريب: أي مهلة ... دقائق يمكن أن يتصدق فيها ببعض أمواله، وينفق في بعض الخيرات، ويوقف بعض الأشياء على الجهات الخيرية، ويرد بعض المظالم، ويستسمح بعض الناس الذين أساء إليهم، يريد دقائق يمكنه فيها أن يفعل ذلك.

كانت أمامك هذه الدقائق، وكانت أمامك الساعات، وكانت أمامك الأيام، وكانت أمامك الأسابيع، وكانت أمامك الشهور، وكانت أمامك الأعوام، كل هذا لم يكف، ثم تأتي الآن وتقول: {... لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقْتُ وَأَكُن مِّنَ الصُّلِحِينَ} [المنافقون: 10]، وهنا يكون الرد الإلهي: {وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 11].

إن طول الأمل، إن استبعاد الموت، خطر على الإنسان، يجعله يسوف ويؤخر ويؤجل في التوبة، ثم يفجأه الموت، ولم يعد له عدته، ولم يأخذ للآخرة أهبته، فالبدار البدار، قبل أن تتفاقم الذنوب وتستقل.

إن بعض الأمراض إذا عولجت في أولها، تعالج بسهولة ويسر، فإذا تركت، فإنها تكون مضاعفات ومضاعفات، يصعب بعد ذلك علاجها، وكذلك الذنوب، كل من أذنب ذنباً فعليه أن يتوب، وعليه أن يبادر بالتوبة، وإلا كان ظالماً، الله تعالى يقول: {... وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: 11].

والتوبة مطلوبة من الناس ... كل الناس ... التوبة مطلوبة من جميع الناس، الله تعالى يقول: {وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31]، ويقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا} [التحريم: 8] (19).

(19) وتامها: {عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي

المؤمنون مطالبون بالتوبة، وليس هناك إنسان يستطيع أن يقول: لا ذنب لي، فعم أتوب؟ ومم أتوب؟ أنا نقي الصفحة، مبرأ من كل عيب، وهذا هو الغرور الذي لا يليق بمؤمن، فالمؤمن يشعر أبداً أنه مقصر في حق الله عز وجل، مفرط في جنبه، هو يفعل الطاعات ويخشى ألا تقبل منه، أما المنافق، فيرتكب المعاصي ويقول: أطمع أن تغفر لي! فرق بين المؤمن والمنافق، إن المؤمن يشعر دائماً بأنه لم يؤد حق الله عز وجل كما ينبغي لجلال وجهه، وسابغ نعمه وفضله، ولهذا فهو دائم الاستغفار، دائم التوبة إلى الله عز وجل. والناس في التوبة أصناف:

هناك من يتوب من الشرك والعياذ بالله، كما قال الله تعالى: {قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ...} [الأنفال: 38].

وهناك من يتوب من النفاق، كما قال الله تعالى في شأن جماعة من المنافقين: {فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [التوبة: 74].

وهناك من يتوب من الكبائر⁽²⁰⁾، شرب الخمر، أو اقتراف الزنا، أو تناول المخدرات، أو أكل الربا، أو أكل مال اليتيم، أو شهد شهادة زور، أو عق والديه، أو قطع رحمه، أو فعل غير ذلك من كبائر الإثم التي ذكرها النبي

اللَّهُ النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَأَنْتُمْ قَدِّيرٌ عَلَيْنَا عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(20) اختلف في تحديد الكبيرة اختلافاً كثيراً، ولعل الأرجح أنها: ما أوجب الله عليه حداً في الدنيا، أو رتب عليه وعيداً شديداً في الآخرة، وانظر تعليق الشيخ على الحديث (358) من كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب».

صلى الله عليه وسلم، وما أكثرها.

وكبائر الذنوب لا يصلح لها إلا التوبة، الصغائر يمكن أن تكفر بالحسنات، بالصلوات الخمس، بالجمعة إلى الجمعة، برمضان إلى رمضان، كل هذه مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر⁽²¹⁾، أما الكبائر فلا يكفرها إلا التوبة.

هناك من يتوب من الكبائر، وهناك من يتوب من صغائر المحرمات أيضاً، فالحرام حرام، وإن كان من الصغائر، لا يستصغر شيئاً بالنسبة لله عز وجل، وقد قال بعض السلف: «لا تنظر إلى صغر المعصية ولكن انظر إلى كبرياء من عصيت».

إنك إذا أسأت إلى زميل لك بكلمة، فقد تكون شيئاً بسيطاً، ولكن إذا أسأت بهذه الكلمة نفسها إلى أبيك، أو إلى شيخك، فهذه تكبر وتكبر.

وهكذا نرى الشيء الواحد يتعاضم بالنسبة لمن صدر في حقه، فكيف إذا كانت إساءتك تتعلق بذات الله العلي الكبير؟ ولهذا روى البخاري عن ابن مسعود: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مر على أنفه، فقال به هكذا»⁽²²⁾، قال الراوي وأشار بيده فوق أنفه.

(21) يشير إلى الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (239/1)، الحديث (358).

(22) رواه البخاري في كتاب «الدعوات» موقوفاً على ابن مسعود، الحديث (6308) البخاري مع «الفتح»، كما رواه أحمد في «مسند ابن مسعود»، وصححه الشيخ شاکر (3627) و (3629).

هذا هو شأن المؤمنين، لا يستصغرون ذنبًا، بل كانوا يحذرون من استصغار الذنوب، والاستهانة بالمعاصي.

كان بعض السلف يقول: «إن الذنب الذي يخشى ألا يغفر، هو الذي يقول فيه صاحبه: ليت كل ذنب فعلته مثل هذا، يعني هذا ذنب بسيط، هذا هو الخطأ».

ولما زار بعض الصالحين أخًا لهم، ووجدوه يبكي وهو مريض، فقالوا له: يا فلان ما الذي يجعلك تبكي كل هذا البكاء؟ والله ما رأينا عليك كبيرة اقترفتها، ولا فريضة تركتها، فقال: والله ما أبكي على هذا، ولكن أخشى أن أكون قد أتيت ذنبًا، أحسبه هيئًا وهو عند الله عظيم!

هكذا قال القرآن في شأن أولئك الذين خاضوا في حديث الإفك، وتحدثوا عن الصديقة بنت الصديق بسوء، فقال الله تعالى في أمرهم: {... وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ} [النور: 15].

كلمة أحيانًا ... كلمة يقولها المرء لا يلقي لها بالًا، كما صح في الحديث، يهوى بها في جهنم سبعين خريفًا⁽²³⁾. سبعين سنة، من أجل كلمة لا يلقي لها بالًا، ولا يلتفت إليها.

قد ثبتت عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت عن إحدى ضرائرها في حديث مع النبي صلى الله عليه وسلم: ما يعجبك من فلانة إلا أنها - وأشارت

(23) روى الترمذي وابن ماجه: «أن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسًا، يهوى بها سبعين خريفًا»، وروى الحاكم وصححه: «أن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يهوى بها سبعين خريفًا في النار». انظر «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (749/2، 750)، الأحاديث (1734، 1735، 1736).

بيدها تعني أنها قصيرة - ولم تكمل الجملة، ذكرت اسم «أن» بدون خبرها، فقال: «لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»⁽²⁴⁾، كلمة جديرة أن تكرر بحرًا.

الخطر في هذه المعاصي التي يستهين بها الإنسان، ويقول: هذه لا تستحق التوبة، لا، يجب أن يتوب الإنسان من هذا كله.

هناك من يتوب من الكبائر، وهناك من يتوب من الصغائر، وهناك من يتوب من الشبهات، فإن الشبهات مؤدية إلى الحرام: «... ومن وقع في الشبهات، وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...»⁽²⁵⁾، وهناك من يتوب من المكروهات، حتى المكروه لا يريد أن يقع فيه، وهناك من يتوب عن بعض المباحات، الناس درجات، وحسنات،

(24) رواه أبو داود، والترمذي، والبيهقي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (742/2) الحديث (1706)، ورواه النووي في «الأذكار» ثم قال: «مزجته»: أي خالطته مخالطة - يتغير بها طعمه أو ريحه لشدة ننتها وقبحها، وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئاً من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ ۙ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: 3، 4] نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه.

(25) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود، وابن ماجه، من حديث النعمان ابن بشير، ونصه كاملاً: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما مشتبهاً لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، إلا وهي القلب». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (506/2) الحديث (966)، وهو أحد الأحاديث «الأربعين النووية»، وأفاض في شرحه ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» لما اشتمل عليه من أحكام وتوجيهات.

الأبرار سيئات المقربين⁽²⁶⁾.

هناك من يتوب عن مجرد الغفلة عن الله ... أن وقتاً مر من حياته لم يذكر الله تعالى فيه، فهو يتوب ويستغفر من هذا، وهذا ما نبه عليه النبي صلى الله عليه وسلم حين قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة»⁽²⁷⁾.

محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يراقب ربه في غدواته وروحاته، وحركاته وسكناته، وليله ونهاره، وخلوته وجلوته، ولم يكن يغفل عن ربه طرفة عين، تنام عيناه وقلبه لا ينام، مع هذا كله يقول: «توبوا إلى الله، فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة».

بل حدث بعض أصحابه فقال: كنا نعد للنبي صلى الله عليه وسلم في مجلس واحد سبعين مرة أو مائة مرة: «رب اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الغفور»⁽²⁸⁾.

وقد رويت عنه صيغ من صيغ الاستغفار، في قمة الصيغ، يستغفر الله في

(26) هو من كلام أبي سعيد الخراز كما رواه ابن عساكر في «ترجمته»، وهو من كبار الصوفية، توفي في سنة مائتين وثمانين للهجرة، وعده بعضهم حديثاً وليس كذلك «كشف الخفاء» للشيخ إسماعيل العجلوني برقم (1137).

(27) روه مسلم في «الذكر والدعاء» (2702)، والبخاري في «الأدب المفرد» (621)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (446، 447)، وأحمد (260/4) كلهم عن الأغر المزني.

(28) رواه أبو داود في «الصلاة» (1516)، وابن ماجه في «الأدب» (3814)، والترمذي في «الدعوات» (3430) وقال: حسن صحيح، وأحمد في «المسند»، وابن حبان في «صحيحه» (الإحسان: 927) كلهم من حديث ابن عمر.

صباحه ومساءه، وسحره وسجوده، هكذا كان صلى الله عليه وسلم.

كان يقول: «سيد الاستغفار: اللهم أنت ربي، لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك علي، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنب إلا أنت»⁽²⁹⁾ هذه سيدة صيغ الاستغفار⁽³⁰⁾.

كان من أدعيته واستغفاراته صلى الله عليه وسلم: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير»⁽³¹⁾.

هذا هو الشعور بعظمة الله سبحانه وتعالى، وأنه يستحق من الإنسان

(29) رواه البخاري، والنسائي، والترمذي، وهو من حديث شداد بن أوس «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (225/1) حديث (335)، وانظر البخاري مع «الفتح»، حديث (3606)، ومعنى «أبوء»: أقر وأعترف.

(30) قال الشيخ القرضاوي معلقاً على هذا الحديث في كتابه «المنتقى»: إنما كان سيد الاستغفار، لأنه يتضمن جملة من المعاني الربانية العميقة: تضمن توحيد الربوبية «اللهم أنت ربي»، وتوحيد الإلهية «لا إله إلا أنت»، والإقرار بالخالقية والعبودية «خلقتني وأنا عبدك»، والمبايعة لله على الوفاء «وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت»، والبراءة من المعصية والاستعاذة بالله منها «أعوذ بك من شر ما صنعت»، والإقرار لله بالنعمة، وعلى النفس بالذنب «أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي»، وطلب المغفرة ممن لا غفار غيره «فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»، وما أحوج المسلم أن يودع بها مساءه، ويستقبل بها صباحه.

(31) رواه البخاري في «الدعوات» (6398) ومسلم في «الذكر والدعاء» (27/9) عن أبي موسى.

الكثير والكثير، وخاصة من عظمت نعم الله تعالى عليه، مثل محمد صلى الله عليه وسلم، فهو يشعر بأن مقصر في حق ربه عز وجل.

هناك من يتوب من مجرد أن يمر وقت لا يذكر الله تعالى فيه.

التوبة درجات، والقرآن الكريم يذكر أهل عرفات وأهل الحج، ويأمرهم بعد هذا الموقف العظيم أن يستغفروا الله، فشان المؤمنين دائماً بعد الطاعات أن يستغفروا، انظروا: {فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْتُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ 198 ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: 198، 199].

بعد عرفات، بعد هذا الموقف العظيم، يطلب منهم أن يستغفروا الله، كما وصف الله المؤمنين المحسنين المتقين بقوله: {كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ 17 وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} [الذاريات: 17، 18]، يقول الحسن البصري رضي الله عنه: مدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل!!

مم يستغفرون؟! الذي أحيوا الليل ولم يهجعوا فيه إلا قليلاً، عند السحر يستغفرون الله، إنهم هؤلاء هم أهل الكمال، يستشعرون النقص دائماً، ولا يظنون أبداً أنهم وفوا الله حقه.

إن التوبة على درجات، كل يتوب بحسب درجته، أما نحن فإننا نتوب من الكبائر والصغائر والمحرمات نتوب مما فرطنا فيه من حقوق الله وحقوق العباد، وما أكثر تقصيرنا وتفريطنا.

لا ينبغي أبداً أن نؤخر التوبة، فإننا لا ندري ماذا يصنع بنا غداً {وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ...} [لقمان: 34].

البدار البدار بالتوبة، البدار البدار بالتوبة قبل أن يفجأ أحدنا الموت،
ويطلب التأخير ولا تأخير، والإمهال ولا إمهال ف: {... إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا
يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [نوح: 4]

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم،
وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يوافقها عبد مسلم
يسأل الله فيها خيراً إلا استجيب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها
معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة
عين، ولا أقل من ذلك، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً، اللهم اجعل يوم
المسلمين خيراً من أمسهم، واجعل غدهم خيراً من يومهم، وأحسن عاقبتهم
في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أكرمنا ولا
تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا. وارض
عنا وارضنا. اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصر إخواننا
المجاهدين في أفغانستان، وأيد كلمة الإخوة المجاهدين العاملين للحق في
لبنان، اللهم كن للمسلمين في كل مكان، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام،
اللهم رد عنا كيدهم، وقل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم
سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين.

{... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أِقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10]. اللهم أمين.

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [النحل: 90].
 {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

أركان التوبة النصوح وشروطها

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

تحدثنا في الجمعة الماضية عن التوبة، ووجوب التوبة على جميع الناس
 {... وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [النور: 31]، {... وَمَنْ لَمْ
 يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [الحجرات: 11].

نعم التوبة وضرورة المبادرة بالتوبة، فإن الأعمار تنقضي سنة بعد سنة،
 وشهراً بعد شهر، وأسبوعاً بعد أسبوع، ويوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة،
 ولحظة بعد لحظة، فلا بد من المبادرة بالتوبة حتى لا يفجأك المرض، أو
 يفجأك الموت وأنت لم تعد العدة، ولم تهيب الزاد.

فالحازم الكيس من تأهب للموت قبل نزوله كما في الحديث: «الكيس من
 دان نفسه وعمل لما بعد الموت»⁽³²⁾، وأول ما ينبغي أن يعمل به العبد لما
 بعد الموت: أن يتوب إلى الله توبة نصوحاً {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ

(32) رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وابن ماجه، وأحمد، والحاكم، وقال: صحيح، ووافقه
 الذهبي عن شداد بن أوس، ورمز له السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير»، وتنمة
 الحديث: «والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله». «المنتقى من كتاب
 الترغيب والترهيب» (2/869، الحديث 2090)، و«شرح السنة» للبيهقي بتحقيق
 الشاويش والأرناؤوط (14/308، الحديث 4116)، ومعنى «دان نفسه» أي حاسبها في
 الدنيا قبل أن يحاسب في يوم القيامة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:
 «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتجهزوا للعرض
 الأكبر، وإنما يخف الحساب يومئذ على من حاسب نفسه في الدنيا».

تَوْبَةٌ نَّصُوحًا} [التحریم: 8].

ما التوبة النصوح:

النصوح: الخالصة من الشوائب، التي لا غش فيها ولا دخل.

فما حقيقة هذه التوبة؟ وما شروطها؟ وما علائمها؟

حقيقة هذه التوبة تبدأ بالندم، ثم بالعزم، وتنتهي بالإقلاع عن المعصية.

أول أركان التوبة وأعظمها: الندم، والندم عمل من أعمال القلوب، ليس من أعمال اللسان ولا من أعمال الجوارح، بعض الناس يحسب التوبة أن يقول بلسانه: تبت إلى الله، وندمت على معصية الله، وعزمت على طاعة الله، وألا أعود إلى المعاصي أبداً، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام، يقول هذا بلسانه، وربما جاء إلى بعض الشيوخ فقال له: يا سيدنا الشيخ توبني، يريد بتتويبه أن يقول هذا الكلام.

هذا الكلام لا يغني، لا يكفي أن تقول: نويت التوبة، وقلبك مصر على المعصية، بل لا يكفي أن تقول: استغفر الله، وأنت عازم على المعصية، وقد قالوا: الاستغفار من غير إقلاع هو توبة الكذابين.

توبة الكذابين على أطراف ألسنتهم، وتوبة الصادقين من أعماق قلوبهم، وإنما تبدأ التوبة بذلك الندم، بهذه الحسرة، وبهذا الحزن والأسى، بهذه المشاعر التي تكوي الإنسان كياً.

هذا الاحتراق الداخلي هو أول التوبة، أن يشعر بالندم على ما فات، على ما فرط منه في جنب الله، على تضييعه لفرائض الله، على أكله لحقوق الناس،

على ... على ... هذا هو أول التوبة، وقد جاء في الحديث: «الندم توبة»⁽³³⁾ أي هو الركن الأعظم، كما ورد: «الحج عرفة»⁽³⁴⁾ أي الركن الأعظم في الحج. هو الوقوف بعرفة، وإن كان هناك أركان أخرى، كذلك للتوبة أركان أخرى، ولكن أولها وأعظمها: الندم، أن يستشعر الإنسان مرارة المعصية، ويستحضر ذلك في قلبه ونصب عينيه.

وهذا الندم يأتي من صحو، من يقظة يجدها في قلبه، وهذا فضل من الله يهبه لمن يشاء من عباده، يأتي بأدنى ملابس، كما قيل: من لمحة تقع الصلحة، من كلمة يسمعها، من موعظة مؤثرة، من آية يتلوها أو يستمع إليها، من موقف يشاهده، من رؤيا يراها، من موت لعزير عليه، من حادثة تقع له أو كارثة تنزل به أو بأحد يعز عليه، فيحدث من وراء ذلك: الندم فيتوب إلى الله.

قالوا: إن أحد كبار الوزراء في العصر العباسي مر بموكبه العظيم في طريق، فكان الناس يسألون: من صاحب هذا الموكب؟ من هذا؟ من هذا؟ فكانت امرأة في الطريق قالت لهم: أقصروا، من هذا؟ من هذا؟ هذا رجل

(33) رواه أحمد، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال الشيخ شاکر: إسناده صحيح. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (822/2) الحديث (1932).

(34) رواه أحمد، وأصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم والدارقطني، والبيهقي، كلهم من حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلمي، قال: شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفات وأتاه ناس من أهل نجد، فقالوا: يا رسول الله كيف الحج؟ فقال: «الحج عرفة، من جاء قبل صلاة الفجر من ليلة جمع، فقد تم به حجه». «المقاصد الحسنة» الحديث (394).

سقط من عين الله، فابتلاه الله تعالى بما ترون، تظنون أن هذا علامة مجد وعظمة، هذا رجل سقط من عين الله، فبلغ ذلك الوزير قوله هذه المرأة، فرجع بعد ذلك إلى بيته، واستغنى عن الوزارة، وغير من حياته كلها بكلمة.

كلمة يمكن أن تغير الحياة، منظر، لو رأيت منظر جنازة أمامك، لو رأيت أحد أصدقائك أو أقربانك وقد كان ملء السمع والبصر، فإذا هو جثة أمامك لا يحرك ساكنًا، ولا يستطيع شيئًا، لو رأيت القبور وذهبت إلى وادي الموتى، ورأيت هناك الأمراء والكبراء والوزراء وأصحاب الملايين، أين وزاراتهم؟ وأين رئاساتهم؟ وأين إماراتهم؟ وأين ملايينهم؟

منظر واحد يراه الإنسان بقلبه لا بعينه، يمكن أن يغير من حياته، كلمة يسمعها وقد فتح لها قلبه، فإذا هي تغير مجرى حياته كلها فينتقل من حال إلى حال.

رؤيا يراها بعض الناس، كثير من الصالحين تاب بسبب رؤيا رآها في نومها، فغيرت من سلوكه، وغيرت من حياته، كما حكوا عن مالك بن دينار.

وعلى كل حال، إن الإنسان عليه أن يعين نفسه، يعين نفسه على حدوث هذا الندم، كيف يعين نفسه؟ يتذكر حق الله تعالى عليه، وفضل الله تعالى عليه، وهو فضل عظيم لا يحصيه عدّ، ولا يحيط به حدّ {...وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا...} [النحل: 18]. يتذكر آلاء الله التي تغمره من قرنه إلى قدمه، منذ كان في المهد صبيًا، بل منذ كان جنينًا في بطن أمه، وإحسان الله إليه، وفضله عليه، لم يفارقه لحظة من الزمن.

يتذكر هذا، ويتذكر بجوار ذلك، ما يصدر منه من معصية، خير الله تعالى

إليه نازل، وشره إلى الله صاعداً! يتحجب تعالى إليه بنعمه وهو الغني عنه، ويتبغض هو إلى الله سبحانه بمعصيته، وهو أفقر شيء إليه!

يتذكر المعصية، وشؤم المعصية، وأثار المعصية في الدنيا والآخرة، فهي مجلبة الخسران، هي البضاعة الكاسدة التي ليس من ورائها إلى البوار، والخسار، في الدنيا قبل الآخرة.

ذكر الإمام ابن القيم رضي الله عنه للمعصية أكثر من مائة ضرر من الأضرار والآثار في الأولى قبل الآخرة، في كتابه: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»⁽³⁵⁾.

كل ما ترى من شرور في نفسك أو أهلك أو مالك أو ولدك أو أصدقائك أو المجتمع من حولك، كل ما أصاب الناس من فساد وانحلال، سببه المعصية.

إن الله لا ينزل البلاء على الناس انتقاماً منهم، بل إنما ينزل عليهم العقوبة تديباً لهم بما فعلوا: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41].

أنظروا إلى التعبير القرآني:

{لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} لا يعاقبهم بكل شيء عملوه {وَمَا أَصْبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30].

(35) ويسمى أيضاً: «الداء والدواء»، وقد ألفه ابن القيم رداً على سؤال مفاده: «ما تقول السادة العلماء، أئمة الدين رضي الله عنهم أجمعين، في رجل ابتلي ببليّة، وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته، وقد اجتهد في دفعها عن نفسه بكل طريق، فما تزد إلا توقفاً وشدة، فما الحيلة في دفعها؟ وما الطريق إلى كشفها؟»، وراح ابن القيم يشخص الداء بمهارة وحنق، ويصف الدواء الناجح، مستلهاً نصوص الكتاب والسنة.

تذكر شؤم المعصية ... شؤم المعصية في الدنيا وفي الآخرة، إذا صبرت على آثارها في الدنيا، فانظر إلى آثارها في الآخرة، هل تتحمل عذاب القبر؟ هل تتحمل ما في الموقف يوم القيامة؟ هل تتحمل ما في جهنم والعياذ بالله؟

تذكر الموت وسكرته، وتذكر القبر وضمته، وتذكر الحساب ودقته، وتذكر الموقف وزحمته، وتذكر الرب وغضبه، وتذكر الجنة وما فيها من نعيم، وتذكر النار وما فيها من ألوان العذاب والخزي، تذكر هذا كله.

تذكر إنك لا تستطيع أن تحتل حر الشمس في يوم صائف، تذكر أنك لا تستطيع أن تحتل لدغة مصباح تضع أصبعك عليه، فكيف تقوى على جحيم وقودها الناس والحجارة؟ تذكر هذا كله ليعينك على أن تندم.

الإنسان العاقل إذا عرف أن شيئاً ما يضره، ويهدده بالخطر، فلا بد من أن يقلع عنه، ألا ترون الإنسان الذي عاش عمره مدخناً، المبتلى بهذه الآفة التي تأكل المال والصحة والأعصاب، إذا قال له الطبيب وقد أصيب بقلبه: إما أن تقلع عن التدخين، وإما أصبحت حياتك في خطر، ماذا يفعل هذا الإنسان؟ إنه لا يخاطر بحياته إذا كان عنده ذرة من عقل، إنه يقلع عن التدخين الذي عاش وهو إلفه، وعادته التي استمسك بها عشرات من السنين في عمره، وكم رأينا من هؤلاء ممن عاش أربعين سنة أو أكثر أو أقل، أقلع عن التدخين، لأن الطبيب قاله له: التدخين مهدد لصحتك، وخطر على حياتك.

فإذا قال طبيبك الأعظم، إذا قال لك رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل إذا قال الله تعالى لك: إن المعاصي خطر على دنياك وآخرتك، خطر عليك في الحال، وخطر عليك في الاستقبال، أفلا تصدق هذا الطبيب؟ أفلا تقلع عما

أنت فيه من إضاعة حق الله، ومن التقصير في جنب الله، ومن إضاعة حقوق الناس؟ هذا هو الذي ينبغي أن يستحضره الإنسان: الندم، الاحتراق، التحسر على ما مضى منك، هذا هو حقيقة الندم.

وقد قال بعض الصالحين: حقيقة الندم أن تضيق عليك الأرض بما رحبت، حتى تظن أن لا قرار لك، وتضيق عليك نفسك، كما وصف الله تعالى نفسية أولئك التائبين في سورة «التوبة»، التي سميت السورة بوصفهم: سورة «التوبة»، قال: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ...﴾ على سعتها كأن الدنيا أصبحت كأنها أضيق من حلقة خاتم... ﴿وَضَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ...﴾ [التوبة: 118] فوقفوا على بابه مستغفرين تائبين نادمين.

هذه هي نفسية التائب الحقيقي.

ثم يأتي الركن الثاني وهو: العزم المصمم، أن يعزم الإنسان الذي ابتلي بالمعصية، وكل الناس مبتلون بالمعاصي، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون»⁽³⁶⁾. لا يخلو أحد من الخطأ، ولا يخلو من الذنب، لأن الله تعالى خلقه هكذا، لم يخلقه ملكاً مطهراً، ولم يجعله نبياً معصوماً، فسيدينا آدم سسس نفسه أخطأ، فلا عجب أن يخطئ أبناؤه.

(36) رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (2/820)، الحديث (1927).

وهنا يأتي العزم على ترك الذنب، على اجتناب المعصية، على أن يبدل حياته، ويستبدل بصفحته صفحة جديدة، الصحائف التي سودتها المعاصي، يريد أن يملأها بأعمال سالحة، فيترك ويقطع عن الذنب، ويبدأ هذا بعزم ... عزم جازم ... عزم أكيد ... عزم مصمم ... إرادة قوية: ألا يعود إلى المعصية كما لا يعود اللبث إلى الضرع، هكذا يقول العلماء، هل إذا خرج اللبث من ضرع الناقة، أو البقرة، أو الشاة، يمكن أن تعيده إليها؟ وهكذا ينبغي أن يكون عزمه ساعة التوبة: طلاق بات بينه وبين المعصية.

إما إذا ظل متردداً، يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، يريد أن يتوب ولكنه يحن إلى المعصية، ما زال يشعر بحلاوة المعصية، وبلذات المغامرات الماضية والأيام الخالية، لا زال هناك نوع من التعلق بتلك الأيام السود، فهذه ليست توبة، التوبة عزم مصمم ألا يعود إلى المعصية أبداً.

ربما يعزم عزمًا أكيدًا ومصممًا، ولكن الإنسان ضعيف، يحدث بعد ذلك أن يضعف وتزل قدمه، لا يضر هذا في التوبة.

المهم ساعة التوبة أن يكون عنده هذا التصميم المؤكد، فإن ضعف بعد ذلك، وأغرته نفسه، وغره شيطانه، وسقط في هوة المعصية، فلا بد من أن يستحدث توبة جديدة، وأن يقول ما قال أبوه آدم وأمه حواء: {قَالَ رَبِّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخُسْرَيْنِ} [الأعراف: 23]. وهكذا، كلما أحدث ذنبًا سارع إلى التوبة والاستغفار والله غفور رحيم.

روى أبو هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنِّي أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: عَلِمَ عَبْدِي

أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر - وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر - فقال: يا رب إني أذنبت ذنباً آخر فاغفر لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فغفر له، ثم مكث ما شاء الله، ثم أصاب ذنباً آخر - وربما قال: ثم أذنب ذنباً آخر - فقال: يا رب، إني أذنبت ذنباً فاغفره لي، قال ربه: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ به، فقال ربه: غفرت لعبدي فليعمل ما شاء»⁽³⁷⁾.

فهو يسارع إلى التوبة، ولن يخلق الله بابه عنه، لقد قيل لسعيد بن المسيب عن ذلك فقال: في ذلك نزل قول الله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأُولَئِينَ غَفُورًا} [الإسراء: 25]. قال: «الأواب» الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، لأن هذه الصغية ... صيغة «أواب» تدل على الكثرة، أي أنه كثير الأوبة إلى الله، فيمكن أن يعثر ثم ينهض، ويخطئ ثم يحاول التصويب وهكذا، فهو لا ييأس من روح الله، ولكن المهم كل الأهمية أن يكون عند التوبة عازماً ومصمماً على عدم العودة، هذا ركن ثان، ومهم، وضروري للتوبة النصوح.

الركن الثالث: أمر يتعلق بالجوارح، وهو أن يقلع بالفعل عن المعصية التي كان يقترفها من قبل، هذا الندم وذلك العزم لا بد من أن يكون لهما أثر، أثرهما هو الإقلاع عن المعصية، والبعد عنها، وكراهيتها، وكلما ذكرها سأل الله المغفرة، ورجاه الجنة، وخاف النار، هذا هو شأن الإنسان المؤمن التائب: أن يقلع بالفعل عن المعصية.

(37) رواه البخاري ومسلم «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (820/2 - 821)، الحديث (1928).

بل لا يكتفي بالإقلاع، ولكنه يعمل الصالحات في مقابل السيئات التي اقترفها، حتى يبذل الله سيئاته حسنات، وقد جاء في الحديث: «واتبع السيئة الحسنة تمحها»⁽³⁸⁾، وصدق الله العظيم: {... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ} [هود: 114].

وليحاول أن يمحو السيئات بأضدادها من الحسنات، إذا كان قد أكل مألأ من حرام، يحاول أن يتصدق بمال من حلال، إذا كان كثير الغيبة للناس ... يذكرهم بسوء، يجعل لسانه يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ويذكر أهل الخير في كل مجلس بما يستحقون، إذا كان قد فعل معصية معينة يحاول أن يعمل طاعة بضعها، إذا كان يقرأ كتباً رديئة يحاول أن يقرأ كتباً دينية وكتباً صالحة، إذا كان ينشر الفاحشة يحاول أن ينشر الفضيلة، وهكذا يحاول أن يجدد إيمانه من جديد، القرآن الكريم يقول: {... إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ...} [الفرقان: 70]، دائماً تقترن التوبة بالإيمان والعمل الصالح.

لماذا قال: «تاب وآمن»؟ لأن المعاصي - وخصوصاً الكبائر - تخدش الإيمان، وتنال منه، على قدر المعصية وكبرها، وإذا تاب الإنسان يحاول أن يجدد إيمانه، وأن يبني هذا الإيمان من جديد، ولذلك جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق

(38) رواه الترمذي وحسنه عن أبي ذر ومعاذ بن جبل، وأوله: «اتق الله حيثما كنت ...» وأخره: «وخالق الناس بخلق حسن». ورواه أحمد (123/5، 158، 177، 236)، والدارمي (323/2) وهو من أحاديث «الأربعين النووية»، وأفاض ابن رجب في شرحه في الحديث الثامن عشر من «جامع العلوم والحكم».

حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»⁽³⁹⁾، أي ليس مؤمناً الإيمان الحقيقي ... الكامل ... الصادق.

هذه الكبائر خدشت من إيمانه وجرحته، فهو لا بد أن يداوي هذه الجراح وهذه الكلام بالتوبة وبالإيمان.

«أمن وعمل صالحاً» يعمل الأعمال الصالحات بعد أن كان يعمل الأعمال السيئات، فهذا هو الأمر الإيجابي، أن يبدأ فيعمل الأعمال الصالحة يملأ بها صحائفه من جديد.

هذه هي التوبة النصوح: ندم، وعزم، وإقلاع.

إذا فعل ذلك، فإن الله عسع أهل لأن يتوب عليه، وأن يجعله من أهل محبته: { ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ } [البقرة: 222]، قال بعض الصالحين: سألت الله عدة سنين أمراً سهلاً ولم أراه استجاب لي! فقال له بعضهم: وماذا سألته؟ قال: سألته أن يتوب علي ... أن يرزقني توبة نصوحاً، قال: أتظن هذا الأمر سهلاً أو هيناً؟ أتدري ماذا تسأل الله؟ إنك تسأله أن يحبك، إنك تطلب محبة الله، لأنه الله تعالى يقول: { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ }، فأنت تطلب درجة من الدرجات العلى ... منزلة من المنازل التي لا تتناول إليها الأعناق: أن يحبك الله، وإذا أحبك الله كان سمعك الذي تسمع به، وبصرك الذي تبصر به⁽⁴⁰⁾ ... أصبحت ربانياً.

(39) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، عن أبي هريرة، وانظر:

«المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (615/2)، الحديث (1399).

(40) يشير إلى الحديث الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله تعالى قال: من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما

التوبة: ندم، وعزم، وإقلاع، هذه أركان التوبة.

أما شروطها فهي: أن ترد المظالم إلى أهلها، والحقوق إلى أصحابها.

تنقسم الذنوب إلى أقسام: صغائر، وكبائر.

الصغائر تكفرها الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان⁽⁴¹⁾، بل الصغائر يكفرها مجرد اجتناب الكبائر، كما قاله تعالى: {إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا} [النساء: 31]، أما الكبائر فلا تكفرها إلا التوبة.

ولكن الكبائر نوعان: حقوق لله، وحقوق للعباد.

هناك حقوق لله عليك تتعلق بترك المأمورات، مثل أن تكون قد تركت الصلاة، أو تكون قد تركت الصيام، أو نحو ذلك، وهناك حقوق لله تتعلق بفعل المحظورات، إذا تركت المحظورات تائبًا إلى الله، فقد ابيضت صفحتك، أما ترك المأمورات ففيه كلام وكلام، السنوات التي مرت من عمرك دون أن تصلي، أو دون أن تصوم، ماذا تصنع فيها؟

هنالك اختلف العلماء: هل يؤدي كل ما فاتته، ولو كانت عشرات السنين؟ وكيف يستطيع؟ وهناك رأي يقول: إن ما فات قد انتهى، ولا أمل في أن

تقرب إلى عبيد أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبيد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» وهو الحديث الثامن والثلاثون من «الأربعين النووية».

(41) يومئ إلى الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره في (ص 27).

يقضى ما فات.

معركة جدلية بين المذاهب المختلفة في قضاء الفوائت من الصلاة والصيام، ولعل الرأي الذي أرجحه، هو الرأي الذي يقول: إذا كان قد مضت عليه سنوات وسنوات، فالأولى أن يكثر من الطاعات ومن النوافل، ويحرص ببقية عمره على أداء الفرائض على أكمل وجه، ويستغفر الله لما مضى، لعل هذا هو الأولى وخصوصًا في قضاء الصلوات.

وأما حقوق العباد فهي المشكلة، كيف تتوب وفي رقبته حقوق للعباد؟ ولا يمكن أن تقبل التوبة والعباد يطالبونك بحقوقهم، وخصوصًا الحقوق المالية، ومنها حق الزكاة، لأن الزكاة حق لله وحق للفئات التي جعلها الله أهلاً لها، من الفقراء والمساكين والغارمين وأبناء السبيل.

لكي تصح توبتك، لا بد أن تحسب ما مضى من السنين من زكاة لم تؤدها، امسك قلمًا ودفترًا، أو هات آلة من الآلات الحاسبة، واحسب أموالك بالتقريب، كم عليك فيما مضى من السنين؟

هل صحت توبتك فتخرج ما عليك أيًا كان المبلغ؟ أم أن الدنيا تصبح أكبر عندك من الآخرة؟ فإذا وجدت المبلغ كبيرًا تركت التوبة، إذا كان المال أعز عندك من الجنة، فافعل ذلك، وإذا كانت الجنة أعز وأعلى، فأخرج من مالك ما وجب عليك ولو عشت فقيرًا.

حقوق الناس، إذا كنت تعرف أصحاب هذه الحقوق فرد إليهم حقوقهم، وإذا كانوا قد ماتوا فرد إلى ورثتهم.

الحقوق المالية في الإسلام لا تسقط بالتقادم، لا تسقط بمضي السنين، ليس

بعد عشر سنين، ولا عشرين، ولا ثلاثين، تقول: هذا انتهى، لا، سيظل في رقبتك، ابحث عن أصحابه، فإذا أعيك أمرهم ولم تعرفهم، أو كانوا غير محصورين، كالتاجر الذي يغش، أو يبيع ويطفف، أو ... أو ... إلخ، ظلم ألوف الناس في عمره، ما يصنع في هذا؟

إنه يحسب هذه المظالم بالتقريب، ويتصدق بذلك عن أصحابها لا يتصدق عن نفسه، لأنه ليس هو مالك المال الحرام، هذا المال الحرام ملك أهله وأصحابه، ولكن يتصدق عنهم، كما فعل ابن مسعود رضي الله عنه، حيث اشترى جارية من رجل، ودخل يزن له - وكانت النقود الفضية توزن في ذلك الوقت - فلما خرج بحث عن الرجل فلم يجده، ونادى: يا صاحب الجارية ... يا رجل، وظل يبحث عنه سنين حتى يئس منه، ثم قال: اللهم إني أتصدق بثمان الجارية عن هذا الرجل، فإن رضي يوم القيامة فله أجر هذه الصدقة، وإن لم يرض فأجرها لي، وليأخذ من حسناتي بقدر ماله، هكذا فعل ابن مسعود رضي الله عنه.

يوم القيامة يتعامل الناس بعملة واحدة، ليس هناك درهم ولا دينار، ولا ريال، ولا دولار، العملة الوحيدة في ذلك اليوم هي الحسنات والسيئات، ولا بد لكل إنسان أن يأخذ حقه، لا تسامح ولا تنازل، فهو يوم الأناية والفردية {... لا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ الْوَالِدَةِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٌ عَنِ الْوَالِدَةِ شَيْئاً...} [لقمان: 33]. كل امرئ يقول: نفسي نفسي، لا يتنازل عن الحسنة فلعل ميزانه ينقصها.

ولذلك فكل واحد يطلب حقه، ومم يأخذ الحق ولا نقود، ولا فلوس، إلا هذه الحسنات والسيئات؟ فإما أن يأخذوا من حسناتك حتى يستوفوا حقوقهم، وإما أن يحملوك من سيئاتهم إذا عجزت حسناتك عن الوفاء بالحقوق.

لا بد من رد الحقوق إلى أهلها، جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين»⁽⁴²⁾. الشهيد الذي يقتل في سبيل الله تكفر عنه خطايا، الشهادة مكفرة للذنوب، الشهادة في سبيل الله أعلى ما يتمناه المؤمنون ويحرصون عليه، ولكنها تكفر الذنوب إلا شيئاً واحداً، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إلا الدين»، وفي الحديث: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام فيهم فذكر أن الجهاد في سبيل الله، والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله: أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم، إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر» ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كيف قلت؟» قال: أرأيت إن قتلت في سبيل الله أتكفر عني خطاياي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، إلا الدين، فإن جبرائيل قال لي ذلك»⁽⁴³⁾، جبريل استدرك على النبي صلى الله عليه وسلم وصحح له: إن الشهادة في سبيل الله تكفر كل الذنوب وتمحوها إلا الديون.

حقوق العباد المالية هذه خطيرة، في غاية الخطورة، الحقوق التي للعباد ينبغي أن ترد.

الحقوق الأدبية يمكن للإنسان أن يعوضها بالاستغفار لهم، والثناء عليهم،

(42) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (398/1)، الحديث (731).

(43) رواه مسلم وغيره عن قتادة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (399/1)، الحديث (732).

والدعاء لهم، أما الحقوق المالية فإما أن يدفعها إليهم، أو إلى ورثتهم، أو يتصدق بمتلها⁽⁴⁴⁾، أو يستحلهم.

ما معنى: يستحلهم؟ يذهب ويقول له: يا أبا فلان، في أيام طيشي وغروري وبعدي عن الله أخذت منك شيئاً، أو نلت منك كذا، وأنا أرجو أن تسامحني، فإذا سامحه فقد تنازل عن حقه، وله أجره عند الله، وإلا فلا بد من الوفاء، وإن عجز وصدقت نيته وتوبته، فإن الله أهل يرضى عنه خصومه يوم القيامة.

التوبة ليست كلاماً يقال.

هناك ذنوب لها أهمية خاصة: الذين يذنبون ولا تموت معهم ذنوبهم، يا لخسران هؤلاء، طوبى لمن إذا مات، ماتت معه ذنوبه ومعاصيه، وويل لمن يموت وتظل ذنوبه مستمرة.

أنظروا إلى أصحاب الأفلام والمسلسلات والأغاني والكتب المليئة بالكفریات والضلالات، مات أصحابها ولكنها لا تزال تعمل في إفساد الناس، أفراداً وجماعات، هذا هو الخطر، ولذلك على هؤلاء أن يتوبوا مسارعين مبادرين، قبل أن يصبح الأمر خطيراً.

كم يصعب عليّ أولئك الذين ينتسبون إلى الفن، من الرجال والنساء، ثم تدرّكهم الصحوّة في يوم من الأيام فيتوبوا إلى الله، ما موقفهم وهم ينظرون في التلفازات وفي السينمات أنفسهم شبه عرايا، وفي المجون والخلاعة والفجور، ماذا يفعلون؟

(44) إذا مات أصحابها ولا وارث لهم، أو بحث عنهم فلم يجدهم.

كيف تكون هذه التوبة؟ إنه لا بد لها من عمل صالح مقابل هذه الأعمال السيئة.

الذي أضل الناس بكفره ... بقلمه ... بكتبه ... بمقالاته، هذا إذا أراد أن يتوب، يتوب، ولكن فكره المضلل المفسد المدمر ما زال يعمل عمله، ومن هنا لا يكفي أن يتوب حتى يخطئ نفسه، ويتبرأ من تلك الكتب، ويحاول منعها ما استطاع، كما فعل بعض الفنانين والفنانات: حاولوا أن يشتروا الأشرطة التي فيها الفساد القديم، وأحياناً لا يستطيعون بذلك، لأنها بيعت طيلة العمر، ولم تعد ملك أيديهم، فيعجزون عن عمل شيء، والله أعلم بمدى صدقهم ومدى عجزهم، وهو أهل المغفرة.

الله تعالى قال في توبة الكاتمين للعلم: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعْنُونَ 159} [البقرة: 159، 160]. لا تقبل توبتهم ما لم يصلحوا وبيّنوا، أما أن يقول أحدهم: تبت، ولا يزال ما فات كما فات، فهذه ليست توبة.

لا بد من إصلاح وتبيين، يبين فيه ضلال نفسه أمام الناس، ويعتذر على الملاء، وقد فعل ذلك بعض الكتاب الشجعان.

التوبة ليست كلمة تقال، ولا دعوى تدعى، التوبة عمل عظيم، تغيير في حياة الإنسان، تغيير يتغير كل شيء فيه: فكره، وقلبه، وعمله، وسلوكه، وحياته كلها، هذه هي التوبة.

ولذلك علامة في التائب: أن تجده قد غير أصحابه ... «الشلة» القديمة ...

إخوان السوء ... شياطين الإنس، الذين يشوشون عليه عزمه، ويصدونه عن سبيل الله، ويزينون له المعاصي.

لا بد له أن يغير هؤلاء، ويغير مجلسه، ويغير بيئته، حتى يسلك في عداد التائبين.

لقد قال الله تعالى عن التائبين: {التَّائِبُونَ الْعَبْدُونَ الْحَمِيدُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُضِلُّونَ الرَّسُولَ وَلَكِن لَّمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فَأُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُ اللَّهُ وَالَّذِينَ كَانُوا يُضِلُّونَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ فَأُولَٰئِكَ سَيُعَذِّبُ اللَّهُ اللَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ} [التوبة 112].

نسأل الله تعالى أن يتوب علينا توبة نصوحًا، وأن يجعلنا من التائبين المتطهرين، إنه عليم قدير وصلى الله على سيدنا محمد، وادعوا ربكم يسجبا لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زالت إسرائيل الدولة المغتصبة المعتدية، تعبت بحقوقنا ومقدساتنا، رغم ما يدعي إليه مما يسمى «السلام»، كيف يكون السلام وإسرائيل لا زالت متشبثة بمواقفها؟! لا زالت تشن عدوانها في جنوب لبنان، وما زالت متشبثة بالجولان، ولا زالت تعمل عملها في أبناء الحجارة، وفي الضفة الغربية وغزة، لا زالت تفعل الأفاعيل، تسفك الدماء، وتكسر العظام، وتهتك الحرمات، لا زالت إسرائيل تفعل هذا.

وآخر ما فعلت هو الاعتداء على المحكمة الشرعية الإسلامية في القدس، والاستيلاء على الوثائق المهمة، التي تثبت ممتلكات المسلمين، وممتلكات

الأوقاف الإسلامية، الممتلكات العامة، والممتلكات الخاصة، تريد ألا يبقى عند المسلمين أي شيء يدل على ملكيتهم، ومع هذا ما زلنا نلهث وراء السلام.

هذه إسرائيل، إسرائيل لا يمكن أن تؤدب إلا بالقوة، وفلسطين لا يمكن أن ترد إلا بالقوة، إلا بالجهاد، هذا ما اعتقده، هؤلاء المعتدون الظالمون لا يمكن أن يسكتهم إلا منطق القوة، لا قوة المنطق.

الله عع ذكر هؤلاء الناس في كتابه في مئات الآيات، لم يحدثنا عن فارس والروم إلا في آيات معدودات، أما بنو إسرائيل واليهود، فقد حدثنا عنهم في سور وسور، وآيات وآيات، لنكون على بصيرة من أمرهم، وعلى بينة من موافقهم، حتى نعد أنفسنا للقائم في يوم من الأيام.

نسأل الله عع أن ينير بصائر هذه الأمة، وأن يهئ لها من أمرها رشداً، وأن يجعل يومها خيراً من أمسها، وأن يجعل غدها خيراً من يومها، وأن يحسن عاقبتها في الأمور كلها.

اللهم انصرنا على أعدائنا أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين، اللهم اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبهم على التقى، ونياتهما على الجهاد في سبيلك، وعزائمها على عمل الخير، وخير العمل: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147].

{وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مَا تَصْنَعُونَ { [العنكبوت: 45].

* * *

هازم اللذات ... الموت

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كنا نتحدث عن التوبة، ووجدنا من عوائق التوبة طول الأمل ... التسويف ... استبعاد الموت، وهذه آفة قلما من سلم منها من الناس، ولهذا كان العلاج لهذا أن يذكر الناس الموت، وقد أوصانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك حينما قال: «أكثرُوا ذكر هَازِمِ اللذات: الموت»⁽⁴⁵⁾، وهو الذي يهزم اللذات ويقطعها، ويفرق الناس عنها.

لا بد من ذكر الموت، هذه حقيقة يهرب الناس منها، ويحاولون أن يبعدها عن أذهانهم وقلوبهم، وأن يعيشوا ليومهم دون أن يتفكروا في غدهم، ولحياتهم دون أن يذكروا موتهم، ولدنياهم دون أن يذكروا آخرتهم، حتى أن أكثر الوعاظ والخطباء، أصبحوا اليوم لا يذكرون الناس بهذه الحقائق، بمعاني الآخرة، بالموت وما بعده، ومعظم أحاديثهم عن مشكلات المجتمع، عما يعانيه الناس، ولا بأس بذلك، ولكن لا يعني هذا أن تغفل هذه الحقائق الروحية، وأولها: أن الناس ولدوا ليموتوا.

لدوا للموت وابتوا للخراب فكلكم يصير إلى التراب!
لهذا كان لا بد من التذكير بالموت، وقد عقد الإمام الغزالي كتابًا في

(45) أخرجه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وإسناده حسن، وله شواهد يصح بها «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (261/5).

«إحيائه»، في آخر «ربع المنجيات» من الإحياء⁽⁴⁶⁾، كتاب: «ذكر الموت وما بعده» قال في مطلعته: جدير بمن الموت مصرعه، والتراب مضجعه، والدود أنيسه، ومنكر ونكير جليسه، والقبر مقره، وبطن الأرض مستقره، والقيامة مواعده، والجنة أو النار مورده، ألا يكون له فكر إلا في الموت، ولا ذكر إلا له، ولا استعداد إلا لأجله، ولا تدبير إلا فيه، ولا تطلع إلا إليه، ولا تعريج إلا عليه، ولا اهتمام إلا به، ولا حول إلا حوله، ولا انتظار وتربص إلا له⁽⁴⁷⁾.

جدير بالإنسان - وهذا مصيره ... وتلك عاقبته - أن يتفكر في هذا المغير، الذي يغير عليه فجأة، ويهاجمه بغته، وأن يجعل من ذكره جلاء لقلبه من صدأ الغفلة والقسوة، كما جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»، فقيل: يا رسول الله وما جلاؤها؟ فقال: «تلاوة القرآن وذكر الموت»⁽⁴⁸⁾، لقد ترك فينا النبي صلى الله عليه وسلم واعظين بليغين: ناطقاً وصامتاً، فالناطق هو القرآن، والصامت هو الموت!

لا يعرف أحد متى يأتي الموت، ولا أين يكون الموت {... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّادًا تَكْسِبُ عَذَابًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34]،

(46) أسس الإمام الغزالي كتابه «إحياء علوم الدين» على أربعة أرباع وهي: ربع العبادات، ربع العبادات، وربع العادات، وربع المهلكات، وربع المنجيات.

(47) «إحياء علوم الدين» للغزالي، مذيلاً بتخريج الحافظ العراقي، ط. دار المعرفة - بيروت، (448/4).

(48) قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء»: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف (الإحياء: 273/1).

وكذلك لا تدري أي زمن تموت: أتموت شابًا، أم تموت كهلاً، أم تموت شيخًا؟ قد تبقى إلى السبعين، وقد تبقى إلى المائة، وقد تتجاوز المائة، وقد تختطف في ريعان شبابك ومقتبل عمرك، قد تكون هذا وقد تكون ذاك، المهم أنه ليس عندك صك بموعد الموت، ولا تعرف متى يزورك «عزرائيل».

كم اختطف الموت أبا من بنيه، وابنًا من أبيه، وأخًا من أخيه، وقريبًا من قريبه، وحبیبًا من حبيبه، وقائدًا من جنده، وأستاذًا من تلاميذه، فلم يستطع أحد أن يدفع عنه بنفس ولا مال ولا جاه.

إن الحبيب من الأحاب لا يمنع الموت بواب ولا فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يا من يعد عليه اللفظ والنفس أصبحت يا غافلًا في النقص وأنت دهرك في اللذات لا يرحم الموت ذا جهل لغرته ولا الذي كان منه العلم يقتبس فالموت باب وكل الناس داخله، وكأس وكل الناس شاربه، وحوض وكل الناس وارده، وصدق الله العظيم إذ يقول: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [العنكبوت: 57]، {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [آل عمران: 185].

قد تموت شابًا وقد تموت شيخًا، ولكن النتيجة واحدة، عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به ومسؤول عنه، عش مائة سنة، أو عش ألف سنة، أليس آخرها الموت؟

وإذا كان آخر العمر موتًا فسواءً قصيره والطويل

وكل من يموت سيأتي ساعة الموت، ويقول: لو أنني أبقيت قليلاً لأزيد من عمل الصالحات، إن كان من أهل الصالحات! أو أعمل صالحاً إن كان من المفرطين! وهيئات هيئات ... هيئات هيئات {يَأْيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ 9 وَأَنْفِقُوا مِنْ مَّا رَزَقْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّٰلِحِينَ 10 وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المنافقون: 9 - 11].

إذا جاء الأجل فلا تأخير {... فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [الأعراف: 34، النحل: 61]، والساعة هنا ليست الساعة الفلكية ... ستين دقيقة، الساعة هي اللحظة من الزمن، لا يستأخر لحظة من الزمن ولا يستقدم. العمر أيام معدودة وأنفاس محدودة، لا بد أن تنتهي بالموت.

علامة الموت: الميلاد، إذا ولد الإنسان كان ذلك علامة على أنه سيموت، وكل يوم ينقضي من عمره، فقد طويت صفحة من كتابه، ولهذا نعجب من الذين يحتفلون بأعياد ميلادهم، وكان الأولى أن يتفكروا في يوم الميلاد، قرب أجالهم، ونقص أعمارهم، فكل سنة تنقضي جدار يتهدم من بنيان العمر.

ونفرح بالأيام إما تصرمت على أنها من عمرنا نتصرم
إننا لنفرح بالأيام نقطعها وكل يوم مضى جزء من
كان الحسن البصري يقول: «يا ابن آدم، إنما أنت أيام مجتمعة، كلما ذهب يوم ذهب بعضك»، أنت مجموعة أيام، كلما ذهب يوم ذهب جزء منك، حتى يذهب كلك.

الموت حوض مورود لكل الناس، لم ينج منه نبي، ولا ولي، ولا ملك، ولا أمير، لا أهل الدين ولا أهل الدنيا.

الأنبياء ذاقوا مرارة الموت، على ما لهم عند الله من عظيم المنزلة، قالوا: إن نوحًا سسس، وهو أطول الأنبياء عمرًا، عمر في الدنيا أكثر من ألف سنة، لبث في قومه يدعوهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، عدا السنين التي قبل النبوة، والسنين التي عاشها بعد الطوفان⁽⁴⁹⁾، وقد حكوا أن ملك الموت حينما جاءه ليتوفاه، سأله، يا أطول الأنبياء عمرًا، كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدت كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر.

هكذا الدنيا، الأنبياء ذاقوا كأس الموت.

يوسف سسس لقى في الدنيا ما لقى من محن ومنح، ثم أتاه الله الملك، وجعله على خزائن الأرض، ثم كان مصيره ما حكاه الله عنه بقوله: {رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمْتَنِي مَا تَأْوِيلُ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: 101]، وهذا ما ينبغي أن يفكر فيه المؤمن، أن يتوفاه الله مسلمًا، وأن يلحقه بالصالحين، وهكذا كان المؤمنون يدعون: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ} [الأعراف: 126]، هكذا كان همهم.

وخير الأنبياء وخاتمهم وخيرة الله من خلقه: محمد صلى الله عليه وسلم خاطبه الله بقوله: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّن مَّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ 34 كُلُّ

(49) يقول الله عز وجل : {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ} [العنكبوت: 14].

نَفْسٍ ذَانِقَةً الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: 34، 35]،
وقال مخاطبًا له: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ 30 ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ
تَخْتَصِمُونَ} [الزمر: 30، 31].

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعاني سكرات الموت، وكان عنده
قدح من ماء، فكان يأخذ منه، يمسح بهذا الماء وجهه ويقول: «اللهم أعني
على غمرات الموت، أو على سكرات الموت»⁽⁵⁰⁾، محمد صلى الله عليه
وسلم يدعو الله بهذا ويقول: «إني أو عك كما يو عك رجلا ن منكم»⁽⁵¹⁾،
وبجواره ابنته فاطمة رضي الله عنها تبكي وتقول: واكرب أباه، فيقول لها
النبي: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم»⁽⁵²⁾.

مات رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات أصحابه.

أبو بكر رضي الله عنه حضرته الوفاة، فجلست بجواره عائشة رضي الله
عنها فأنشدت قول القائل:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل
فقال لها أبو بكر مصححًا لها: ذاك رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم

(50) رواه الترمذي في «الجنائز» (978) وقال: حسن صحيح غريب، وفي بعض النسخ:
غريب فقط، وابن ماجه (1623) والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (465/2) وفي سنده
عندهم: موسى بن سرجس، قال في التعريف: مستور

(51) متفق على صحته من حديث ابن مسعود «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش
والأرناؤوط (243/5) حديث (1432)

(52) رواه البخاري وغيره من حديث أنس بن مالك في كتاب «المغازي»، باب: مرض
النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته، الحديث (4462)، «فتح الباري» (755/7) ط. دار
الريان للتراث - القاهرة.

أنشدت قول الشاعر، وكانت ممن يحفظ من الشعر الكثير:

لعمرك ما يغني الثراء عن إذا حشرجت يوماً، وضاق بها
أي الروح إذا بيلغت الحلقوم، فقال لها: بل قولي ما قال الله تعالى: {وَجَاءَتْ
سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ} [ق: 19] ، وهو في هذا الوقت
يصح المفاهيم، ويقول لها: يدل على أن تذكري الشعر اذكري القرآن.
هكذا ينبغي أن يكون الإنسان ذاكرًا لربه في هذا الوقت، ذاكرًا لكتابه،
خائفًا من ذنبه، راجيًا رحمة ربه.

دخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب يحتضر فقال له: «كيف
تجدك؟» قال: أرجو الله يا رسول الله، وإنني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا
أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف»⁽⁵³⁾، ما دام الإنسان في مثل هذا
الموطن يرجو ويخاف، يرجو المغفرة ويخاف عاقبة الذنوب، فإن الله سبحانه
وتعالى سيكون عند حسن ظن عبده به، سيؤمنه مما يخاف، ويعطيه ما يرجو.
ومرض أحد الصالحين مرض الموت، فعاده بعض أصحابه فقالوا له: أي
شيء تشتهي؟ قال: أشتهي مما خلفت من ذنوبي، قالوا له: وأي شيء تشتهي؟
قال: لا أشتهي إلا مغفرة ربي، قالوا له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: الطبيب هو
الذي أمرضني.

(53) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال: حديث غريب، وفي بعض النسخ: حسن
غريب، ورواه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وذكره الألباني في «صحيحه». «المنتقى من
كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (875/2) الحديث (2112).

هكذا كانت قلوب معلقة بالله عز وجل، فكل ما يشغلها هو لقاء الله، وذنوبها التي خلفت، ومغفرة الله التي ترجوها.

الموت لم يدع نبياً، ولم يدع ولياً، ولم يدع خليفة، ولم يدع ملكاً، ولم يدع أميراً، ولم يدع غنياً، ولم يدع فقيراً، كلهم ورد حوض الموت.

قالوا: إن هارون الرشيد أصابه المرض، فعرض بوله على أحد الأطباء، وهو لا يعرف أن هذا للرشيد، فقال: صاحب هذا البول ميؤوس منه، وبلغ ذلك الرشيد، فقال:

إن الطبيب له علم يدل به ما دام في أجل الإنسان تأخير
حتى إذا ما انقضت أيام مهلته حار الطبيب وخانتها العقاقير!
الطبيب إنما ينفع طبه ما دام هناك في الأجل متسع، ولكن إذا حان الأجل،
إذا كان الداء من السماء، بطل الدواء، وحار الأطباء، وكان لا بد من اللقاء.

أعطى الشاعر ابن الرومي دواء غلطاً، فكان سبباً في موته، ولما لام
الناس الطبيب الذي وصف له الدواء قال:

غلط البيب على غلطة موردٍ عجزت مواردُه عن الإصدار
والناس يلحون الطبيب، وإنما غلط الطبيب إصابة الأقدار
الطبيب غلط، ولكن القدر لم يغلط، كان لا بد من أن يموت.

إذا جاء الموت لم ينفع طب، ولم ينفع دواء، ليس معنى هذا أن نترك
الدواء، لا بأس أن نتداوى، فإن الذي أنزل الداء أنزل الشفاء، علمه من علمه،

وجهله من جهله⁽⁵⁴⁾. ولكن الدواء ينفع ما دام في الأجل بقية، فإذا جاء الموت لم ينفع شيء.

نظر الرشيد إلى أكفانه فقال: {مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَّةٌ 28 هَلْكَ عَنِّي سُلْطَنِيَّةٌ} [الحاقة: 28، 29]، وابنه المأمون حينما جاءه الموت، كان يدعو الله ويقول: يا من لا يزول ملكه، ارحم من قد زال ملكه! وقالوا عن عبد الملك بن مروان: إنه حينما مرض مرض الموت، نظر إلى غسل كان يغسل الثياب بيده في دمشق فقال: ليتني كنت غسلًا، أكل من كسب يدي يومًا بيوم، ولم أَل من أمر الدنيا شيئًا! فبلغ ذلك الإمام «أبا حازم» فقال: الحمد لله الذي جعلهم إذا حضرهم الموت يتمنون ما نحن فيه، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه! يتمنى هؤلاء عند الموت أن يكونوا غسلين أو عمالين، ولم يلوا أمر هذه الدنيا، ولا ملكها.

نظر سليمان بن عبد الملك الخليفة الأموي يومًا إلى المرأة، فأعجبته صورتها، وأعجبته نفسه، وقال في غرور: أنا الملك الفتى ... الملك الشاب، ونظر إلى جارية له يبدو أنها من الصالحات، فقال: ما تقولين في؟ فأنشدت تقول:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان!
ليس فيما رأيته فيك عيب كان في الناس غير أنك فان!

(54) في الحديث عن ابن مسعود يرفعه: «إن الله عز وجل لم ينزل داء إلا أنزل له شفاء، علمه من علمه، وجهله من جهله» أخرجه أحمد، وابن ماجه، وإسناده صحيح، وصححه البوصيري في «زوائد»، والحاكم، ووافقه الذهبي «زاد المعاد» لابن القيم بتحقيق شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط (13/4 - 14).

هكذا لملوك، هكذا الخلفاء، هكذا الأغنياء⁽⁵⁵⁾.

هل رأيتم أحدًا استطاع أن يؤخر الموت يومًا، أو ساعة، أو بعض ساعة؟
هل استطاع ذو سلطان أن يرهب ملك الموت بسلطانه؟ هل استطاع غني أن
يرشو «عزرائيل» بشيء من ماله؟

لا والله، أخذهم الموت أخذًا، لم يدع كبيرًا ولا صغيرًا، ولا غنيًا ولا فقيرًا،
ولا نبيًا ولا وليًا، ولا ذا سلطان أو ذا ثروة، كلهم أكلهم الموت.

اذهب إلى المقابر، ماذا تجد فيها؟ اذهب إلى وادي الموتى، ستجد الكل
متساوين في ظاهر الأمر، الكل قد ضمتهم القبور، تركوا القصور إلى القبور،
تركوا النعيم إلى أعمالهم، إلى مجازاة الله سبحانه وتعالى.

هل يتذكر الناس ذلك؟ هل يتعظ الناس بالموت؟ هل يتعظ الناس بمن مات
من آبائهم وأجدادهم وإخوانهم وأقربائهم وأحبائهم؟ كم ودعنا من الناس؟ كم
ودعنا من أحبة؟ كم ودعنا من أقرباء؟

ولكن الناس لا يذكرون الموت، كأنهم يظنون أنهم في الدنيا مخلصون، إنها
الغفلة، إنه طول الأمل، وطول الأمل هو الآفة.

الموت قريب، وأقرب مما يتصور الناس، وكل أت قريب، قد يكون كلمح
البصر أو هو أقرب، قد يأتي عليك الصباح ولا يأتي عليك المساء، وقد تمسي
ولا تصبح، وقد تلبس الثوب ولا تستطيع أن تخلعه، وإنما تخلعه يد غاسلك،
وقد تخرج من البيت حاملاً ولا تعود إليه إلا محمولاً.

(55) من أراد معرفة المزيد من أخبار المحتضرين من الخلفاء والصالحين، فليرجع إلى
كتاب «ذكر الموت وما بعده» من «إحياء علوم الدين» للغزالي.

هل نعرف هذا كله؟ هل نذكر الموت؟ هل يذكر بعضنا بعضًا بالموت؟ إن الموت هادم اللذات، ولكن الناس لا يذكرونه.

الموت قريب وقريب جدًا، وخاصة في عصرنا الذي يختطف فيه الموت الناس وهم أصحاء، بالسكته ... بالذبحة ... بأفة من الآفات المرضية التي أصبحت من آفات هذا العصر ... بحادثة من حوادث الطرق، بهذا أو بغيره.

ومن لم يمت بالسيف مات تعددت الأسباب والموت واحد
الموت آت لا يستطيع أحد أن يفر منه: {قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ...} [الجمعة: 8] {أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ...} [النساء: 78] {قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ...} [آل عمران: 154]، ما دام الأجل قد انتهى فالموت آت.

كان هناك وباء في بلد، فخرج ابن لأعرابي من هذا البلد فرارًا من الموت الذي فيه، وذهب إلى بلد آخر، وفي الطريق أوى إلى ظل شجرة. فلدغته أفعى فمات، فقال أبوه:

راح يبغي نجوة من هالك فهلك
والمناياراصدات للفتى حيث سالك
كل شيء قاتل حين تلقى أجلك

أجل، كل شيء قاتل، حين ينتهي الأجل، بعثرة طريق، بضربة شمس، بأدنى شيء.

المهم أن تستعد للموت، كما جاء في الحديث: «الكيس من دان نفسه

و**عمل لما بعد الموت**»⁽⁵⁶⁾، الكيس: العاقل، من حاسبها، وعمل لما بعد الموت: أعد للأمر عدته، وأخذ له أهبتة، حتى لا يسير بغير زاد.

تزود للذي لا بد منه فإن الموت ميقات العباد

أترضى أن تكون رفيق لهم زاد وأنت بغير زاد

أترضى أن تسافر بغير زاد، وخصوصًا إذا كان رفاؤك في السفر لا يعطونك من زادهم شيئًا؟ يوم القيامة لا يعطي أحد لأحد: {لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَالدَةٍ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنِ الْوَالِدَةِ شَيْئًا...} [لقمان: 33]، فهل أعددت زاد الآخرة؟ هل أعددت الزاد لما بعد الموت؟

لا بد من أن نتذكر الموت، لا بد من أن نجعله نصب أعيننا «**اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً**»⁽⁵⁷⁾، بل من يدري لعلك تموت اليوم قبل الغد، فلا بد من أن توازن بين الدنيا والآخرة، وأن تأخذ من حياتك لموتك، ومن شبابك لهرمك، ومن صحتك لسقمك، هذا هو شأن الإنسان المؤمن.

أكثرُوا من ذر هاذم اللذات، أكثرُوا من ذكر الموت.

والناس صنفان:

(56) تنمة الحديث: «والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى على الله» في إسناده «بقية ابن الوليد» وهو مدلس، ولكنه صرح بالتحديث، كما في حديث ابن ماجه، وهو عند الترمذي بإسناد آخر وقال: حديث حسن، ورواه الحاكم وقال: صحيح، ووافقه الذهبي. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (869/2) الحديث (2090).

(57) صح هذا من كلام الصحابة رضي الله عنهم مثل ابن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، ولم يصح مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

صنف يعيشون غافلين، لا يفكرون إلا في دنياهم ... إلا في شهواتهم ... إلا في مصالحهم العاجلة، لا ينظرون إلى الغد، ولا يفكرون فيما يأتي بعد، هؤلاء هم الغافلون، هؤلاء هم الذين لم تستيقن قلوبهم بالآخرة، لو كانوا موقنين بالآخرة لغيروا طريقة تفكيرهم.

وهناك صنف آخر، يعلمون أن مع اليوم غداً، وأن غداً لناظره قريب، وأن كل امرئ مصبح في أهله، والموت أقرب من شرك نعله، وأن الموت آت لا بد منه، لهذا يستعدون للموت، فإذا جاءهم لم يخافوا، ولم يحزنوا، لأنهم تهيأوا له، واعدوا له الزاد، ولأنهم يعلمون أن الموت ليس عدماً صرفاً، ولا فناء محضاً، ولو كان الموت عدماً لم يخلقه الله، وقد قال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ أَجْسَادَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا} [الملك: 2]، لو كان الموت عدماً ما خلقه الله.

الموت مرحلة، مرحلة انتقال، كما جاء عن عمر بن عبد العزيز: إنما خلقتم للأبد «أي للخلود الأبدى» وإنما تنتقلون بالموت من دارٍ إلى دارٍ، من دار الغرور إلى دار السرور، أو الحزن، هي سرور لأناس وحزن على آخرين، من دار الفناء إلى دار البقاء، من دار المفر إلى دار المقر.

وما الموت إلا حلة غير أنها من المنزل الفاني إلى المنزل هؤلاء لا يخافون الموت، إنهم يعلمون أنهم خلقوا للآخرة، خلقوا للخلود، وإلا ما كان لهذه الدنيا معنى، ولا كان لها طعم، لو كانت هي المقر، لو كان لا شيء بعد الموت، كما قال الدهريون: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض تبلع، ولا شيء بعد ذلك: {... نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ} (58) [الجنائية: 24] لو

(58) ونصها: {وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ

كان الأمر كذلك، لكانت الحياة كلها باطلاً، والله تعالى قد نفى ذلك وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ 27 أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفَجَّارِ﴾ [ص: 27، 28]، هيهات، لا يستوي المتقون والفجار، ولا يستوي المؤمنون والكفار، ولا يستوي الأخيار والأشرار، كل سيجزى بعمله.

فكروا في الموت، أذكروا هادم اللذات، أذكروه عسى أن تترطب قلوبنا، وتلين في قسوتها، كان بعض السلف قد حفر في بيته حفرة أشبه بالقبر، كلما قسا قلبه نزل فرقد فيها، وأغمض عينيه، وخيل إلى نفسه أنه مات، ثم قال: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ 99 لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا...﴾⁽⁵⁹⁾ [المؤمنون: 99، 100]، ثم يفتح عينيه ويقول: ها يا نفس، ها أنت في الدنيا الآن فمالك لا تعملين؟

أنتم في الدنيا ممكنون من العمل ... أكثر من يغبطهم أهل القبور أهل المساجد، يقولون: ليتنا، نسبح كما يسبحون، ونذكر الله كما يذكرون، ونصلي كما يصلون.

اغتنموا العمر، اغتنموا الوقت، قبل أن يفوت الأوان.

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا ممن خشعت قلوبهم، ولانت أفئدتهم، وتذكروا آخرتهم، اللهم آمين.

اذكروا الله تعالى، واستغفروه يستجب لكم.

إِنَّ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ}.

(59) يتمثل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ 99 لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: 99، 100]

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

فقد ورد في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر. اللهم أعنا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، واجعل كلمة الإسلام هي العليا، وكلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

{... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

عباد الله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56] أقم الصلاة.

* * *

شؤم المعصية

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كان السلف الصالح رضي الله عنهم، إذا نزل بأحدهم بلاء أو شكوا من أمر من أمور الدنيا حل به، رجع في ذلك إلى نفسه، وعاد باللائمة عليها، وقال: لا بد أني قد أذنبت ذنباً، لا بد أني قد قصرت في حق الله تعالى، لا بد أني فرطت في جنب الله، ظلمت عبداً من عباد الله، ضيعت فريضة من فرائض الله، انتهكت حرمة من حرمة الله، فسرعان ما يرجع إلى ربه ويقرع بابيه تائباً مستغفراً، ويقول ما قاله أبوه آدم وأمه حواء، حينما أخرجوا من الجنة: {... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} [الأعراف: 23].

هذا شأن الإنسان المؤمن، إذا أصابه خير رد الفضل إلى الله، وقال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وإذا أصابه شر لم يلم إلا نفسه، ولم تهتم إلا نفسه: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ} [النساء: 79].

هكذا كان شعارهم، وهكذا كان دينهم، هذا هو شأن المؤمن، أن يرجع كل فضل إلى الله سبحانه وتعالى، فهو صاحب الفضل والنعمة: {وَمَا بِكُمْ مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...} [النحل: 53]، وأن يرجع كل شر إلى نفسه.

كان بعض السلف رضوان الله عليهم يقول: إني لأرى شؤم معصيتي في سوء خلق امرأتي ودابتي، يعني إذا نكدت عليه امرأته، أو حرنت عليه دابته،

يقول: لا بد أني قد ارتكبت معصية من المعاصي.

كل شيء كانوا يعودون به إلى شؤم المعصية، فللمعاصي آثارها الوخيمة في الدنيا والآخرة، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: إن للحسنة ضياء في الوجه، ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه، وظلمة في القلب، وهنأ في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضًا في قلوب الخلق.

بعض الناس يظنون أن شؤم المعاصي وعقوبتها مؤجل إلى الآخرة، إلى حساب الله يوم القيامة، لا، هناك حساب في الآخرة، وهناك حساب في الدنيا، يعجل الله للناس بعض العقوبة في الدنيا، وخاصة إذا لم يعاقبوا العقوبات الشرعية فإن العقوبات القدرية لهم بالمرصاد.

هناك عقوبات شرعية على بعض المعاصي، هناك حدود وتعازير، هناك الجلد للزاني، الجلد للسكير، القطع للشارق، الإعدام لقاتل العمد، إلى آخر ما جاء به القرآن، وجاءت به السنة، وأجمعت عليه الأمة.

فإذا نفذت هذه العقوبات الشرعية، وأقيمت حدود الله في أرضه، كان ذلك أخف على الناس من العقوبات القدرية، ولذلك ود في الحديث: «**حد يعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يمطروا أربعين صباحًا**»⁽⁶⁰⁾.

حدّ لله يقام بحقه على من يستحقه، وبعد استيفاء شرطه، أركى وأبرك على

(60) الحديث روي بألفاظ مختلفة عن أبي هريرة، وهذا لفظ ابن ماجه برقم (2538)، ورواه النسائي (75/8، 76) وابن حبان في «صحيحه» كما في «موارد الظمان» (1507)، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (650/2)، الحديث (1396).

الأرض من مطر أربعين صباحًا، لأنه لا خير في أن تمطر السماء، وتنتبت الأرض، ويثمر الثمر، ثم يأكل هذا كله بعد ذلك: الزناة والسكIRON والعريدون والفجرة الذين يظلمون الناس، ويهلكون الحرث والنسل، ويطغون في البلاد، فيكثرون فيها الفساد.

فإذا لم تقم الحدود، وإذا لم يعاقب المفسدون، إذا ضيع الناس العقوبة الشرعية، فإن السماء تنزل عقابها على الناس.

إن العقوبات السماوية ... العقوبات القدرية ... العقوبات الكونية، لهم بالمرصاد، وإذا نزلت فإنها تنزل على الجميع، العقوبات الشرعية تخص فلا تصيب إلا من يستحقها، أما العقوبات القدرية السماوية فإنها تعم: {وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال: 25].

حينما ينزل البلاء، حينما ينزل شؤم المعصية على الناس، يصيب الجميع، الصالح والظالم، الطالح لطالحه، والصالح لسكوته على المنكر، وعدم تغييره له، فإذا اشترك الناس في ترك المنكر، فإن الله يوشك أن يعمهم بعقاب من عنده.

المعصية شؤم على الناس، شؤم على الفرد في حياته، تصيبه بالقلق، تصيبه بالرعب، تصيبه بالأمراض، تصيبه بكل ما يعكر عليه صفوه، وما ينغص عليه عيشه، إنها «المعيشة الضنك» كما قال الله سبحانه وتعالى حينما أنزل آدم وزوجه إلى الأرض: {قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى 123 وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى 124 قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي

أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا 125 قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى {
طه: 123 - 126}.

وقد يعيش الإنسان هذه المعيشة الضنك، وعنده الآلاف والملايين، إن الضنك في نفسه، إن الضنك في صدره، إن هذا كله في داخله، يشكو منه رغم أن معه الآلاف والملايين، الرعب يملأ قلبه، يخاف من كل شيء، يخاف من الأمراض، يخاف من الموت، يخاف من المستقبل المجهول، يخاف من فقدان النعمة، يخاف من نزول النعمة، وهذا كله من شؤم المعصية.

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم وحطها بطاعة رب العباد فرب العباد سريع النقم إن الناس عندما يشكرون نعمة الله ويستخدمونها في طاعته، فإن الله عز وجل يحفظها عليهم، ويزيدهم منها، أما إذا كفروا نعمته، إذا بطروا بها، إذا لم يؤدوا حقها، إذا أصبحت النعمة في أيديهم مصدرًا للمعصية، وسببًا للإعراض عن الله، فإن الله سرعان ما يعاقبهم {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} [النحل: 112].

إن النعم إنما أعطيت للناس ليستعينوا بها على طاعة الله، لتكون أدايتهم للوفاء بحق الله وشكره، أما إذا استخدموها في المعصية، إذا أتى الله الإنسان المال فجعله سببًا في الفساد، إذا أتاه الصحة فاستمتع بصحته في الشهوات المحرمة، إذا أتاه العقل فلم يفكر به إلا في الشر، إذا أصبحت نعم الله على الناس وسائل لمعصيته، فإنهم لا يستحقونها، لا يستحقون أن تبقى هذه النعم عندهم، يجب أن تسلب منهم، وقد لا تسلب منهم فجأة، وإنما تسلب منهم

رويداً رويداً، يذكرون بالندى شيئاً فشيئاً، فإذا تذكروا، وإذا اتعظوا، وإذا انتبهوا من غفلتهم، وصحوا من سكرتهم، فإن الله جدير أن يقبل منهم، أما إذا سدروا في غلوائهم، وظلوا على كفرانهم، فإن النعمة جديرة أن تسلب منهم وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: 7].

إن الطاعة والاستقامة، والتقوى لله عز وجل، هي التي تمنح الناس الحياة الطيبة في الدنيا، والأجر الحسن في الآخرة: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النحل: 97].

وليست الحياة الطيبة بكثرة المال ولا بالرفاهية، فقد كان الناس في هذه البلاد قبل عصر «البترول»، وقبل الملايين التي يعبت الناس بها اليوم، كانوا يعيشون عيشة طيبة، كانوا متعاونين في السراء والضراء، كانوا قانعين بالقليل، راضين به، كانوا مطمئنين إلى حياتهم، كانوا يحب بعضهم بعضاً، كان يأمن كل واحد منهم أخاه على نفسه وماله وعرضه، كانت حياة طيبة، فماذا صنع الناس حينما تدفقت عليهم الثروات، ووسع الله عليهم في الرزق، وأفاء عليهم من فضله، وفجر الأرض تحت أقدامهم بالذهب الأسود، ماذا فعل الناس إزاء هذه النعمة؟ هل حفظوها؟ هل بقوا كما كانوا من قبل؟ أم أصبحنا نسمع ونرى ونقرأ، ما يصنعه أصحاب الثروات، الذين يلعبون بالملايين في بلاد الكفر، وينفقونها في الخمر والميسر والنساء؟ ضيعوا الأموال، وضيعوا الحقوق: حق الله وحق عباده، فضاع كل شيء بعد هذا.

إن المعصية شؤم على الفرد، شؤم على الجماعة، شؤم على الناس جميعاً،

شؤم على البهائم والكائنات الحية جمعاء، حتى قال أبو هريرة: إن الحبارى لتموت في وكرها من ظلم الظالم! وقال مجاهد: إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتد القحط وأمسك المطر، وتقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم!

وللإمام ابن القيم كتاب عن «الداء والدواء»⁽⁶¹⁾ ذكر فيه من الآثار السيئة للمعاصي ما يزيد على المائة، وهو كتاب ينبغي أن يقرأ، حذرًا من عواقب المعصية وشؤمها في الدنيا قبل الآخرة.

ومن هنا ينبغي أن يرجع الناس إلى الله، وأن يقولوا كما قال الربانيون: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، حينما أصاب الربانيون في القتال، وقتل منهم من قتل، لم يهنوا لما أصابهم في سبيل الله، ولم يضعفوا، ولم يستكينوا، ولكنهم حينما دعوا الله ماذا قالوا؟ قالوا: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا}، اتهموا أنفسهم، فيجب على الناس أن يتهموا أنفسهم، وأن يعلموا أن الله عع لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، سنة من سنن الله لا تتبدل، وقانون من قوانينه لا يتغير، اسمعوا قول الله تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [الأنفال: 53].

لو آمن الناس واتقوا واستقاموا، لتنزلت عليهم البركات من السماء ومن الأرض، من فوقهم ومن تحت أرجلهم، هذا هو قانون الله الذي سجله في كتابه، اسمعوا معي هذه الآيات: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا 2 وَيَرْزُقْهُ مِنْ

(61) وله عنوان آخر هو: «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي»، وقد سبق التعريف به في (ص 38).

حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ...} [الطلاق: 2، 3]، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا} [الطلاق: 4]، {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ 65 وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ...} [المائدة: 65، 66] {وَأَلَوْ اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا} [الجن: 16].

هذا هو قانون الله: لو آمن الناس واستقاموا واتقوا، لتفتحت عليهم بركات السماء والأرض، ولازدادوا كل يوم من نعم الله، ولكن كذبوا، ولكن فجرّوا، ولكن كفروا بالنعمة، وبطروا بها، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، فجاءتهم النذر، نذر بعد نذر، تنبيههم أن مالك الملك، وخالق الخلق، ومدبر الأمر، يمكن أن يغير حالهم، لا تظنوا أن الأمور تجري كما تشاؤون، لا، هناك قدر أعلى، هناك من ينظم هذا الكون، هناك إله عظيم، يحكم لكل بما يستحق، وعلى كل بما يستحق.

فينبغي أن يتنبه الناس لهذه النذر، ينبغي أن يربط الناس بين ما يصيبهم وبين ما يصنعون، هذا هو شأن الإنسان المسلم، الإنسان الصادق مع نفسه، الصادق مع ربه.

إذا آمن الناس واتقوا، تنزلت عليهم البركات، أما إذا لم يؤمنوا ولم يتقوا، فلن تنزل عليهم البركات، وإنما تنزل عليهم اللعنات، فالمعصية ليس وراءها إلا اللعنات.

لقد لعن الله في كتابه أناساً من الناس، لعن الذين يفسدون في الأرض، ويقطعون أرحامهم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا

أَرْحَامَكُمْ 22 أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ} [محمد: 22، 23]،
لعن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب⁽⁶²⁾، لعن الذين يرمون المحصنات
الغافلات المؤمنات⁽⁶³⁾، لعن كثيرين من أهل المعاصي، لعن الظالمين {أَلَا
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود: 18]، لعن الكاذبين {... ثُمَّ نَبَّهْلَ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ
عَلَى الكاذِبِينَ} [آل عمران: 61].

ولعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه من الأحاديث كثيرين،
لعن شارب الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها والمحمولة إليه، وأكل
ثمنها، لعن فيها عشرة⁽⁶⁴⁾، لعن آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهديه⁽⁶⁵⁾، لعن
الواصل والموصلة⁽⁶⁶⁾، والواشمة والمستوشمة⁽⁶⁷⁾ والنامصة

(62) قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ
يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ} [البقرة: 159].

(63) قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}
[النور: 23].

(64) روى أنس رضي الله عنه: لعن الرسول صلى الله عليه وسلم في الخمر عشرة:
«عاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وحاملها، والمحمولة إليه، وساقها، وبائعها، وأكل
ثمنها، والمشتري لها، والمشتري له». رواه ابن ماجه، والترمذي واللفظ له، وقال:
غريب من حديث أنس، وقد روي نحو هذا عن ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر عن
النبي صلى الله عليه وسلم، فالحديث صحيح بشواهده «المنتقى من كتاب الترغيب
والترهيب» (652/2)، الحديث (1401).

(65) روى جابر رضي الله عنه: «لعن النبي صلى الله عليه وسلم: آكل الربا، ومؤكله،
وكاتبه، وشاهديه، وقال هم سواء» رواه مسلم وغيره «المنتقى من كتاب الترغيب
والترهيب» (534/2)، الحديث (1056).

(66) الواصل: التي تصل الشعر بشعر النساء، والموصلة: المعمول بها ذلك.

(67) الواشمة: التي تغرز اليد أو الوجه بالإبر، ثم تحشي ذلك المكان بكحل أو نحوه،
والمستوشمة: المعمول بها ذلك.

والمتمنصة⁽⁶⁸⁾، والمغيرات خلق الله، لعن الراشي والمرتشي والرائش⁽⁶⁹⁾، لعن ولعن عشرات من الناس، تنظر إليهم فنراهم حولنا، بل لو نظرنا إلى أنفسنا، لو نظر كل منا إلى نفسه، لوجدها بوجه من الوجوه، تستحق شيئاً من هذه اللعنات والعياذ بالله.

فما الحال في أمة ملعونة، مجتمع تنزل عليه لعنات الله، ويحرم من بركات السماء؟

إن على الناس أن يعلموا أن الله سبحانه وتعالى يمهل ولا يهمل، وأن الله لا يغفل عما يفعل الظالمون، وعما يقترفه العاصون، ولكنه يمهلهم، ثم يذكرهم، يذكرهم ببعض العقوبات كما قال عز وجل: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا

(68) النامصة: التي تنقش الحاجب حتى ترقه، والمتمنصة: المعمول بها ذلك، وقد ورد ذكر هؤلاء في حديث لابن عباس رضي الله عنها قال: «لعنت الواصلة والمستوصلة، والنامصة والمتمنصة، والواشمة والمستوشمة من غير داء». رواه أبو داود وغيره، وهذا الحديث وما في معناه، يدل على تحريم الشعر الصناعي، الذي يسمى في عصرنا: «الباروكة»، ويستثنى منه ما إذا أصاب المرأة ما يشوهها ويؤذيها، كالصلع أو ما يقرب منه، نظراً للضرورة، وانتفاء التدليس والله أعلم، كما يقاس على قوله: «من غير داء» عمليات التجميل لغير حاجة موجبة، بل لزيادة الحسن، نقلاً عن تعليق الشيخ على الحديث (1229)، في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (591 - 592) بتصريف.

(69) الراشي: هو الذي يبذل المال ليتوصل به إلى الباطل: والمرتشي: أخذ الرشوة، والرائش: هو الذي يسعى بينهما، وورد ذكرهم في حديث لأبي هريرة رضي الله عنه قال: «لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم: الراشي، والمرتشي في الحكم». رواه الترمذي وحسنه، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في «الصغير» ورجاله ثقات، وزادوا: «والرائش»، وهذا الحديث وما شابهه يدل على القاعدة الإسلامية: إن الإسلام إذا حرم شيئاً، حرم كل ما يفضي إليه ويساعد عليه. وانظر: «المنتقى» (618/2)، باب ترهيب الراشي، والمرتشي، والساعي بينهما.

كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41].

{ظَهَرَ أَفْسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} في كل مكان، في القرى والمدن، في الشرق والغرب، في الداخل وعلى السواحل، الفساد هو العقوبات الإلهية: الغلاء، البلاء، المرض، القحط، الخوف، الرعب، بماذا؟ {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ}: أي أن هذا إنما ينزل بسبب معاصي الناس وذنوبهم، {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا}: إنه لا يجازيهم بكل ما عملوا، وإلا لزلزل بهم الأرض، أو أنزل عليهم كسفًا من السماء، أو أغرقهم بطوفان، إن الله لا يؤاخذ بكل الأعمال، ولا بكل الذنوب، بل ببعضها، كما قال تعالى: {وَلَوْ يُوَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل: 61]، ويقول الله تبارك وتعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا} [الشورى: 30]، حتى الشوكة تشاكونها، هي بسبب ما كسبت أيديكم: {وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ}: لا يحاسب على كل شيء، ولا يؤاخذ بكل شيء.

لا بد أن يسأل الإنسان نفسه: لماذا أصابني ما أصابني؟ كما سأل الصحابة أنفسهم بعد غزوة أحد، حينما خالفوا ما أمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم، وتركوا ظهرهم للمشركين، فكان أن قتل سبعون من خيارهم، فلما سألوا أنفسهم رد عليهم القرآن: {أَوَلَمْآ أَصَابَكُمْ مُّصِيبَةٌ فَمَّا أَصَابْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ هَذَا قُلٌّ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [آل عمران: 165].

هكذا ينبغي أن نحاسب أنفسنا أيها الإخوة المسلمون. ينبغي أن ننظر فيما حولنا، وفيما جد من أمورنا، فنقول: ماذا حدث؟ ما الذي جرى؟ ما هذه المقادير السريعة القلب؟ أي شيء صنعناه؟ هل نحن ملائكة مقربون وعاقبنا

القدر بما لا نستحق؟ أم فرطنا وقصرنا وخالفنا؟ وهل تكفيننا هذه النذر لنرجع ونصطح على الله، ونضع أيدينا في يد الله؟ أم سنظل في الطريق الشيطاني سادرين؟

إنها فرصة للتوبة، وقد قال الصحابة رضي الله عنهم: ما نزل بلاء إلا بذنب، ولا رفع إلا بتوبة.

إن العالم كله الآن يشكو الثمر المر، من جراء الانحراف عن القيم الدينية والخلقية، التي جاء بها الأنبياء وعلى رأسهم خاتمهم: محمد صلى الله عليه وسلم.

نشرت الصحف في الآونة الأخيرة: ما يشكوه الناس في أوروبا وأمريكا، من أمراض جنسية تناسلية تهدد البشر، نتيجة الفوضى الجنسية، أو ما سموه: «الثورة الجنسية» التي ظهرت في الستينات، واستباح بها الناس كل شيء، واعتبروا العلاقة بين الرجل والمرأة كلاً مباحاً، فكانت النتيجة ما يشكونه اليوم: مرض يسمى «الإيدز» يهدد الجميع، الملايين من البشر رجالاً ونساءً في أمريكا مصابون أو مهددون بهذا المرض، الذي يفقد الناس المناعة، وأمراض أخرى تجعلهم معرضين للسرطان، سرطان المرأة في عنق الرحم، والرجل في البروستاتا، وأمراض أخرى كثيرة تهدد هؤلاء، وتنتقل بالعدوى، وهذا المرض الذي يسمى «الإيدز» يمكن أن ينتقل عن طريق نقل الدم، ولم يجدوا له - حتى الآن - أي دواء.

أمراض معضلة أصابت الناس نتيجة انحرافهم، وهذا يؤكد لنا قول الله تعالى: {... وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا} [الإسراء: 32]، وقول

النبي صلى الله عليه وسلم: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا»⁽⁷⁰⁾، الطاعون يشير إلى الأوبئة الجماعية، والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم، أمراض لم يعرفها من قبلهم، إنما هي أمراض نتيجة الإباحة.

ومن العجب أن هذه الإباحة التي يشكو منها الغرب اليوم، تنتقل إلى بلادنا، لا ننقل عن القوم العلم، ولا التكنولوجيا، ولا حسن التنظيم، إنما ننقل عنهم أسوأ ما عندهم، ندع خير ما عند القوم، وننقل شر ما عندهم، أرأيتم أين نحن أيها المسلمون؟

إلى متى نظل على هذه الحال؟

قد جاءتنا النذر فهل نفيق؟ هل نرجع؟ هل نتوب؟ هل نقول: {... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخُسْرَيْنِ} [الأعراف: 23].

نرجو أن نكون كذلك، اللهم اجعلنا من التوابين، واجعلنا من المتطهرين واستغفروا ربكم، إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

أحب أن أنبه أخواتنا المصليات تنبيهًا لا بد منه:

إنه ليسرنا أن تحرص المرأة المسلمة على الصلاة، ولا بأس أن تحضر

(70) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبزار والبيهقي من حديث ابن عمر، ورواه الحاكم أيضًا، وصحح إسناده، وواقفه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (1433، 399).

المساجد لتشارك في العبادة، وتستمتع إلى الموعظة، فالمرأة نصف المجتمع، ومن حقها أن تتفقه في دينها، وأن تتذكر ما يجب عليها، والذكرى تنفع المؤمنين، ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تمنعوا إمام الله مساجد الله»⁽⁷¹⁾.

وإني من الذين يدعون أن يكون في كل جامع من الجوامع، مكان للمرأة المسلمة تصلي فيه، وتنتفع فيه بالعلم كما ينتفع الرجال، وبخاصة أن فقهاءنا قالوا: إن المرأة التي لا تذهب إلى المسجد يجب على زوجها أن يعلمها، ويجب على أبيها أن يفقهها، حتى يمكنها أن تستغني بالبيت عن المسجد، ولكن إذا كان الزوج غير قادر على التعليم، وكان الأب غير قادر على التفقيه، فمن أين تتعلم المرأة وتتفقه في دينها؟ فقد مضى زمن كان الرجل في حاجة إلى من يعلمه ويفقهه، وفاقد الشيء لا يعطيه، وقد ضل من كانت العميان تهديه!

وهناك تنبيه خاص بالأخوات المصليات، ففي الحديث الصحيح: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت - والإمام يخطب - فقد لغوت»⁽⁷²⁾، أذهب

(71) حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم من حديث ابن عمر، وأبو داود من حديث أبي هريرة وسنده حسن، وهو في «الموطأ»، وتتمة الحديث عند أبي داود: «وليخرجن تفلات» أي غير متطيبات «شرح السنة» للبعثي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (438/3)، الحديث (860).

(72) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن خزيمة وقوله: «لغوت» قيل معناه خبت من الأجر، وقيل تكلمت، وقيل أخطأت، وقيل بطلت فضيلة جمعتك، وقيل: صارت جمعتك ظهراً، وقيل غير ذلك. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (247/1)، الحديث، (377).

أجره وأبطل ثوابه، حتى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يجوز، لأن كل إنسان إذا أعطى نفسه الحق في أن يأمر وينهى، لم يكن من وراء ذلك إلا الضجيج والتشويش، فأولى بكل إنسان أن يسكت.

فلا يجوز لأخواتنا المؤمنات، اللاتي يحضرن إلى هذا المسجد، أن يشوشن على أخواتهن.

إن للمساجد آدابًا، وإن للجمعة آدابًا، وإن لهذه الأماكن حرمانًا، فينبغي أن نصونها، ونسعى إليها.

شيء آخر أريد أن أنبه عليه: وهو أن المسلم كلما ذهب مبكرًا إلى صلاة الجمعة، كان ذلك أفضل له عند الله، وفي الحديث: «إذا كان يوم الجمعة، وقفت الملائكة على باب المسجد، يكتبون الأول فالأول، ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم يستمعون الذكر»⁽⁷³⁾، أي طووا سجل الدوام، ومن جاء بعد ذلك جاء متأخرًا.

(73) رواه البخاري، ومسلم، وابن ماجه، وابن خزيمة في «صحيحه» بنحوه. «المنتقى» كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (245/1)، الحديث (374)، والثواب المذكور في الحديث هو ثواب التهجير أو التبكير إلى صلاة الجمعة، لأنه من المسارعة في الخيرات، ومن المؤسف أن كثيرًا من المسلمين لا يحصلون يوم الجمعة على شيء من الثواب المذكور، لا بدنة ولا حتى بيضة، فهم يأتون المسجد والإمام يخطب، وربما في الخطبة الثانية، وربما تحمل كثير من الخطباء تبعه هذا التأخير، لأنهم لا يقولون للناس شيئاً ينفعهم، غير أن المكث في المسجد عبادة في حد ذاته، فالمرء في صلاة ما دام ينتظر الصلاة، وانظر: «الترغيب في التبكير إلى الجمعة» وما جاء فيمن يتأخر عن التبكير من غير عذر، من كتاب «المنتقى» (245/1 - 246).

ومن جاء متأخراً والإمام يخطب، فعليه أن يصلي ركعتين خفيفتين، صحيح أنه سيحرم من الخطبة، أو من بعضها، ولكن هو الذي أساء إلى نفسه بالتأخير، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لمن جاء متأخراً وهو يخطب: «أصليت؟» قال: لا، قال: «فصل ركعتين»⁽⁷⁴⁾، قال ذلك لسائلك الغطفاني⁽⁷⁵⁾، وأمره أن يتجاوز فيهما، أي لا يطيلهما.

هذه بعض آداب الجمعة، نسأل الله عز وجل أن يفقهنا في ديننا، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً.

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى، ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين فضلاً منك ونعمة، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى، واجعلنا من حزبك الغالبين، وجندك الصادقين، وادخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

اللهم أعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، وانصر إخواننا المجاهدين في كل مكان، وخذ بأيدي إخواننا المضطهدين والممتحنين في

(74) أخرجه البخاري، ومسلم، والشافعي، وأحمد، والترمذي «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (263/4).

(75) ورد اسمه في رواية عن جابر قال: جاء سليك الغطفاني يوم الجمعة وهو - أي النبي صلى الله عليه وسلم - يخطب، فجلس، فقال له: «يا سليك قم فاركع ركعتين وتجاوز فيهما» ثم قال: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب، فليركع وليتجاوز فيهما» أخرجه مسلم «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (264/4).

سائر البلاد يا رب العالمين: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ
أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ
وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه
ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

زلزال مصر (76)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

مررت وأنا عائد من فرنسا لافتتاح الكلية الأوروبية للدراسات الإسلامية، مررت بالقاهرة، بعد أن حدث ذلك الزلزال الرهيب الرعيب، الذي زلزل العمران والمباني، وزلزل معها القلوب والأنفس.

زلزل الناس زلزالاً شديداً أمام هذا الحدث الغريب الذي لم يعهدوا مثله، ووقف الناس يتساءلون: ما بال هذا الزلزال؟ هناك علاقة بين ما يحدثه الناس وبين الأحداث التي تحدث بهم؟ هناك علاقة سببية بين المعاصي والمفاسد التي تقع من البشر، وبين ما ينزل بهم من كوارث يسميها الناس: كوارث طبيعية؟

وقف الناس يتساءلون، فمنهم من قال: هذه كوارث طبيعية، تحدث في كل بلاد الدنيا، تنزل بالمؤمنين والكفار، والمتقين والفجار، ولا علاقة لها بطاعة ولا معصية، ولا باستقامة ولا انحراف، ما بالكم تربطون كل شيء بالدين، وتريدون أن تدخلوه في هذه المسألة؟

وهناك من يقول: لا، إن هذه الكوارث التي تنزل، لا تنزل اعتباراً، ولا تقع جزافاً، إن هذا الكون في قبضة الله سبحانه وتعالى، يدبر أمره ويعلم كل

(76) هو الزلزال الذي وقع في مصر في 12 من أكتوبر عام 1992م، وقد صاغ الأستاذ القرضاوي في تلك الحادثة شعراً نشر في ديوانه: المسلمون قادمون (ص 103 - 106).

صغيرة وكبيرة فيه: {... وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَتِ
الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: 59].

هذا الكون لا يسير عبثاً، إن الله هو الذي يسيره، إن الله هو الذي يقدر كل
ما فيه {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} [القمر: 49]. {... وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا}
[الفرقان: 2].

كل ما يجري في العالم العلوي، أو في العالم السفلي، كل ما تمور به
الأرض، وكل ما يتحرك في السماء، كل نبتة تنبت، كل نجم يطلع، وكل ذرة
في هذا الوجود، كلها بإذن الله تعالى وتقديره.

هذا الكون من الذرة إلى المجرة في يد الله سبحانه وتعالى، فإذا أخرج
بعض الأحداث من حيز العدم إلى حيز الوجود، فلا بد من أن وراء ذلك
حكمة.

الله هو الذي يزلزل الأرض، الله هو الذي يجري الأنهار، الله هو الذي
يرسل الرياح، ولكن لماذا يظهر الزلزال في وقت دون وقت، وفي مكان دون
مكان، وبمقدار معين دون آخر، لماذا ظهر هنا في هذا المكان وظهر في هذا
الزمان، وظهر بقوة «خمسة وكذا من عشرة»، واستمر كذا وكذا ثانية الله
الذي يقدر ذلك، ولا يفعل الله شيئاً عبثاً، لا يفعل شيئاً إلا لحكمة ارتضاها، هذا
ما يعتقد المؤمنون.

الغريبيون وتلاميذهم يعتقدون أن الله بمعزل عما يجري في الكون، حتى
الذين يعتقدون أن الله هو خالق الكون قالوا: إن الله خلق الكون وتركه، كهذه
الساعة في يدنا، صنعتها مصانع سويسرا ولا تدري ماذا حدث بعد ذلك، هي

تقف وحدها ... تتحرك، لا يعلم صانعها عنها شيئاً، هكذا يقولون عن العلاقة بين الله والعالم.

ولكن هذا مناف كل المنافاة للعقيدة الإسلامية، نحن نعتقد أن الكون في قبضة خالقه ومدبره، الصغيرة والكبيرة فيه تجري بأمره، وهو بهذا إذا حدث فيه شيء، فلا بد أن الله تعالى أحدثه لسبب، لحكمة.

هذه الزلازل التي نراها في أماكن شتى، تكون أحياناً ضعيفة، وتكون أحياناً قوية، تكون أحياناً خفيفة، وأحياناً عنيفة، أحياناً تأتي وتدمر، وأحياناً تكون هزة لا تؤثر.

هذه الفيضانات التي تغرق الناس، وتغرق المساكن، وتهدم البيوت، هذه الرياح الهوج، التي لم يسلم منها بلد مثل أمريكا وغيرها، هذه البراكين تنفجر وتثور، دون أن يستطيع أحد إيقافها، هذه الكوارث التي يقول الناس عنها: طبيعية، وبعضهم يقول: إن هذا من غضب الطبيعة ... الطبيعة غضبت، وما هذه الطبيعة الصماء الخرساء؟ إن الطبيعة لا تغضب، الطبيعة لا تسير نفسها.

الذي يسير الطبيعة ويسير الكون كله هو الله سبحانه وتعالى، وهو سبحانه حينما يجري هذه الأحداث يجريها بأقدار.

وهنا يقف المؤمنون أمام هذه الأحداث وقفة تأمل وتدبر وعظة واعتبار، فالمؤمن يعتبر بكل شيء، ويتعظ من كل حدث، ويأخذ منه درسه، ولا يمر عليه بأذن صماء، ولا بعين عمياء، ولا بقلب أغلف، إنما يفتح له أذنه، ويفتح له عينه، ويفتح لهذا الحدث قلبه، ليعتبر ويتعظ.

إن الله عزم أراد أن يلقنا دروساً بمثل هذا الحديث، أراد أن يعلمنا أن هذا ابتلاء، فحياة الإنسان قائمة على الابتلاء: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ...} [الإنسان: 2] {... وَنَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} [الأنبياء: 35].

يبتلى الإنسان بالشر ويبتلى بالخير، وقد يأتي الشر بالخير، ورب ضارة نافعة، وكم من منحة في طي محنة، قد تأتي بعض الكوارث بأشياء طيبة ينتفع منها الناس إذا أحسنوا الانتفاع وتلقوا الدرس جيداً.

هو ابتلاء، والله يبتلي الناس جميعاً، كافرهم ومؤمنهم، وقد يبتلى المؤمنين بأكثر مما يبتلى الكافرين {أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: 2]، هذه واحدة.

حكمة ثانية هنا: أن في هذا الحدث تنبيهاً للناس، تنبيهاً للغافلين، وإيقاظاً للنائمين، أراد الله أن ينبههم إلى أشياء:

أن ينبههم على طلاقة القدرة الإلهية، ونفوذ المشيئة الإلهية، أن الله عزم إذا أراد أمراً فإنه يقول له: كن فيكون، تنزلزل الأرض، وتهيج الرياح، وتفيض المياه، وتغرق الأنهار والبحار، ويتحرك كل شيء أراد الله تعالى أن يتحرك، يسكن كل شيء أراد الله تعالى أن يسكن، لا بد للناس أن يعرفوا مدى طلاقة القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء.

ومن ناحية أخرى تنبيه للإنسان على أن يعرف حجمه في هذا الكون، أيها الإنسان: ما أنت؟ أيها المغرور بنفسك ... أيها الثاني لعطفك ... أيها المصغر لخدك ... أيها المتمطي برأسك: ما أنت في هذا الكون؟ أنت لست شيئاً

مذكورًا، لا تعرف ماذا يحدث لك بعد لحظة.

الإنسان الذي استطاع أن يفعل ما يفعل، الإنسان في الغرب، في أمريكا، في غيرها، صنع الكمبيوتر، وغزا الفضاء، وصل إلى القمر ووقف على سطحه، ويحاول أن يصعد إلى كواكب أخرى، ولكن أمام هذه الأحداث لا يستطيع أن يفعل شيئًا، يمكنه أن يقول: هناك احتمال لزلزال يقع، ولكن متى يحدث بالضبط؟ وفي أي مكان بالضبط؟ وما مقدار قوته بالضبط؟ لا يستطيع أن يعلم ذلك {... وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا} [الإسراء: 85].

ينبغي أن يعرف الإنسان حجمه، ويعرف مدى قوته، الإنسان المغرور، المختال الفخور، ينبغي أن يعلم: هذا هو شأنه في هذا الوجود، إنه لا يملك هذا الكون.

كان الغربيون يقولون: استطاع الإنسان بالعلم أن يقهر الطبيعة، ويقهر الكون المادي من حوله، وكذبوا، ما استطاع الإنسان أن يقهر الطبيعة.

استطاع أن يذلل كثيرًا حسب قوانين التسخير الإلهي لهذا الكون، لأنه سخر للإنسان ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه، ولكن تظل هذه الطبيعة وهذا الكون أقوى منه، يقف أمامها عاجزًا مشلولًا لا يستطيع أن يصنع شيئًا، هذا هو الإنسان.

كان الإمام علي رضي الله عنه يقول: «مسكين ابن آدم، تؤلمه البقعة، وتقتله الشرقة، وتنتنه العرقعة»، البقعة حشرة صغيرة تؤلمه، والأن عرفنا أن ميكروبًا ... فيروسًا صغيرًا يستطيع أن يمرض الإنسان وأن يقتله، وهو شيء لا يرى إلا بتكبيره ملايين المرات، وتقتله الشرقة إذا شرق ... يقتل بالذبحة ... يقتل

بالسكته ... يموت في لحظة. وتنتنه العرقة: إذا عرق أنتن جسده، وساءت رائحته، هذا هو الإنسان {... وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا} [النساء: 28]، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ} [الشورى: 31].

أراد الله تعالى أن يعرف الإنسان حجم نفسه، وقدرة نفسه، وعلم نفسه، وأن يعلم أن القدرة كلها من الله، وأن العلم كله منه، وأن الحكمة كلها لله.

أراد الله تعالى أن ينبهنا أيضاً على قيمة هذه الدنيا التي يتشبث الناس بها، ويحرصون عليها، ويلهثون وراءها، ويتهافتون عليها تهافت الذباب على الشراب، أو يتقاتلون عليها تقاتل الكلاب على الجيف، هذه الدنيا لا تساوي شيئاً، الإنسان يكون في بيته ولا يدري أنه بعد قليل سينهدم به بيته، وتزلزل الأرض من حوله، فإذا البنيان الشاهق ينهار، وإذا هذا الإنسان لا شيء، وترى الناس بعد لحظات قد ماتوا، والعمران قد خرب، هذه هي الدنيا:

جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الآلام والكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار
الناس يستبعدون الموت، ويظنون أن الموت شيء بعيد، والموت أقرب إلى أحدهم من شراك نعله.

كل امرئ مصبح في أهله والمرت أدنى من شراك نعله
{... وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}

[النحل: 77]

أراد الله تعالى أن ينبه الناس على هذا كله، وأن ينبههم على شيء عظيم، أراد أن يذكرهم بأمر عظيم: بزلزلة الساعة، الله تعالى يقول: {يَأْتِيهَا النَّاسُ

أَتَقَوُّوا رَبَّكُمْ إِنْ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ 1 يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ {الحج: 1، 2}.

زلزلة في أقل من دقيقة، بخمس درجات وبعض الكسور بمقياس «رختر»!! ما بالكم إذا كانت هذه الزلزلة بمقدار عشر درجات، أو عشرين، أو ثلاثين؟! ما بالكم إذا استمرت دقيقتين، أو ثلاثاً، أو أربعاً، أو عشرًا، أو أكثر من ذلك؟! ماذا تكون هذه الزلزلة؟!

تلك زلزلة يوم القيامة: {إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ 1 لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ 2 خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ 3 إِذَا رَجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا 4 وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا 5 فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا} [الواقعة: 1 - 6]: الجبال الراسيات الشامخات تبس بسًا، وتفتت تفتتًا، حتى تصبح كالهباء: الذرات التي نراها في شعاع الشمس {وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ} [القارعة: 5]، هذه الجبال تصير كالصوف المندوف {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا 105 فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا 106 لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا} [طه: 105 - 107].

هذه زلزلة يوم القيامة {وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً 14 فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ} [الحاقة: 14، 15]، هذه زلزلة الساعة، لذلك يقول الله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زُلْزَالَهَا}: زلزلها المترقب المنتظر، الذي هو الزلزال الحقيقي {وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا}: نفضت كل ما فيها نفصًا، {وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا}: ما الذي حدث لها؟ {يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا 4 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا} [الزلزلة: 1 - 5]، الله هو الذي أمرها أن تفعل ذلك، فلم تملك إلا أن تطيع الأمر.

هذه زلزلة القيامة: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ 1 يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ...} [الحج: 1، 2]، أهنالك أكثر حرصاً من الأم على طفلها، خصوصاً إذا كان فمه في ثديها ... النقم الثديي ليرضع؟ إن الله لم يقل: تذهل كل مرضع، بل قال: يامة: {تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ}، المرضع: المرأة في وقت الرضاع، ولكن المرضعة: التي ترضع بالفعل، أي أن طفلها كان ملتقماً ثديها، هنالك نسيت طفلها، فكل إنسان لا يذكر إلا نفسه، عند ذلك الهول العظيم كل يقول: نفسي نفسي، حتى الولد ولفظة الكبد تنساه الأم ... الأم الرؤوف ... الأم الحانية.

رأينا في هذا الزلزال البسيط البسيط، واليسير اليسير بالنسبة لزلزال الآخرة، رأينا المرأة تنزل من بيتها وتنسى أن لها أطفالاً، وحين تنزل تقول: أين أولادي؟ ومن الناس من نزل بالملابس الداخلية، حتى أن بعض المحلات التي تباع الملابس كانت تلقي بها على النساء ليتسترن، ومنهم من خرج من الحمام والصابون على جسمه، هكذا الحياة عزيزة عند الناس.

هذا يذكرنا بيوم القيامة: {وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتٍ حَمْلًا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ} [الحج: 2].

حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يحشر الناس حفاة عراة غرلاً» قالت عائشة: الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «الأمر أشد من أن يهمهم ذلك»⁽⁷⁷⁾، من عنده - في ذلك اليوم - عقل يفكر في

(77) رواه عن عائشة البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه.

وروى الطبراني في «الأوسط» بإسناد صحيح عن أم سلمة قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يحشر الناس يوم القيامة عراة حفاة» فقالت أم سلمة: يا

الغريزة أو في الشهوة أو في المرأة؟ {لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمٌ شَأْنٌ يُعْنِيهِ} [عبس: 37].

أراد الله تعالى أن يذكرنا بمثل هذه الأحداث، فقد نسى الناس القيامة، مشكلة الناس أن القيامة بمعزل عن عقولهم، كأنهم مخلدون، وكأن الموت على غيرهم قد كتب، العقدة عند الناس أنهم لا يفكرون في الآخرة، ولا يرجون لقاء الله، وهذا هو الخطر.

ما أحوج الناس أن يتذكروا الآخرة، لو تذكروا الآخرة ووضعوها نصب أعينهم، لحلت مشكلات كثيرة، بل لحلت المشاكل كلها.

وشيء مهم وراء هذا كله وهو الثمرة: هو تنبيه العصاة ليتوبوا، والصالين ليهتدوا، والمنحرفين ليستقيموا. تنبيه الناس ليرجعوا إلى الله ليقرعوا بابه ويقولوا: {رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخُسِرِينَ} [الأعراف: 23].

هذه المواقف لا بد من أن ترد الناس إلى فطرتهم ليقولوا: يا رب، فمن يدري لعلمهم في هذه اللحظة يقضون نحبهم، وينتهي أجلهم.

الدرس المهم: أن يتعلم الناس التوبة من العصيان، أن يتطهروا ويغتسلوا من ذنوبهم ... من أدرانهم ... من أطماعهم ... من شهواتهم، أن يولدوا من جديد.

رسول الله واسوأته ينظر بعضنا إلى بعض! فقال: «شغل الناس» قلت: ما أشغلهم؟ قال: «نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر، ومثاقيل الخردل»، وثم رواية أخرى ذكرها الطبراني عن سودة بنت زمعة رضي الله عنها، انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (925/2 ، 926)

الناس أمام الشدائد والبلاء أصناف وأنواع:

هناك صنف عرف الله، ووضع يده في يد الله، واستقام على منهج الله، أحل الحلال وحرّم الحرام، وعرف أن الخير كل الخير في اتباع منهج الله، والسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، هؤلاء هم المؤمنون الصادقون، عرفوا الله في الرخاء ليعرفهم في الشدة، كما جاء في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس: «**احفظ الله يحفظ، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة...**»⁽⁷⁸⁾، هذا هو الصنف الأول، يشعر أنه دائماً بحاجة إلى الله في اليسر والعسر، في الفقر والغنى، في النعماء والبأساء، في الصحة والسقم، في كل حال، يعلم أنه فقير إلى الله عز وجل، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فهو دائماً مع الله.

هناك صنف ثانٍ: إذا كان في عافية ورخاء استرخى، ونسى ربه، ولم يذكر إلا نفسه، ولكن إذا جاءت الشدة، إذا أحاط به البلاء، سرعان ما يرجع إلى ربه، ويعلم أن هذه المصيبة إنما جاءت لترده إلى الله رداً جميلاً... لتأخذ بيده إلى الله... ليقف بين يدي ربه متضرعاً مبتهلاً... ليتوب إلى الله توبة نصوحاً.

والله تعالى ليس على بابه حاجب ولا بواب، من رجع إليه تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من قريب: {... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]، هذا هو الصنف الثاني، ينسى ساعة الرخاء، ولكن ساعة الشدة

(78) خرجه الإمام أحمد من رواية حنش الصنعاني عن ابن عباس، ورواه الترمذي بلفظ آخر وقال: حديث حسن صحيح، وهو الحديث التاسع عشر من الأحاديث «الأربعين النووية»، وانظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي.

يعرف الله، ويرجع إليه رجوعاً صادقاً، ويستقيم على أمره ويثبت عليه.

وصنف ثالث: وهو الذي ينسى الله في الرخاء، ويذكره ساعة الشدة، حتى إذا ما انفرجت الأزمة، وحتى إذا ما ذهبت الغمة، عاد إلى طريق الضلال ثانياً، ونسي ما كان يدعو إليه من قبل، وهذا شأن المشركين الذين حدث الله عنهم فقال: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشُّكْرِينَ} [يونس: 22].

ولأنهم دعوا الله مخلصين له الدين استجاب الله لهم، لأنهم في هذه اللحظات رجعوا إلى الفطرة السوية، ونسوا هبل واللات والعزى والأوثان، والأصنام: {فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ...} [يونس: 23] هكذا شأن هؤلاء يعرفون الله ساعة الشدة وبعد ذلك يرجع كل شيء إلى ما كان عليه: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوًا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ} [الزمر: 8].

وهناك صنف أسوأ من هذا الصنف: صنف قسا قلبه حتى أصبح كالحجارة أو أشد قسوة، تنزل به البلايا، وتحيط به المصائب والكوارث، ولكنه لا يقول: يا رب يا رب، كأولئك الملاحدة والجاحدين الذين أنكروا على من ربط هذا الحادث بالدين، وأنه وقع بسبب المعاصي، فقالوا: ما هذا الفكر الخرافي؟ ما هذا الضلال؟

هؤلاء الناس لم يستطيعوا أن يفهموا الدرس، ولذلك يقول الله في أمثالهم:

{وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} [المؤمنون: 76]،
 {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} 42
 فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 42، 43].

من فضل الله سبحانه وتعالى أنه حينما ينزل بالناس البأساء والضراء، لا يريد أن ينتقم منهم، ولكن ليعلمهم ... لينبهمهم ... ليذكرهم، كما قال الله تعالى:
 {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41]، الفساد هنا: يعني اختلال أمر الحياة ... المصائب
 ... الكوارث ... الغلاء ... البلاء ... الأمراض ... الأوجاع ... التلوث، وهذا
 الفساد بماذا يقع؟ {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} بمعاصيهم ... بذنوبهم، ولماذا يقع:
 {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا}، أي أن الله لا يجزيهم بكل ما عملوا، يقول الله
 تعالى: {وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِّن دَابَّةٍ} [النحل: 61] إنما
 يؤاخذهم ببعض ما عملوا، ولماذا يؤاخذهم ببعض ما عملوا؟ {لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}
 عسى أن يفهموا الدرس، لعلمهم يرجعون، لعلمهم يتوبون.

كان بعض السلف إذا أصابه أدنى شيء، يقول، هذا بشؤم معصيتي، حتى
 إذا كشرت امرأته في وجهه، أو تخانقت معه في أمر من أمور البيت، قال: ما
 الذي جعل المرأة تفعل معي كذا وكذا هذا اليوم، لا بد أني قد ارتكبت معصية،
 إذا حرنت عليه دابته يقول: لا بد أني ارتكبت مخالفة، قال بعضهم: إنني
 لأعرف شؤم معصيتي في سوء خلق دابتي.

هكذا أصحاب القلوب ... أصحاب البصائر ... أصحاب الحس المرهف، يردون الأمر إلى أنفسهم، كما قال الله تعالى عن الربانيين حينما هزموا في المعركة: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]. قبل أن يسألوا النصر والتثبيت، سألوا الله أن يغفر لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم، فلا بد أنهم فرطوا أو قصرُوا، هذا هو شأن الإنسان المؤمن، يرجع باللائمة على نفسه.

{لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41]، ولكن صنفاً من الناس تنزل بهم الشدائد ولا يرجعون ... ولا يتوبون، ولا يتضرعون ... لا يقولون: يا رب، يقولون كل شيء إلا الله سبحانه وتعالى، يقول الله عز وجل: {فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام: 43]، أصحاب القلوب القاسية، الحجرية هذه، لا تنفع فيها الشدائد ولا غير الشدائد والعياذ بالله.

يا أيها الإخوة: هذه المصائب والأحداث التي يجريها علينا العزيز الجبار، الواحد القهار، جديرة بأن توقظ الناس من سباتهم ... أن تنبههم إلى ما فيها من دروس وعبر، حتى يفيقوا ويرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى.

حينما مررت بمصر سألتني بعض الأقارب فقالوا: كنا في ذلك الوقت لا نعرف ماذا نقول: أليس هناك أذكار أو أدعية نقولها عند الشدة؟

قلت: هناك الكثير الكثير جداً، هناك أدعية وأذكار تسمى «أذكار الكرب» و«أدعية الكرب»، يلجأ الإنسان إليها حينما ينزل به كرب خاص، أو ينزل

بالأمة كرب عام، منها ما رواه الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات السبع، ورب الأرض، ورب العرش الكريم»⁽⁷⁹⁾، وفي «جامع الترمذي» عن أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان إذا حزبه أمره، قال: «يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث»⁽⁸⁰⁾، وعن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان إذا أهمه الأمر، رفع طرفه إلى السماء فقال: «سبحان الله العظيم»، وإذا اجتهد في الدعاء قال: «يا حي يا قيوم»⁽⁸¹⁾.

روى سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «دعوة ذي النون إذ دعاه وهو في بطن الحوت {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»⁽⁸²⁾، حينما التقمه الحوت نادى في الظلمات: ظلمة بطن الحوت، وظلمة الليل، وظلمة البحر، في وسط هذه الظلمات لم يطلب النجاة لنفسه، ولكنه قال: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فنجاه الله ولفظه الحوت، سأل

(79) أخرج البخاري في الدعوات: باب الدعاء عند الكرب، ومسلم في الذكر والدعاء: باب دعاء الكرب.

(80) أخرجه الترمذي في الدعوات، وفي سننه يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف «زاد المعاد» بتحقيق كل من: شعيب الأراؤوط وعبد القادر الأرنؤوط (197/4).

(81) أخرجه الترمذي في الدعوات: باب ما يقول عند الكرب، وفي سننه إبراهيم بن الفضل المخزومي، وهو متروك. «زاد المعاد» (197/4).

(82) رواه الترمذي، واللفظ له، والنسائي، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وذكره ابن كثير في «تفسيره» وعزاه للمسند، وللنسائي في «اليوم واللييلة»، وصح شاکر إسناده. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (476/2)، الحديث (922).

رجل النبي صلى الله عليه وسلم فقال⁽⁸³⁾: يا رسول الله، هل كانت ليونس خاصة، أم للمؤمنين عامة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تسمع إلى قول الله عز وجل: {... وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُجِي الْمُؤْمِنِينَ} [الأنبياء: 88]».

المؤمنون إذا لجأوا إلى الله موحدين: {لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ} مسبحين منزهين {سُبْحَانَكَ} معترفين بالتقصير {إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} فإن الله يفرج عنهم.

أدعية الكرب كثيرة: لا حول ولا قوة إلا بالله، الاستغفار⁽⁸⁴⁾. ويكفي الإنسان إذا لم يتذكر شيئاً أن يقول: يا رب ... يا رب يا حي يا قيوم ... يا الله يا الله ... سبحان الله ... الحمد لله ... لا إله إلا الله ... الله أكبر⁽⁸⁵⁾.

هذا ما ينبغي أن يشغل به المؤمن نفسه في ساعة الشدة، أما أن يفعل ما يفعله بعض الناس، صراخ وولولة، فهذا ليس من شأن المؤمنين.

لا بد من أن يتربى الإنسان التربية التي يواجه بها الشدائد برباطة جأش،

(83) هذه الزيادة في رواية الحاكم «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (922، 1041).

(84) مما جاء في فضله حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب» رواه أبو داود، والنسائي، وابن ماجه، والبيهقي، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، كلهم من رواية الحكم بن مصعب، قال الذهبي، والحكم فيه جهالة، وقال المنذري في «مختصر السنن»: لا يحتج به، ودافع عنه الشيخ شاكر في تخريجه للمسند، وصحح إسناده «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (469/1)، الحديث (905).

(85) انظر في فضل هذه الكلمات وما ورد فيها من ترغيب «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» كتاب الذكر والدعاء.

وباللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، وليس هناك إلا الله في مثل هذه المواقف.

هذه دروس تعلمناها من هذه الكارثة، وتعلمنا أن هناك أناسًا - للأسف - يتاجرون في أرواح الناس، فمعظم الذين ماتوا إنما ماتوا بأولئك الطامعين من المهندسين والمقاولين، الذين يبنون بنايات لا يراعون فيها ما ينبغي أن تكون عليه، ليكسبوا من وراء ذلك وإن مات الناس وهلكوا، هؤلاء الذين يتقاتلون على جيفة الدنيا، ولا يباليون بما يصيب الخلق، ينبغي أن يرجعوا أنفسهم.

يا أيها الإخوة: هذه الأمة لا يصلحها إلا الدين، الدين هو الذي يصنع أخلاقها، ويحيي ضمائرها، ويربطها بالله تعالى وبالآخرة، هذا الدين هو الذي يستطيع وحده أن يحيي الأمة ويجعل منها خير أمة أخرجت للناس.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يلطف بنا في قضائه وقدره، وأن يذهب عنا شر الزلازل والنوازل، وأن يقينا ما ظهر منها وما بطن، وألا يهلكنا بما فعل السفهاء منا، اللهم آمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه سميع قريب، فاستغفروه يغفر لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، ولعلها تكون هذه الساعة. اللهم إنا نسألك العفو والعافية، في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيمننا، وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا.

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، وأنفسنا على الحب فيك،
وعزائنا على عمل الخير وخير العمل.

الله لا تجعل للشيطان على أنفسنا سبيلاً.

الله أعنا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا، وتب علينا توبة نصوحاً.

الله اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن
عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك
فينا ولا يرحمنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، وآمنا في أوطاننا، ولا تكلنا إلى
أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك.

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين.

{ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ

الْكَافِرِينَ } [آل عمران: 147].

اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وانصر إخواننا في البوسنة والهرسك،
وانصر إخواننا في جامو وكشمير، وانصر إخواننا في كل مكان يقاتلون فيه،
وانصر إخواننا المضطهدين المعذبين.

اللهم فك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتول بعنايتك أمرهم.

{ ... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا

لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر: 10].

عباد الله: يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه،
والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

مرض الإيدز

1409/4/23 هـ - 1988/12/2 م

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

حضرت في الأسبوع الماضي مؤتمراً للطب الإسلامي في القاهرة، عقده المنظمة الإسلامية للعلوم الطبية في الكويت، بالتعاون مع الأزهر الشريف، ومع نقابة الأطباء في مصر.

وكان مما لفت النظر في هذا المؤتمر موضوع شغل العالم اليوم، وهو ما يسمى بـ «الإيدز»، والإيدز حروف لكلمات تدل على مرض هو: «نقص المناعة الطبيعية والمكتسبة لدى الإنسان»، فإن الله عسع زد الجسم الإنساني بجند من جنده: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ...﴾ [المدثر: 31]، هذه الجنود المجندة الخفية التي لا ترى إلا بالمجاهر - وقد لا ترى - تقاوم كل ميكروب غريب يزحف على هذا الجسم، وإلا تعرض للهلاك من أقل ميكروب أو فيروس.

يأتي هذا المرض ليحطم هذا الجند المجند المرابط من قبل القدرة الإلهية، وليقبض عليه، فيصبح الإنسان فريسة لأي مرض، يمكنه أن يهاجمه ويقضي عليه.

هذا هو المرض الذي أشير إليه باسم «الإيدز»، وهو الذي يرعب العالم كله الآن، وقد عرض الإخوة الأطباء الذين جاءوا من أوروبا وأمريكا، والذين يعيشون هناك في أعلى الاختصاصات، وفي أرقى المراكز،

وعرضوا بالصور، وعرضوا بالأفلام، وبلغت الإحصاءات، ما يهدد العالم من وراء هذا الداء الخطير، وهذا الوباء الوبيل، وهذا المرض العضال.

إنها إحصاءات مرعبة، فآلاف مؤلفة تعاني من هذا المرض، وآلاف وآلاف تحمل الميكروب، وآلاف وآلاف، بل ملايين وملايين، مهددة أن يصل إليها هذا المرض بوسيلة من الوسائل، فما سبب ذلك كله؟

سبب ذلك كله هو الشرود عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، هو الشرود عن السنن الإلهية التي أقام الله عليها هذا الكون، هو الشرود عن أحكام الله سبحانه وتعالى.

لقد أصيب بهذا المرض الغربيون في أرقى البلاد التي وصلت إلى القمر، وتحاول الصعود إلى الكواكب الأخرى.

أصيب به أبنائها، وأصيب به بناتها، وحتى الأطفال أصيبوا بهذا المرض الوبيل الذي وقف الأطباء عاجزون عنه، لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً.

من أجل ذلك تنادي العالم كله للوقوف أمام هذا الوباء الذي يسمونه «الطاعون الأبيض» يتنادى العالم للوقوف ضده، للوقاية منه، فالوقاية خير من العلاج، ودرهم وقاية خير من قنطار من العلاج.

لقد أصابهم هذا المرض نتيجة انتشار الفاحشة، نتيجة انتشار الشذوذ الجنسي، نتيجة انتشار الزنا واللواط والاتصال غير المشروع بين الرجل والرجل، والاتصال المحرم بين الرجل والمرأة، ونتيجة الإعلان به جهاراً نهاراً، حتى أن الشواذ أصبح لهم أندية خاصة، وأصبحوا يسرون مسيرات ومظاهرات في شوارعهم الكبرى، تجوب الطرقات، وتنادي أن يكون لهم

حق الاتصال الشاذ.

بلغ الأمر عند هؤلاء الناس إلى هذا الحد، يقولون: نحن أحرار، دعونا كما نشاء، يتصل الرجل بالرجل، والرجل بالمرأة، والمرأة بالمرأة.

هذه هي الحرية عندهم، حرية الفسوق لا حرية الحقوق، حرية البهيمية لا حرية الإنسان، إن الحرية ليست أن تفعل كل ما تشتهي، ولكن الحرية الحقيقية أن تفعل ما ينبغي.

ليس هناك حرية مطلقة في هذا الكون، كل شيء له حدود، حتى الكواكب السيارة لها مساراتها ومداراتها: {... كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [الأنبياء: 33]، حتى الطائرات لها مسابحها في الجو، حتى البواخر في المحيطات لها مساراتها، كل شيء لا يمكن أن يكون حرًا بإطلاق، لا بد من قيود وحدود، وإلا اصطدمت الأشياء بعضها مع بعض.

الحرية المطلقة بهيمية حيوانية وليست من الإنسانية في شيء، هؤلاء يطالبون بالحرية المطلقة، حرية أن يتصل الرجل بالرجل، أي قذارة، وأي حقارة، وأي أذى؟!!

إن الناس سألوا - في عهد النبي صلى الله عليه وسلم - عن اتصال الرجل بامرأته في وقت الحيض، ف جاء قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أذى فَأَعْتَرَلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوْبِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ} [البقرة: 222]، إتيان في موضع الحرث، ورجل مع امرأته في الحلال، ولكن إذا وجد الأذى ... وجد الدم، فعلى الإنسان أن يتنزّه، ويتنظف، ويضبط نفسه، حتى يأتي وقت

الطهر: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُجِبُّ التَّوْبَةَ وَيُحِبُّ
الْمُتَطَهِّرِينَ﴾، أما هذا فهو يأتي مكاناً هو موضع القدر، لم يخلقه الله لهذا
الأمر، ما خلق الله الذكر ليركب، ما الله الشرج ليؤتى، إنما خلقه لمهمة أخرى
قدرة ينبغي للإنسان أن ينتظف منها ويتطهر، فكيف قلب هؤلاء فطرة الله
التي فطر الناس عليها؟!!

إن قوماً في التاريخ فعلوا ذلك، وهم قوم لوط، كانوا أول من ابتكر هذه
الفاحشة، ما سبقهم بها أحد من العالمين: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ
مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 80].

أرسل الله إليهم نبيه لوطاً سسس يدعوهم إلى الله، وإلى التترزه عن هذه
الفاحشة، ودمغهم بأسوأ الأوصاف، فقال: ﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:
55]، ﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81]، ﴿... بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾
[الشعراء: 166] ﴿... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَسِيقِينَ﴾ [الأنبياء: 74]، وصفهم بكل
الأوصاف الهازئة، ثم سأل الله عرع أن يخلصه منهم، فنجاه من هذه القرية
التي كانت تعمل الخبائث والتي كانت تأتي في ناديها المنكر، والتي كانت
تتربص حتى بالضيوف، ولا يسلم منها ضيف، إنها آفة، إنها مصيبة، من
أصيب بها فقد عقله، وفقد ضميره، وفقد وعيه، ولم يرع أي قيمة من القيم
حتى الضيوف.

هؤلاء استحقوا العقوبة من الله سبحانه وتعالى، عوقبوا بما لم يعاقبه أحد
في العالمين، جزاء فاحشتهم التي لم يسبقهم بها أحد من العالمين، أمطر الله
عليهم حجارة من سجيل منضود، وجعل عالي بلدانهم سافلهم، قلبها عليهم كما
قلبوا فطرة الله عز وجل، وأرسل عليهم حجارة مسومة كل حجر مصوب

لصاحبه لا يخطئه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ 82 مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [هود: 82، 83] عقوبة الله ليست ببعيدة عن كل من سلك مسلكهم، أو اتبع منهاجهم.

الغربيون أعادوا الفاحشة التي ابتدعها قوم لوط، ولكنهم زادوا على قوم لوط، فباهوا بها، وأعلنوا عنها، وأصبحت لهم أنديتهم، وأصبحوا يسيرون المظاهرات، ويكتبون في الصحف، بل أصبح هناك من يدعو إلى قانون يتيح لهم هذا الأمر: أن يقتن هذا الخروج عن الفطرة، وأن يقتن هذا الإجرام.

وللأسف كل الأسف، وجد من الكنائس المسيحية التي تنتسب إلى المسيح عيسى ابن مريم سسس، الذي كان يقول: لقد كان من قبلكم يقولون: لا تزن، وأنا أقول: من نظر بعينه فقد زنى، هكذا يروون عنه في الإنجيل، إنه يحرم النظرة غير البريئة، فكيف بهؤلاء الذين يستحلون ما حرم الله في كل جيل؟ للأسف تقوم بعض الكنائس لتبارك هذا المنكر، ويقوم بعض القسس بكتابة عقود يزوج فيها الرجل من الرجل!!

أي حضارة هذه الحضارة؟ وأي مدينة هذه المدينة؟ ليس الحضارة أن تلعب بالأزرار لتأتيك بالأشياء في أسرع وقت، وأن تختصر لك المسافات، وأن تقرب إليك البعيد، وأن تنطق لك الحديد.

الحضارة أن ترقى باعتبارك إنساناً، أن يكون لك عقل وخلق وضمير، أن تضبط نفسك أمام الشهوات، أن تقول: لا، بملء فيك إذا وجدت ما يصادم إنسانيتك، أن تركل الشهوات بقدميك، وتقول ما قاله الصديق ابن الصديق ابن الصديق ابن الصديق، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم سسست:

{مَعَاذَ اللَّهِ} (86)، حينما عرضت عليه الفتنة، هكذا ينبغي أن يكون الإنسان.

وللأسف الشديد أيها الإخوة، بدأ رذاذ من هذه الحضارة ينتقل إلينا نحن المسلمين، بدأنا - نحن المسلمين - نقلدهم تقليدًا أعمى ... تقليد القردة، ونحاكيهم محاكاة البيغاوات، نريد أن نسير سيرتهم، نستن بسنتهم، ونمشي وراءهم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (87).

يريد بعض الناس منا أن نسير وراء الغرب، أن نطلق الحرية، أن ندع للشباب والشابات الحبل على الغارب، ليحرب كل منهم صاحبه، يتعلم بعض شبابنا هذا الأمر عن طريق الفكر المضلل، وعن طريق المخالطة والاتصال بأولئك القوم في بلدانهم، حين يذهب من يذهب إلى أوروبا وأمريكا، وحينما يذهب من يذهب إلى بلاد الشرق الأقصى، إلى «بانكوك» وما وراءها، فيأتون وقد تلوثوا بالأمراض، وقد أصيبوا بالأدواء، في أبدانهم وفي عقولهم! هكذا بدأنا نذهب إليهم لنأخذ عنهم البلاء والوباء، أو يأتون إلينا في صور شتى.

إن الله حصننا نحن المسلمين بتعاليم دينه، حصننا بأحكام شرعه، حصننا

(86) يشير إلى قوله: تعالى: {وَرُوْدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْاَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ اِنَّهُ رَبِّي اَحْسَنُ مَتَوَاتِرًا اِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [يوسف: 23].

(87) ونص الحديث الذي رواه أبو سعيد الخدري: «لتتبعن سنن من قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». متفق على صحته «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (392/14)، الحديث (4196).

بالعقيدة التي تجعل المؤمن يقف شامخاً كالجبل الأشم، أمام الأهواء والمغريات والشهوات، لا يرضى أن يلوث نفسه، إن الإسلام قد رباه منذ نعومة أظفاره على غض البصر وحفظ الفرج {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} 30 وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ...} [النور: 30، 31].

إن الله أراد للإنسان المسلم أن يتربى على العفاف والإحسان وخلق الحياء، فلا يرضى أن يتلوث بالشهوات، وأن يقع في بؤرة المعاصي، حتى لو جاءت الشهوة إليه ساعية فإنه يرفضها ويقول: معاذ الله، ويقول كما قال أحد السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، حينما عرضت له امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله رب العالمين⁽⁸⁸⁾، هذا هو شأن الإنسان المسلم.

علم الإسلام المسلم منذ صباه أن يتعفف، ويتنظف، ويتطهر، ويتنزّه، ويرفض أن يتلوث بهذه الكبائر، علمه ألا يتصل بالجنس الآخر إلا في الحلال.

من أوصاف المؤمنين في القرآن: {وَالَّذِينَ هُمْ لِأَفْئِدَتِهِمْ حُفُظُونَ} 29 إِلَّا عَلَى

(88) روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله: اجتمعا على ذلك، وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة أخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (287/1)، الحديث (457).

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ 30 فَمَنْ أَبْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: 5 - 7، المعارج: 29، 30]، أولئك هم المعتدون على حدود الله، الظالمون لأنفسهم وللناس.

أغلق الإسلام أبواب الحرم أمام المسلم، وفتح له أبواب الحلال، ودعا الناس إلى أن يتزوجوا ويزوجوا: {وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ} [النور: 32].

إن الإسلام يعمل على إيجاد الفرد النظيف والمجتمع النظيف، فدعا المجتمع أن يعين كل من يرغب في الإحصان، كما دعا إلى أن يطهر نفسه من أسباب الفتنة، ودواعي الإغراء والإفساد، فلا يجوز لمجتمع مسلم أن يوجد فيه ما يحرض على الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لا يجوز لمجتمع مسلم أن توجد في الصورة العارية أو شبه العارية، أو الغناء الماجن، أو القصة الخليعة، أو المرأة المكشوفة التي تباع لحمًا رخيصًا في الطرقات والأسواق وعلى الشواطئ، لا يجوز هذا في حال من الأحوال، وبهذا يحصن المسلم نفسه من كل وباء، ومن كل مرض.

إما إذا شرد الناس عن هذا، وارتكبوا ما حرم الله، وتورطوا في الموبقات، وأعلنوا بها كما فعل الغربيون، فإن عقاب الله تعالى بالمرصاد.

إن الله عقوبات شتى، منها عقوبات شرعية ينفذها ولي الأمر المسلم، ومنها عقوبات كونية قدرية، يتولاها القدر الأعلى، ووفقًا لما ربط الله به هذا الكون من شبكة الأسباب والمسببات، ومرض «الإيدز» هو نوع من العقوبة القدرية الإلهية كما نبأنا بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه

ابن ماجه، والحاكم، والبيهقي عن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: «يا معشر المهاجرين، خمس خصال إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن [وكانت أولى هذه الخصال الخمس] لم تظهر الفاحشة⁽⁸⁹⁾ في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا...»⁽⁹⁰⁾.

انظروا إلى هذا الحديث الشريف العجيب، انظروا إلى هذا الإعجاز النبوي: «لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها»: وجود الفاحشة عند فرد أو أفراد قد يعفوا الله تعالى عنه، أو يؤجل العقوبة عليه، ولكن حينما تظهر في قوم ... في جماعة ... في مجتمع، وتظهر إلى حد أن يعلنوا بها، ويجاهروا بها، ويتباهوا بها، ويقيموا النوادي من أجلها «إلا فشا فيهم الطاعون»: لقد كان الطاعون يأتي قديماً ويأكل الأخضر واليابس، ويفني الناس بالجملة، ولا يجد الناس له مقاومة ولا علاجاً، والغربيون يطلقون على «الإيدز» لفظ: «الطاعون» كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا هو طاعون هذا العصر: «إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا» وهذا المرض فعلاً ما كان الناس يعرفون عنه شيئاً قبل عدة سنوات، فهو مرض جديد، كلما أحدث الناس معصية أحدث الله لهم عقوبة، هكذا سنة الله سبحانه وتعالى.

(89) الفاحشة تشمل الزنى وعمل قوم لوط الذي يعرف في عصرنا باسم «التشوذ الجنسي».

(90) رواه ابن ماجه - وهذا لفظه - والبخاري والبيهقي من حديث ابن عمر بنحوه، ورواه الحاكم أيضاً، وصحح إسناده، ووافقه الذهبي، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» الحديثان (399، 1433).

إن هناك رقابة على هذا الكون، رقابة إلهية لا تدع الناس دون أن تأتيهم النذر، وهذه النذر أيضاً من رحمة الله سبحانه وتعالى، لينبه الغافلين، ويذكر الناس، ويوقظ النائمين، ويقول: يا أيها الضالون عودوا، ويا أيها العصاة توبوا، يقول الله سبحانه وتعالى: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم: 41]، ظهرت المصائب من كل نوع: مصائب في الفرد، ومصائب في الأسرة، ومصائب في الجماعة، مصائب في الأجسام، ومصائب في الأنفس، ومصائب في العقول، ومصائب في الأموال، ومصائب من كل ناحية، فساد شامل، لماذا؟ {بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ} {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس: 44] {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ} [آل عمران: 182]، الأنفال: 51]. {لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا} لا يذيقهم كل ما عملوا، لو أخذ الله الناس بكل ما عملوا لأفنى هذا الكون، لأباد خضراءهم، وكما قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ...} [فاطر: 45] {وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ} [الشورى: 30].

{لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}، أي أنه ينبههم بهذه العقوبات ليتذكروا، ليذكر الإنسان ضعفه أمام القدرة الإلهية، ليذكر الإنسان مصيره، ليذكر مبداه ومنتهاه.

{لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} فهل يرجع الشاردون؟ فهل يتوب العاصون؟ فهل يهتدي الضالون؟ فهل يستيقظ النائمون؟ هيهات ... هيهات.

لقد أسمعت لو ناديت حيًّا ولكن لا حياة لمن تنادي

لقد جاءتهم النذر من كل ناحية، جاءتهم النذر وهم في غيهم سادرون ... في غفلتهم لاهون ... في غمرتهم ساهون ... فعلينا نحن المسلمين أن نأخذ العبرة، أن نستفيد من غيرنا، فالسعيد من وعظ بغيره.

نحن مسلمون أكرمنا الله بالإسلام، وحصننا بهذا الدين، فلا يجوز لنا أن نكون نسخة من غيرنا، أن نمسخ أنفسنا، ونصير أذناً لغيرنا، إن كان ولا بد أن نأخذ من الغرب، فلنأخذ منه العلم والتكنولوجيا، والعلم هو بضاعتنا في الحقيقة ترد إلينا.

لقد أخذوا المنهج العلمي التجريبي منّا، فعلينا أن نستعيده ونستفيد منه و«الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها»⁽⁹¹⁾، أما أن نأخذ عنهم كل شيء كما ينادي من ينادي من الناس، فهذا هو المسخ.

لا يجوز لهذه الأمة بحال أن تنماع شخيتها، وأن تسير وراء غيرها من المغضوب عليهم ومن الضالين، وقد علم الله المسلم أن يقول في كل يوم ما لا يقل عن سبع عشرة مرة مناجياً ربه: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ 6 صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} [الفاحة: 6، 7].

علينا نحن المسلمين أن نتميز عن غيرنا، فنحل ما أحل الله، ونحرم ما حرم الله، وللأسف لا زالت بعض القوانين في بلاد المسلمين تحل الحرام ... تحل الزنا الصريح ... تحل الاتصال غير المشروع، ما دام ذلك يتم برضا

(91) رواه الترمذي في كتاب العلم من «سننه» واستخرجه، وفي سننه راو يضعف من قبل حفظه (2688)، كما رواه ابن ماجه في الزهد (4169)، كلاهما عن أبي هريرة، والسند وإن كان ضعيفاً فالمعنى صحيح.

الطرفين، فالقانون لا سبيل له عليهما، وكما يقول المثل: «أنا راض، وأبوي راض، وأنت ما لك يا قاضي؟!».

وفي بعض البلاد حرموا الزواج بامرأة ثانية، وأباحوا اتخاذ الخليلات والعشيقات، وهكذا فعلوا: أحلوا الحرام وحرّموا الحلال، وعارضوا شرع الله جهارًا نهارًا، عيانًا بيّنًا.

نحن المسلمين علينا أن نتمسك بشرع الله عز وجل، فهو سفينة الإنقاذ، وطوق النجاة في الدنيا والآخرة.

إن الدين ليس سبيلًا للسعادة في الآخرة فقط، بل هو سبيل السعادة في الدنيا قبل الآخرة، لا نجاة إلا به، ولا وحدة إلا به، ولا قوة إلا به، ولا نصر إلا به، من أراد الدنيا فليتمسك بالإسلام، ومن أراد الآخرة فليتمسك بالإسلام، ومن أرادهما معًا فليتمسك بالإسلام.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه من كل ذنب، إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أيها الإخوة المسلمون:

ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنينا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل

خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم انصر إخواننا المجاهدين في فلسطين، وانصر إخواننا المجاهدين في لبنان، وانصر إخواننا المجاهدين في أفغانستان، وانصر إخواننا المجاهدين في الفلبين، وانصر إخواننا المجاهدين في كل شبر من أرض الإسلام، اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفل حدهم، وأذل دولتهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين.

اللهم اجمع كلمة المسلمين على الهدى، وقلوبهم على التقوى، وعزائمهم على عمل الخير وخير العمل، ونياتهم على الجهاد في سبيلك: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147].

عباد الله: يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56] اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

عقبات في طريق الزواج

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ما زلنا نتحدث في محيط الشباب والفتيات، ومشكلات هذا الجيل، الذي من الله عليه بنعم كثيرة، ومع هذا يعاني مشكلات كثيرة.

ما زلنا في مشكلات هذا الجيل من الشباب والفتيات، ومن هذه المشكلات ما يتعلق بالزواج، الذي أصبح الآن - بما أدخله الناس من تعقيدات في حياته - عبئاً على الظهور، يسره الله تعالى فعسره الناس، وبسطه الشرع فعهده المجتمع، ووسعه الخالق فحجره الخلق.

الزواج في نظر الإسلام قرينة وشريعة، وسنة ربما وصلت إلى الفريضة:

شرع الله الزواج ولم يشرع في الإسلام الرهبانية، لا رهبانية في هذا الدين ليس في هذا الدين اعتزال للحياة، وانصراف عن المرأة، واعتبارها وسيلة الشيطان كما كان في أديان أخرى، حيث كان الرجل يعتبر المرأة نجسًا، ويفر منها حتى لو كانت أخته أو أمه، كما كان يصنع الرهبان في أوروبا في العصور الوسطى⁽⁹²⁾، ليس في الإسلام هذا.

لقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتزوج أصحابه، حتى قال من قال منهم: لو لم يبق من عمري إلا عشرة أيام، لتزوجت فيها حتى لا ألقى الله

(92) انظر في ذلك ما نقله العلامة أبو الحسن الندوي في كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟» عن عجائب الرهبان في العصور الوسطى.

عزبًا.

الزواج فطرة: لا يستطيع الإنسان أن يعيش وحده، لما خلق اله آدم خلق له زوجة، وقال له: {...أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ...} [البقرة: 35، الأعراف: 19].

فلا معنى إذا عاش الرجل فيها بغير أنيس، بغير من يسكن إليه، ولهذا خلق الله لأدم زوجة ليسكن إليها.

بل الزواج فطرة من فطر الكون كله، ليس هناك شيء إلا وله زوج، إلا وله مكمل، سواء كان هذا في الحيوانات أم في النباتات أم حتى في الجمادات، في الكهرباء، نرى الموجب والسالب، بل في الذرة، العلم الحديث يقول لنا: إن في الذرة التي هي الوحدة الصغيرة لبناء هذا الكون، فيها شحنة موجبة وشحنة سالبة، وصدق الله العظيم إذ يقول: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} [الذاريات: 49].

وإذا كان هذا هو نظام الكون، وفطرة الكون، فلا يبقى للإنسان أن يشذ عن النظام الكوني، وعن فطرة الطبيعة، فلا بد أن يبحث عن إلفه، وعن أنيسه، وعن زوجه.

ومن أسرار التعبير في اللغة العربية وفي القرآن الكريم، أن كلا من المرأة والرجل إذا تزوجا يسمى كل منهما: زوجًا، وكلمة «زوج» تعني «الثنين»، كأن كلا منهما يحمل في ضميره الآخر، كأن كلا منهما في ظاهره فرد، وفي حقيقته زوج.

الزوجية فطرة إنسانية، وفطرة كونية:

ومن هنا حث الإسلام على الزواج، حتى يبقى به هذا النوع، وتستمر

عمارة الحياة بهذا النوع المكرم كما أراد الله سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً...} [النحل: 72]، وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالباءة، وينهى عن التبتل نهياً شديداً، ويقول: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة»⁽⁹³⁾.

الزواج من أسباب التناسل: الذي يبقى به هذا النوع، لا بقاء للنوع بغير هذا الزواج، ولهذا لا يرى الإسلام تلك النظرة التشاؤمية التي كانت عند بعض الفلاسفة، وبعض الأديان التي تنظر إلى الحياة على أنها شر، وإلى هذا العالم على أنه عالم عذاب وويلات، وينبغي أن يتخلص الناس من هذا العالم بقطع النسل فلا يتزوجوا، وإذا تزوجوا لا ينجبوا وهكذا.

الإسلام ضد هذه النظرة التشاؤمية، ويرى أن هذه الحياة خير، أرادها الله أن تعمر وأن تستمر، ولهذا على الناس أن يتزوجوا، ويتزوجوا الودود الولود⁽⁹⁴⁾.

الزواج كذلك أساس لتكوين الأسرة، تلك التي تنربى فيها المشاعر... المشاعر الطيبة، العواطف الإنسانية النبيلة، عواطف الأبوة والأمومة والبنوة

(93) أورده الهيثمي في «المجمع» وقال: رواه أحمد والطبراني في «الأوسط»، وإسناده حسن (258/4).

(94) عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، إنني أصبت امرأة ذات حسب ومنصب ومال، إلا أنها لا تلد، أفأتزوجها؟ فنهاه، ثم أتاه الثانية فقال له مثل ذلك، ثم أتته الثالثة فقال له: «تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم». رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم، واللفظ له، وقال: صحيح الإسناد «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (553/2)، الحديث (1107).

والأخوة والرحم، عواطف المحبة والتعاون والإيثار والرحمة والتعاطف، في ظل الأسرة تتكون هذه المشاعر والذي يكون الأسرة هو الزواج: {يَأْيَهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ...} [النساء: 1].

في ظل الأسرة يوجد السكون والمودة والرحمة {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ...} [الروم: 21] آية من آيات الله مثل خلق السموات والأرض، مثل الآيات الكبرى في هذا الكون، أن ينضم رجل إلى امرأة، وتنضم امرأة إلى رجل، ويتكون منهما النواة الأولى والخلية الأولى لهذا المجتمع.

ثم بعد ذلك تتسع الدائرة ... دائرة المودة، ودائرة المحبة والألفة والتناصر والتعاون بالمصاهرة {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا} [الفرقان: 54].

الزواج كذلك حماية للإنسان من السقوط الغريزي، ركب الله في الإنسان غريزة، هي سوط يسوقه إلى بقاء النوع، وهذه الغريزة المركبة لحكمة إلهية، لم يأت الإسلام بمصادرتها، فلم يأت الإسلام بما يستأصل الفطرة والغرائز، بل بما يهذبها ويكملها ويسمو بها.

لهذا لم يسر مع أولئك الذين حرموا أي تصريح للغريزة، واعتبروها رجسًا من عمل الشيطان، ونظروا إليها نظرة استنقار، ولم يطلق لها العنان كما فعل أولئك البهيميون، الذين يعتبرون الإنسان والحيوان شيئًا واحدًا، وليس عندهم حلال ولا حرام، إنما وقف موقفًا وسطًا، فحرم السفاح وأباح

النكاح، جعل هناك مصرفاً شرعياً لهذه الغريزة بالزواج، لا حرج على الإنسان أن يستمتع بهذه الغريزة في حدود ما أحل الله {... هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ...} [البقرة: 187]، {يَسَاوُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَاتُّوا حَرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ...} [البقرة: 223] لا حرج على الإنسان في ذلك.

لم يضق الشرع في هذا، بل أباح ووسع، ونادى النبي صلى الله عليه وسلم الشباب عامة، فقال: «يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»⁽⁹⁵⁾.

الزواج أغض للبصر وأحصن للفرج:

هكذا دعا الإسلام إلى الزواج، وهكذا استجاب المسلمون الأوائل لهذه الدعوة، فيسروا وسهلوا، وكانت أمور الزواج من أسهل ما يكون، ولكن الناس بعد ذلك، وفي عصرنا خاصة، عسروا ما يسر الله، وضيقوا ما وسع الله، شددوا على أنفسهم ولم يشدد الله عليهم، حتى رأينا العزوبة عند الشباب، والعنوسة عند الفتيات، نرى شاباً بلغ الثلاثين من عمره ولم يتزوج، ونرى فتاة بلغت الثلاثين ولم تتزوج، ولعلها لا تتزوج بعد ذلك، حينما يقول الناس: فاتها القطار.

لم هذا كله؟ ما الذي حدث؟ ما دام هناك رجال ونساء، فتیان وفتيات، فلماذا

(95) رواه البخاري، ومسلم، واللفظ لهما، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، والبيهقي في اللغة: الجماع، والمراد بها هنا: ما يلزمه من القدرة على مؤنه ونفقاته، والوجاء: رض الخصيتين، والمراد: أنه يضعف الشهوة الجنسية، وذلك إذا داوم عليه «المنتقي من كتاب الترغيب والترهيب» (549/2 - 550)، الحديث (1095).

لا يتزوج هؤلاء من هؤلاء؟

رأيت في الجامعة - وأنا أدرس للطالبات - أعدادًا غفيرة من الفتيات غير متزوجات، ولا ينقصهن والله الجمال، ولا ينقصهن النسب، ولا ينقصهن الأدب، ولا ينقصهن الدين، ولا تنقصهن الثقافة، لماذا لا تتزوج هؤلاء الفتيات؟ ما المشكلة؟

المشكلة نحن الذين خلقناها، نرجع إلى أسباب هذا فنجد الناس قد وضعوا عقبات كثيرة في سبيل الزواج.

هناك عقبات مادية، عقبات اجتماعية، عقبات نفسية.

هناك عقبات مادية: لا يستطيع الشاب أن يتزوج إلا أن يكون الشاب صاحب مال، ومال وفير، فالشاب المتخرج الذي يقف على أول السلم، لا يستطيع أن يوفر ما يطلب منه، وما يطلب منه كثير، من الذي صنع هذا الكثير؟ الشرع لم يصنعه، إنه في حاجة إلى مهر يدفعه، والناس يغالون في المهور، ويتباهون بها، المفاخرة والمكاثرة، والرياء الاجتماعي الزائف، بنت فلان دفع إليها كذا، وهذه بذل لها كذا، كأن هذا أصبح مقياس القيمة للإنسان، أو الدخول في الجنة، ما قيمة هذا كله؟! وفي الحديث الشريف: «خير الصداق أيسره»⁽⁹⁶⁾، «من يمن المرأة تيسير خطبتها، وتيسير صداقها، وتيسير رحمها»⁽⁹⁷⁾. وقد خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابة

(96) رواه ابن ماجه والحاكم عن عقبة بن عامر، كما في «الصحيح الجامع الصغير» وزيادته (3279).

(97) أورده الهيثمي في «المجمع» (255/4) وقال: رواه أحمد وفيه أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف وقد وثق، وبقيه رجاله ثقات.

يومًا فقال: «ألا لا تغلوا صدق النساء، ألا لا تغلوا صدق النساء، فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوى عند الله لكان أولاكم بها النبي صلى الله عليه وسلم ما أصدق رسول الله امرأة من نسائه، ولا أصدق امرأة من بناته أكثر من ثنتي عشرة أوقية»⁽⁹⁸⁾، والأوقية - أربعين درهماً.

أجل، لم يزوج النبي صلى الله عليه وسلم بناته على شيء كثير، فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، سيدة نساء العالمين، تزوجت على ماذا؟ على درع قدمها إليها علي بن أبي طالب! وماذا تصنع فاطمة الزهراء بالدرع؟! هل تحارب بها؟ إنها شيء رمزي.

سعيد بن المسيب سيد التابعين وأفقههم كما يقول أحمد بن حنبل يرفض أن يزوج ابنته من ابن الخليفة⁽⁹⁹⁾، ويزوجها لأحد طلاب العلم في حلقتة، قال له: يا ابن أبي وداعة، ماذا عندك؟ قال: والله ما عندي إلا درهم، قال: قد زوجتك ابنتي بدرهم!

نعم، زوجه ابنته بدرهم، لأنه كان يريد رجلاً صالحاً لم يكن الناس يتباهون بما يتباهى به الناس الآن، لم هذا؟

وليت الأمر يقف عند المهر وغلائه، إنه في حاجة إلى هدايا، في حاجة إلى ذهب يقدمه.

بعض البلاد هناك «شبكة» أو «تلييسة»، وبعض البلاد هناك ذهب ...

(98) رواه أحمد في «مسند عمر» بأرقام (285) و(287) و(340) وقال الشيخ شاكر: بإسناده صحيح، كما رواه أبو داود (2106)، والنسائي (117/6)، والترمذي وقال: حسن صحيح (1114)، والحاكم وصححه (175/2، 176).
(99) هو عبد الملك بن مروان، خطبها لابنه الوليد حين ولاه العهد.

مصوغات تقدم، معظمها أشياء لا تلبس، لأنها بأحجام كبيرة، وأوزان ثقيلة، وأشكال قديمة، لا تلائم ذوق هذا العصر، حتى إنه قد كثرت علي الأسئلة عن هذا الحلي: هل يزكي أو لا يزكي؟ لأن المرأة لا تلبسه إلا للتباهي فقط، هو شيء لا يلبس، ولكن تتباهى بأن عندها الشيء الكثير قدم لها في عرسها، لم هذا؟ لماذا نضيق على أنفسنا ونشدد؟

الأحفال والولائم التي تقام للعرس، وقبل العرس، وبعد العرس، وتذبح فيها الذبائح، ويؤكل قليلها، ويلقى في سلات المهملات و«الدرامات» كثيرها، وبلاد أخرى تتضور من الجوع فلا تجد اللقمة، لم هذا؟ شدد الناس على أنفسهم، تراهم يقيمون حفلاً للخطبة، وحقلاً لعقد القران، وحقلاً للزفاف، ما هذا كله يا عباد الله؟!

ثم بعد ذلك يأتي البيت، وتأثيث البيت، لا بد من أن تكون هناك شقة مفروشة بأحدث الأثاث، أو «فيلا»، أو ما شابه ذلك.

ثم بدعة جديدة اخترعها الناس بعد الزواج: ما سموه «شهر العسل» والسفر إلى الخارج لقضاء شهر العسل! تكاليف جديدة أضافها الناس، هي في النهاية آصار وأغلال في أعناقهم، وعقبات في طريقهم.

كل هذا يعقد الأمور، ويزيد من صعوبتها، وما طلب الله منا ذلك، ولا كلفنا الشرع ذلك، نحن الذين شددنا على أنفسنا، ولهذا ينتظر الشاب حتى يمكنه أن يوفر ما يطلب منه، وربما استدان، والدين هم بالليل، ومذلة بالنهار، أو ربما ذهب إلى البنك يستقرض منه بالربا فيأذن من أول زواجه بحرب من الله ورسوله، لم هذا؟ عقبات نحن الذين أنشأناها ووضعناها، عقبات مادية لا

معنى لها.

عقبات اجتماعية: هناك اعتبارات عند كثير من الناس ... يتقدم إليهم الشاب فيرفضونه، لم هذا؟ هذا لأنه من أسرة دون الأسرة، أو طبقة دون الطبقة؟ أو كذا وكذا، معايير ما أنزل الله بها من سلطان.

إن لكل عصر معايير، هناك من الفقهاء من قال بالكفاءة في النسب والحسب والحرفة وغير ذلك، ولكن هناك من رفض هذا كله وقال: { ... إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ ... } [الحجرات: 13]، المقياس هو الدين والخلق، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِذَا أَتَاكُمْ مِنْ تَرْضُونَ خَلْقَهُ وَدِينَهُ فَزُوجُوهُ، إِنْ لَا تَفْعَلُوا، تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ»⁽¹⁰⁰⁾ وكانوا يقولون: «إِذَا زَوَّجْتَ ابْنَتَكَ فَزُوجِهَا ذَا دِينٍ، إِنْ أَحْبَبَهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمَهَا» لأنه يخاف الله فيها، فهو يعاشرها بمعروف أو يسرحها بإحسان، ولا ينس الفضل فيما سبق.

هذا هو الإنسان المؤمن، هذا هو الذي ينبغي أن يحرص عليه.

والذين قالوا بالكفاءة من الفقهاء، قالوا: إن العالم كفاء لبنات السلطان، لأن العلم يرفع صاحبه، ويعلي من قدره، لأنه إذا وقف الأمر عند الحسب والنسب، معنى هذا أننا أصبحنا طبقات كطبقات الهنود، لا يستطيع أحد أن يرتقي من طبقة إلى طبقة والإسلام يرفض ذلك.

(100) رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم، عن أبي هريرة، ورواه ابن عدي عن ابن عمر، ورواه الترمذي أيضاً، والبيهقي في «السنن»، عن أبي حاتم المزني، ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالصحة.

يستطيع الإنسان بعلمه وعمله أن يرتقي إلى أعلى الدرجات في المجتمع المسلم، وهذا ما رأيناه منذ عصر الصحابة رضوان الله عليهم.

كان عطاء بن أبي رباح الفقيه التابعي رجلاً أسود اللون، أفتس الأنف، أعرج الرجل، قصير القامة، ولكنه جلس بجوار سليمان بن عبد الملك⁽¹⁰¹⁾ في الحج، يفتي الناس في المناسك، قالوا: إنما رفعة العلم.

العلم أجلسه بجوار الخلفاء:

والعلم يرفع بيتاً لا عماد له والجهل يهدم بيت العز
ينبغي أن نعيد النظر في معاييرنا، فالمهم هو سعادة بناتنا وأبنائنا لا يجوز
أن نتحجر على مقاييس قديمة، فالزمن يتغير، والحياة تتطور، والأنظار
تختلف، والله تعالى يقول: {وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ} [أي زوجوهم] وَالصَّالِحِينَ مِنْ
عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِعَ عِلْمَهُ} [النور:
32].

لا بد لنا من هذه النظرة، حتى لا تقف هذه المعايير أحجار عثرة في سبيل
حياة سعيدة لأبنائنا وبناتنا.

هناك عوامل نفسية عند بعض الشباب، وعند بعض الفتيات أنفسهن:
بعض الفتيان يضع أمام عينيه مثلاً يطلق في خياله، يرسم امرأة مثالية
يريدها زوجة له، موصوفة بكل جمال وكمال، وهذا لا يوجد في واقع الحياة.
الحياة قلما نجد فيها الكمال المطلق، فامرأة عندها الجمال، وأخرى عندها

(101) هو أحد كبار خلفاء بني أمية، أخرج الخلافة من أولاده وعهد بها للخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

المال، وأخرى عندها النسب، أما أن يوجد فيها كل شيء، فقلما يجتمع فيها هذا.

ولذلك أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «تنكح المرأة لأربع: لمالها، ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك»⁽¹⁰²⁾، «الدنيا كلها متاع، وخير متاعها المرأة الصالحة»⁽¹⁰³⁾، صاحبة الدين هي التي تسرك إذا نظرت وتطيعك إذا أمرت، وتحفظك إذا غبت، وتخاف الله في عرضك وولدك ومالك: {... فَأَصْلَحْتُ قُنْتُتْ حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ...} [النساء: 34].

وكثير من الذين يخلقون وراء هذه الأحلام والمثاليات، قلما يحققون ما ينشؤون.

أعرف قريباً لي، كان يريد فيمن يتزوجها أن تكون موصوفة بالحسن والجمال، بل رائعة الحسن والجمال، كثيرة الغنى والمال، ذات حسب ونسب، ذات علم وثقافة، ولكنه للأسف حينما تزوج، تزوج امرأة ليس فيها شرط واحد من هذه الشروط، مع أنه عاش سنين طويلة يبحث عن مثاله الخيالي.

(102) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (552/2)، الحديث (1106)، وقوله: «تربت يداك» معناه: الحث والتحريض، وقيل: هو دعاء له بكثرة المال، أي اظفر بذات الدين، ولا تلتفت إلى المال، أكثر الله مالك.

(103) رواه أحمد، ومسلم، والنسائي عن ابن عمر، ومسلم أيضاً عن ابن عمر، كما في «صحيح الجامع الصغير» (3413).

لا داعي لهذه الخيالات والمبالغات:

على الشاب أن يبحث عن ذات الدين، عن المرأة الصالحة التي تحفظه وتصونه، ويستطيع أن يعيش معها حياة سعيدة، لا يهمله أن تكون فقيرة في المال، إذا كانت غنية بالأخلاق، وفي الحديث عن عائشة رضي الله عنها: «تزوجوا النساء يأتينكم بالأموال»⁽¹⁰⁴⁾.

بعض الشباب يتشددون في أمور لم يشدد فيها الشرع، كأن يقول: إنني لا أريد فتاة تعمل، ولا حرج في العمل.

لا حرج أن تعمل الفتاة في أمر مباح، أن تعمل مدرسة في مدارس البنات، أو تعمل طبيبة في مكان ليس فيه اختلاط ممنوع، مثل هذا لا مانع منه⁽¹⁰⁵⁾.

لماذا يتشدد بعض الشباب أكثر مما يلزم، وقد قص علينا القرآن قصة تلك الفتاتين اللتين رأهما موسى عند ماء مدين: {... قَالَ مَا خَطْبُكُمْ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ 23 فَسَقَى لَهُمَا ...} [القصص: 23، 24] كانتا ترعيان الغنم، وتذهبان بها إلى حياض المياه، لأن أباهما شيخ كبير، ولا بد للأسرة أن تعيش، الحياة تحتاج إلى معاونة.

بعض الشباب يخاف من الفتاة المثقفة، ويقول: لا أتزوج فتاة جامعية، لماذا؟ لا يخاف من الجامعية إلا أحد اثنين: إما شاب ضعيف الشخصية، يخاف من هذه المثقفة المتعلمة أن تحدثه وتسأله، ولا تكون كما مهملاً في

(104) قال الهيثمي (255/4) رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح، خلا مسلم بن جباد - ولعله جنادة - وهو ثقة.

(105) راجع فتوى الشيخ القرضاوي: «عمل المرأة» في الجزء الثاني من «فتاوى معاصرة» (ص 303 - 306).

البيت، وإما شاب يريد أن ينحرف فهو يريد المرأة التي لا تستطيع أن تحاسبه، ولا أن تقيد عليه حركاته وسكناته.

أما الشاب المستقيم، الشاب القوي، فلا يضيره أبداً أن يتزوج المتعلمة، بل المتعلمة تنفع زوجة، وتنفع أمًا، تكون نعم المربي لأولادها وبناتها، تستطيع أن تساعد في مدارسهم، وفي أداء واجباتهم المدرسية والمنزلية.

هناك عقبات نفسية عند الشباب، وعند الفتيات أيضاً:

بعض الفتيات أيضاً يلقن، يرون فارس أحلام بأوصاف غير معقولة، وقلمًا يأتي هذا، وبعض الفتيات تشتترطن أن يكون لهن كذا وكذا، وتريد سيارة «مرسيدس 280»، و«فيلا» موصوفة بكذا وكذا، وأثاث كذا وكذا، وخادم كذا وكذا، ما هذا؟

إن فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم، تزوجت علي بن أبي طالب، ولم يكن في بيتها موقد كهربائي، ولا غسالة أوتوماتيكية، ولا مكنسة كهربائية، كانت تكنس البيت بيديها، كانت تدير الرحا بيديها فما كانت عندهم مطاحن، كانوا يأخذون الشعير ويطحنونه على الرحا، حتى يصبح دقيقًا خشبًا، فتأخذه وتعجنه وتخبره، وكانت تحمل قربة الماء على كتفها، حتى أثر ذلك في يديها، وذهبت هي وزوجها إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشكوان، يريدان خادمًا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لهما: «ألا أدلكما على ما هو خير من خادم؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «عندما تأويان إلى النوم تسبحان الله ثلاثًا وثلاثين، وتحمدانه ثلاثًا وثلاثين، وتكبرانه أربعًا

وثلاثين، فهذا خير لكما من خادم»⁽¹⁰⁶⁾، نصحبهما أن يستعينا على هذا التعب والمعاناة بالقوة الروحية، بذكر الله عز وجل، ولم يعطهما الخادم.

لماذا تريد المسلمة حياة الرفاهية؟ ما أجمل أن تكون معاونًا لزوجها، وأن تعمل في بيتها، وأن تكافح معه حتى يرتقي السلم إلى أعلى درجاته.

لماذا تريد إنسانًا - من أول الأمر - غنيًا ذا مال؟ والله أعلم هذا المال من حلال أو من حرام؟

لتبدأ درجات السلم من أوله مع فتى أحلامها، مع زوجها هذا، وتعيش حياة كفاف وعناء، كما عاشت نساء المسلمين في الزمن الأول: فاطمة الزهراء، وأسماء ذات النطاقين، وغيرهما من نساء الصحابة⁽¹⁰⁷⁾.

يا أيها الإخوة، ويا أيتها الأخوات ...

هذا هو ديننا، ديننا جاء بالتيسير، فما لنا نلجأ إلى التعسير؟ ديننا جاء بالتوسيع، فلماذا نلجأ إلى التضيق؟ ديننا خفف عنا، فلماذا نشدد على أنفسنا؟

علينا أن ندرك هذا، ونعلم أبناءنا وبناتنا هذا، حتى نحل تلك العقدة، وحتى يتزوج الشبان والشابات، بدل أن يلجأ الشباب إلى طرق تعرفونها، يجدون الحرام فيها ميسرًا هنا وهناك، أو بدل أن يلجأ إلى الزواج من أجنبية، ويدع ابنة بلده، وأقرب الناس إليه.

هذا هو الإسلام، فإذا أردنا الخير كل الخير، والسعادة كل السعادة، فلا بد

(106) رواه الشيخان وغيرهما عن علي رضي الله عنه، انظر: «اللؤلؤ والمرجان» حديث (1739).

(107) انظر كتاب «نساء المؤمنات» للأستاذ القرضاوي.

أن نرجع إلى هذا الدين، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.
نسأل الله عز وجل أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى، وأن يعلمنا ما ينفنا،
وأن ينفنا بما علمنا، إنه سميع قريب.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم،
وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، ولعلها تكون هذه الساعة.
اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها
معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل
خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

{رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10]، {... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} [الفرقان: 74]، {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا
فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]. اللهم
أمين، وأقم الصلاة.

* * *

المسلمون في مواجهة القوى المعادية⁽¹⁰⁸⁾

الخطبة الأولى:

أما بعد فينا أيها الإخوة المسلمون:

حديثنا اليوم عن المسلمين في مواجهة القوى المعادية والتيارات الغازية.

مر على المسلمين حين من الدهر كانوا فيه سادة العالم، وقادة الدنيا، سادوه بالإيمان والقرآن، وقادوه بالعلم والإحسان، حكموا فعدلوا، وأؤتمنوا فأدوا، وكانوا للدنيا هداة خير، ودعاة رشد.

ذهبت جيوشهم إلى كل مكان، المصحف في يد، والسيف في يد، لا يكرهون أحدًا على الدخول في دينهم، ولكن ليحققوا الحق، ويبطلوا الباطل، ويقفوا مع الضعيف ضد القوي، ومع المظلوم ضد ظالمه.

كانت لهم حضارة شامخة الذرا، جمعت بني العلم واليقين، ووصلت الأرض بالسماء، وربطت الدنيا بالآخرة، ووفقت بين العقل والقلب، بين المادة والروح، بين حق الفرد ومصلحة المجموع.

كانت كتب المسلمين تدرس في جامعات العالم، كان علماء المسلمين أشهر أسماء أهل العلم في الدنيا، كانت اللغة العربية لغة العلم في كل أقطار العالم.

(108) ألقيت هذه الخطبة في أحد جوامع الكويت، وأذيعت من الإذاعة والتلفزيون، وكانت بعد الإعلان - في مؤتمر المصارف الإسلامية المنعقد بالكويت - عن ضرورة تأسيس صندوق إسلامي أو هيئة إسلامية عالمية، للوقوف في وجه الغزو التنصيري الذي يهدد المسلمين.

بلغ من مجدنا أن جل أحد الخلفاء⁽¹⁰⁹⁾ يوماً ينظر إلى السحابة في السماء ويقول لها: شرقي أو غربي فسيأتي ثمرة خراجك إلى بيت مال المسلمين.

هكذا كنا، حتى جاء هذا العصر، ودار الفلك دورته، وإذا بنا نصبح في المؤخرة، بعد أن كنا في المقدمة، نصبح وراء الأمم بعد أن كنا في مأخذ الزمام من القافلة، أصبحنا نسمى العالم الثالث أو البلاد النامية، وهو تعبير ملطف للبلاد المتخلفة.

ولم يكف هذا، بل طمعت فينا كل القوى، طمع فينا من لا يدفع عن نفسه، وغلبنا كل مغلب، وأصبحنا نهب الطامعين والناهبين من الشرق ومن الغرب. كل القوى وكل الجبهات تألبت علينا، وتكالبت علينا، تختلف فيما بينها، ولكن إذا كنا نحن العدو اتفقت كلمتها جميعاً، وهذا ما قاله فقهاؤنا من قبل: «الكفر كله ملة واحدة»، بل هذا ما قاله الله تبارك وتعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ} [الأنفال: 73].

جبهات الكفر جميعاً كلها تألبت علينا: الجبهة الشيوعية التي لا تؤمن بالله، ولا تؤمن بالوحي، ولا تؤمن بالأخرة، ولا تؤمن بدين من أديان السماء، وتقول: ليس صحيحاً أن الله خلق الإنسان، بل الصواب أن الإنسان هو الذي خلق الله، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

هذه الجبهة لا تكتفي بأن تغزونا من الداخل بواسطة أحزابها وعملائها ودعاتها وأدعيائها، بل غزتنا من الخارج، غزتنا بقوة السلاح، ودخلت جحافلها بلدًا مسلمًا ما زال يعاني من آثار الغزو، ويقاوم بكل ما يستطيع، ذلكم

(109) هو «هارون الرشيد» خامس الخلفاء العباسيين.

هو أفغانستان (110).

الجبهة اليهودية ... اليهود الذين عاشوا متفرقين في أنحاء العالم، ولم يجدوا لهم صدرًا حنونًا إلا في ديار الإسلام، في بلاد المسلمين، وفي ظل دار الإسلام، عاشوا آمنين مطمئنين، يكسبون المال، ويكسبون الغنى، وتكون لهم المكانة، هؤلاء التفوا على المسلمين أخيرًا، ولم يرضوا أن تكون لهم دولة إلا في قلب ديار العروبة والإسلام.

وقامت «إسرائيل» تغتصب أرضنا، وتخرج أهلها من ديارهم، وتقيم دولة على أساس ديني، ولذلك سمتها: «إسرائيل».

جاء اليهود من أنحاء متفرقة، ومن أوطان شتى، ولم يجمعهم جامع إلا الدين ... إلا التوراة ... وإلا أحلام، ونبوءات دينية في أسفارهم المقدسة، ولم

(110) كان ذلك في 23 سبتمبر (أيلول) 1979م، وفي 13 فبراير (شباط) 1989م تم انسحاب جميع القوات السوفياتية من أفغانستان، بعد الهزائم والخسائر التي منيت بها على أيدي المجاهدين الأبطال، ثم كان فتح «كابل» ودخول المجاهدين إليها في إبريل (نيسان) × 1992م.

لكن الفرحة التي امتلأت بها صدور المؤمنين بدخول كابل، والإعلان عن تشكيل حكومة المجاهدين لم تكتمل، بسبب هذا الاقتتال الدامي الذي نشهده بين بعض قادة المجاهدين وفصائلهم هناك، ولا نملك إلا أن ندعو الله عز وجل، أن يوحد كلمتهم، ويلم صفوفهم، ويحقن دمائهم، ويأخذ بأيديهم إلى الاعتصام بحبله، امتثالاً لقوله: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرُّوا} وَأَنْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، وقوله: {وَلَا تَنْزَعُوا} فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحَكُمْ}، وقوله: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرُّوا وَأَخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}.

يكتفوا بهذا ... لم يكتفوا بأن يقيموا دولة يطردون أهلها من أرضهم، ليعيشوا عليها، حتى نأوشوا كل من حولهم، واقتطعوا أراض أخرى، وما زالت لهم أطماع وأطماع، ولعلنا نقرأ في هذه الأيام ما يكتبه المفكر الفرنسي الذي هداه الله إلى الإسلام: «رجاء جارودي»⁽¹¹¹⁾، وتنتشر صحف القاهرة وصحف الكويت كلام هذا المفكر عن أحلام الصهيونية وأباطيلها، وأن لهم أحلامًا أخرى غير هذه الأحلام، إنهم يقولون: إن ملك «إسرائيل» من الفرات إلى النيل، إنهم يخططون لتقسيم البلاد العربية حولهم، حتى يطمئنوا على وجودهم، فهم يحلمون بتمزيق سوريا، وتمزيق مصر، يريدون أن يقيموا فيها دولة للنصارى في الصعيد، كما رأيتهم في صحف اليوم، بل حتى دول الخليج يحلمون بتمزيقها، ولا تقولوا: هذه أحلام وأماني، فكثيرًا ما رأينا الأحلام والأأماني انقلبت إلى واقع ونحن لا نفعل شيئًا.

اليهود الذين هم أبخل الناس، وأجبن الناس، يقاتلون عدة دول وينتصرون، ويبدلون المال بالملايين والبلايين، هذا ما حدث أيها الإخوة.

الجهة النصرانية تعمل لنشر دينها في أنحاء العالم، في أقطار شتى، ومنها أقطار الإسلام، الكاثوليكية تملك ما لا يقل عما تملكه دولة عظمى في أنحاء العالم، وتمول به جيشًا جرارًا من المبشرين والمبشرات، والراهبان والراهبات، وتعمل على تنصير المسلمين في العالم.

(111) كان عضوًا بارزًا في الحزب الشيوعي الفرنسي، وبعد رحلة طويلة ومطالعات مستمرة، ودراسات للحضارات والأديان، شرح الله صدره للإسلام، حيث أعلن إسلامه في رمضان عام 1402هـ/1982م بـ «جنيف» ... وانظر الدراسة التي أعدها محمد عثمان الخشت بعنوان: «لماذا أسلمت؟».

في أندونيسيا أكبر بلد إسلامي أكثر من خمسين مطارًا للإرساليات التبشيرية، وهم يخططون لتنصير أندونيسيا في خمسين عامًا، في إفريقيا... في نيجيريا رأينا من المسلمين من تركوا دينهم، وخاصة من الفقراء، واليتامى الذين لا يجدون راعيًا، في الصومال ثلاثون ألف طفل ممن شردوا، ومات آبائهم وعائلوهم في الحرب والكوارث، تبناهم مليونير بليجيكي كاثوليكي، هل تبناهم لوجه الله تعالى؟ أم لينشئهم على عقيدته؟ هل منا من استجاب للدعاء، وقال: أنا أتبنى هؤلاء؟ مسؤولية هؤلاء في عنق من؟ إثم هؤلاء في عنقنا نحن جميعًا.

وليست الجبهة الكاثوليكية هي التي تعمل فقط، بل البروتستانتية تعمل أيضًا، في سنة 1978م اجتمع مائة وخمسون مبشرًا أمريكيًا في ولاية «كلورادوا»، وبحثوا أحوال المسلمين في أربعين بحثًا قدم لهذا المؤتمر - الذي يطلق عليه البعض: «مؤتمر حكماء كلورادو» تشبيهًا «لمؤتمر حكماء صهيون» - وقرروا العمل على تنصير المسلمين في العالم، ورصدوا لذلك «ألف مليون دولار»، وهذا أمر ليس خفيًا، بل هو منشور في كتب يقرأها المسلمون، وتحدثت عنها المجلات والصحف.

ولا نلوم القوم على حماسهم لنشر دينهم، إنما نلوم أنفسنا لأننا تقاعسنا عن نشر ديننا، بل تقاعسنا عن الدفاع عن شخصيتنا، بل تقاعسنا حتى أصبح المسلمون يغلبون من كل جانب، وتنتقص أطرافهم، وتؤخذ أرضهم، وتنتهك حرمتهم، وينصرّ أبناؤهم.

وهناك الجبهة الوثنية التي تحاربنا أيضًا، ولعلكم سمعتم عن الآلاف الذين ذبحوا في ولاية «آسام» الهندية، ماذا جنى هؤلاء، كل ذنبهم أنهم يقولون «لا

إله إلا الله»، ولا يعبدون البقر، ما ذنب هؤلاء حتى يقتلوا ويذبحوا ذبح النعاج؟ بل إن الذين يذبحونهم لا يذبحون النعاج، لأنهم يعتقدون أن أي ذي روح حرام قتله، ولا يجوز ذبحه.

إنهم يتركون الفئران تأكل القمح، ولا يستعملون المبيدات الحشرية حتى لا يقتلوا ذا روح، كنا ننزل الفنادق فلا نجد أي مادة يمكن أن نقتل بها البعوض، لأن قتل البعوض لا يجوز، وقتل أي ذي روح لا يجوز، الدم الوحيد الذي يجوز سفكه هو دم المسلمين.

لقد أصبح الدم الإسلامي أرخص دم في العالم، المسلمون يقتلون ويذبحون في كل مكان، ولا يبدو من يغيثهم، هذا ما حدث للمسلمين مع الأسف، فأين الألف مليون مسلم؟ المسلمون ألف مليون أو تزيد، مليار منتشرون في القارات الخمس فأين هم؟ لماذا لا يدافعوا عن أنفسهم؟

لقد قال رجل ممن قرأ عن الإسلام وأعجب بتعاليمه: «يا له من دين لو كان له رجال»، فأين الألف مليون، أليسوا رجالاً؟ أين الذين ينسبون إليه؟ ويحسون عليه؟ أين هم؟ إننا نجدهم ما بين مشغول بنفسه، لا يهمله أمر غيره، و«من لا يهتم بأمر المسلمين فليس منهم...»⁽¹¹²⁾ أين هؤلاء من قول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات: 10]؟ أين هؤلاء من قول الله تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ} [التوبة: 71]، أين هؤلاء من قول

(112) الحديث عن حذيفة بن اليمان، رواه الطبراني من رواية عبد الله بن أبي جعفر وهو مختلف فيه، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (514/2) الحديث (997)، وتتمة الحديث: «ومن لم يصيح ويمسي ناصحاً لله، ورسوله، وكتابه، وإمامه، ولعامة المسلمين، فليس منهم».

رسول الله صلى الله عليه وسلم: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه...»⁽¹¹³⁾؟ أي لا يظلمه، ولا يتركه يظلم ويؤذى، ويهان، دون أن يقدم له شيئاً.

المسلمون ما بين مشغول بنفسه ومصالحته الشخصية، وما بين تائه لا يعي حجم المأساة التي يعيشها المسلمون، يشغل نفسه بتوافه الأمور، ويقدم معارك من أجل أمور سطحية في الدين، وقد ترك الصلب، وترك القضايا الكبرى المصيرية، وترك أمته تصطلي بنار الهزائم والنكسات والمصائب وهو لا يفعل شيئاً.

وهناك من يعي حجم المأساة ولكنه يائس، ألقى السلام وقال: لا فائدة من الكفاح، كتب علينا الهوان، وهذا لا يتفق مع طبيعة الإيمان، ف: {إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ} [يوسف: 87]، {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ} [الحجر: 56].

وهناك إناس لم يكتفوا بالصمت والسكوت، ولكنهم ذهبوا يمزقون الصفوف، ويثبطون الهمم، ويذكون نار الفتن بالوقود، حتى تظل مشتعلة، تأكل اليابس والأخضر.

يا أيها الإخوة: إن المسلمين قادرون على أن يحتفظوا بشخصيتهم، قادرون على أن يكون لهم مكانهم تحت الشمس، قادرون على أن يكونوا أمة قوية كما

(113) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود واللفظ له، والترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. «المنتقى» (647/2) الحديث (1386)، وتتمة الحديث: «من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».

أراد الله لهم: {... أُمَّةً وَسَطًا...} (114)، وعندهم من الطاقات والإمكانات ما يغني.

عندهم الكثرة العددية ... الألف مليون، والكثرة نعمة كما قال الله تعالى: { ... وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ ... } [الأعراف: 86]، هذه الكثرة تستطيع أن تفعل الكثير لو وجدت من يوظفها، ومن يفجر ما فيها من إمكانات.

والمسلمون يملكون القوة المادية، عندنا من الثروات المذخورة في باطن الأرض، ومن الثروات المنشورة على ظاهرها، عندنا من الرصيد النقدي، عندنا من موقعنا الجغرافي، عندنا من كل ذلك الشيء الكثير.

ونملك - قبل ذلك كله - القوة الروحية، لأننا وحدنا نملك الرسالة الخالدة، رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي بعثه الله بها لينقذ العالم، ويكون رحمة للعالمين، عندنا رسالة الشمول والتوازن التي لا يمكن أن يشفي الدنيا من أدوائها غيرها.

كل ما في الأمر أننا نحن المسلمين حجاب حاجز عنها، ينظر الناس إلى الإسلام من خلال المسلمين ويقولون: أين أثر الإسلام في هؤلاء؟

نحن نملك الوثيقة السماوية الوحيدة المنزلة من السماء إلى الأرض، التي لم يعثرها تحريف ولا تبديل، نملك القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

نحن نملك تراثاً حضارياً عريقاً ممتداً إلى أربعة عشر قرناً من الزمان

(114) إشارة إلى قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ

عَلَيْكُمْ شَهِيدًا} [البقرة: 143]

نحن نملك من القوى والإمكانات ما هو جدير بأن يجعلنا في المقدمة وفي الطليعة، ولكننا لا نستغل طاقاتنا، غافلون لاهون متفرقون متنافرون، فمتى نعود إلى ديننا، نستمسك بعراه، ونهتدي بسناه، ونسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفتدي بسنته، ونسير بسيرته؟

إن الإسلام وحده هو سفينة الانقاذ، هو حيل النجاة، لو وعيناه حق الوعي، وفهمناه حق الفهم، كما أنزل الله على رسوله، وكما فهمه أصحابه وتابعوهم بإحسان.

نريد الإسلام الحق، الإسلام شاملاً بلا تجزئة، خالصاً بلا شركة، سالمًا من الشوائب والزوائد والفضول التي ألحقت به على مر العصور وليست من صلبه، نريد العودة إلى هذا الإسلام، ويوم نعود إليه ثقوا أننا سنقود الدنيا بزمام، وسيعود لنا شأننا من جديد.

إن للإسلام لدولة وظهورًا، وإقبالًا قبل قيام الساعة، وإنما لنتنظر هذا اليوم الذي تنطلق فيه أنوار الإسلام في كل مكان، وتخفق فيه رايات هذا الدين في آفاق الدنيا كلها، وإنما لنتنظر هذا اليوم: {... وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ 32 هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: 32، 33]، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي، قائمة على أمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»⁽¹¹⁵⁾.

(115) رواه أحمد والشيخان عن معاوية، وروي الحديث بألفاظ مختلفة عن عدد من الصحابة في «الصحيحين» أو أحدهما أو كتب السنة الأخرى: عن المغيرة، وثوبان،

أقول قولي هذا واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور
الرحيم وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إن الجبهات المعادية للإسلام تصنع ما يميله عليها حماسها لعقائدها
ودينها، فماذا صنعنا نحن أمام هذه الجبهات والتحديات؟ ماذا صنعنا ونحن
نملك الكثير؟

كما قلت لكم إننا قادرون على أن نرصد لديننا كما رصد بعض هؤلاء
لدينهم، إذا كان المبشرون الأمريكيان قد رصدوا «ألف مليون دولار» لتنصير
المسلمين في العالم، فلماذا لا نرصد نحن مثلها؟ لماذا لا نرصد «ألف مليون
دولار» لحماية المسلمين في العالم؟ لإنقاذ المستضعفين، لإيواء المشردين،
لرعاية اليتامى وأبناء السبيل، لإطعام الجائعين، لهداية الحائرين، لتشغيل
العاطلين، لتعليم الأميين.

المسلمون في العالم في حاجة لأي معونة، لقد طفت كثيرًا من بلاد العالم
الإسلامي، وزرت كثيرًا من الجاليات والأقليات المسلمة خارج العالم
الإسلامي، فوجدت هناك من يحتاج إلى اللقمة، هناك من يموت جوعًا ولا
يجد ما يسد جوعته، وهناك من يموت من البرد ولا يجد من يستر عورته،
هناك مدارس زرتها تحتاج إلى الكراسة وإلى القلم فلا تجده، بينما الكنيسة تمد

وأبي هريرة، وجابر، وعمران بن حصين، وعقبة عامر، وقررة بن إياس، انظر:
«الجامع الصغير وزيادته» الأحاديث من (7287) إلى (7296).

المدارس الإرسالية والتبشيرية بالآلاف من الكتب والكراسات والأدوات،
وتقول للمسلمين: ما عليكم إلا أن تحضروا مع هؤلاء ونحن نمدكم بكل
شيء، وجدت هذا أيها الإخوة.

في بعض البلاد وصلت المجاعة بأهلها إلى أن كان الكلب والإنسان
يتصارعان من شدة الجوع، يريد كل منهما أن يصرع الآخر حتى يأكله،
وصل الأمر في بعض بلاد الإسلام إلى هذا الحد، فماذا صنعنا نحن؟ نحن
الذين أفاء الله علينا من رزقه، ووسع علينا في العيش، وأفاض علينا نعمه
ظاهرة وباطنة، ماذا صنعنا؟

اليهود الذين عرفوا في التاريخ بالبخل والشح، إذا نزلت بإسرائيل ضائقة،
ذهب «بيجن» وأمثاله إلى يهود أمريكا، وعاد بمئات الملايين في أيام
معدودات، فماذا صنعنا نحن المسلمون؟

الفكرة التي أطرحها عليكم وعلى المسلمين في العالم، وقد طرحتها من
قبل فحملني المسلمون أن أبلغها إلى كل مكان أذهب إليه، وأولى هذه الأماكن
هذا البلد الذي منّ الله عليه بالكثير، والذي نرى فيه تيارًا إسلاميًا قويًا،
واتجاهًا إلى الإسلام في سائر النواحي، هذه الفكرة هي: أن نجمع «ألف
مليون دولار»⁽¹¹⁶⁾.

(116) انظر: «قضايا إسلامية معاصرة على بساط البحث» (ص 135 - 147) للأستاذ
القرضاوي ظظظ، لتعرف كيف بدأت هذه الفكرة وما دورها؟ كما دعا المسلمين أن
يشدوا أزر الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية - التي تسعى جاهدة لتحقيق هذه الفكرة -
ويقفوا بجانبها في عدد من كتبه مثل: «لقاءات ومحاورات» (ص 156، 157) و«هموم
المسلم المعاصر» (ص 50 - 55).

إن في الكويت أموالاً لو دفعت زكاتها لكان هناك «ألف مليون دولار»
«أربعون ألف مليون دولار» زكاتها: «ألف مليون» ربع العشر، ولو أن
المسلمين في أنحاء العالم دفع كل واحد منهم «دولار» لأنقذ ذلك بقية
المسلمين.

كان اليهود يقولون في الأربعينات: ادفع دولارًا تقتل عربيًا، ونحن نريد
أن نرفع شعارًا يقول: ادفع دولارًا تنقذ مسلمًا، ولكن من ينادي المسلمين؟
ليس عندنا خليفة يقول للناس: ابذلوا فيبذلون، وليس عندنا بابًا، وليس عندنا
شيخ إسلام، ليس عندنا من يقول للناس ذلك، إلا أهل العلم، وأهل الغيرة على
الإسلام، وهؤلاء يجب أن يجتمعوا ويجب أن يفعلوا، وفي استطاعتهم ذلك لو
أرادوا.

إن تشاكي الهموم لا ينفع، المسلمون يستشعرون ما هم فيه من مأسٍ ومن
آلام، وكلما جلس بعضهم إلى بعض تشاكوا الهم، ولكن إلى متى نتشاكي، ولا
نعمل شيئًا، ولا نقدم خطوة إلى الأمام؟ لا بد أن نعمل، لا بد أن نبدأ.

لقد ذكرت هذه الفكرة في الجلسة الختامية لمؤتمر المصرف الإسلامي
المنعقد في الكويت أول أمس، ف جاء إلى أحد الخيرين من أهل الكويت وقال:
سجل اسمي بمليون دولار لهذا المشروع⁽¹¹⁷⁾، وأعتقد أن من أمثاله يوجد
الكثيرون في هذا البلد من رجال ومن نساء.

إننا في حاجة إلى صندوق عالمي للإغاثة الإسلامية، إننا في حاجة إلى

(117) هو الأخ الفاضل: الشيخ عبد الله علي المطوع، التاجر المعروف، ورئيس جمعية
الإصلاح الاجتماعي بالكويت، وقد أوصى بعدم ذكر اسمه، ولكنه عرف بعد

مال نحافظ به على شخصية المسلمين، ونحن قادرون على هذا لو صدق منا العزم، فإذا صدق العزم وضح السبيل، { ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } [الرعد: 11]، ولا بد من أن نغير ما بأنفسنا بالعمل بدل القول، وبالإيجابية بدل السلبية.

يا أيها الإخوة المسلمون: آن لنا أن نخرج من إطار الهزائم والنكسات، وأن نرجع إلى أيام الانتصارات، آن لنا أن نعود أمة كما كنا، لو أننا وضعنا أيدينا بعضنا في يد بعض.

إننا قوة كبيرة ولكنها متفرقة { إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَتْهُمْ بَنِينَ مَرْصُوصًا } [الصف: 4]، المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه، ضعيف بمفرده قوي بجماعته.

تبوا هذه الدعوة، الدعوة إلى صندوق للأمة الإسلامية، ننقذ به ضحايا الفقر والفاقة والحرمان والضياع، نحافظ به على المسلمين ... نعلمهم ... نراهم، ندافع به عن ديننا أمام الهجمات الشرسة من الشرق والغرب، حتى لا نكون مخذولين إذا وقفنا أمام الله تعالى وقال لنا: ماذا فعلتم لدينكم؟ ماذا فعلتم لأمتكم؟ ماذا فعلتم لإخوانكم؟ فحضروا للسؤال جوابًا.

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يشرح صدورنا للعمل بدينه، وأن يهيئ من أمرنا رشدًا، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، الله اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، وأنفسنا على عمل الخير وخير العمل، اللهم لا تدع لنا ذنبًا إلا غفرته، ولا عيبًا إلا سترته، ولا مريضًا إلا

شفيتة، ولا حاجة هي لك رضا ولنا فيها صلاح إلا قضيتها ويسرتها يا رب العالمين، اللهم إنا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتنال من تحتنا، اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى، اللهم اعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، وصل على عبد ورسولك محمد وعلى آله وصحبه: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

توحيد العرب تحت راية الإسلام

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

استبشرنا واستبشر المسلمون في أنحاء الأرض، باجتماع قادة العرب في قمة تعمل على أن تصلح ذات بينهم، وأن توحد كلمتهم، وتجمع شاتهم، فليس هناك أنفع للمسلمين من الوحدة، وليس هناك أشد ضررًا عليهم من الفرقة.

والعرب هم ذؤابة المسلمين، وهم عصبية الإسلام، وأرضهم هي حرم الإسلام، ففيها المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها⁽¹¹⁸⁾، ولغتهم لغة العبادة الإسلامية، ولغة الثقافة الإسلامية، ولغة القرآن والسنة.

لهذا فإن اجتماع كلمة العرب، واقتراب بعضهم من بعضن يسر المسلمين في كل مكان، وقد جاء في الأثر: «إذا ذلك العرب ذل الإسلام»⁽¹¹⁹⁾ ولا يعز العرب إلا بالإسلام، ولن يذل العرب إلا بالبعد عن الإسلام.

(118) وفي الحديث الصحيح: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» رواه أحمد، والشيخان، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه أحمد، والشيخان، والترمذي، وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري، ورواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو، كما في «الجامع الصغير» للسيوطي.

(119) أورده الهيثمي في «المجمع» وقال: رواه أبو يعلى عن جابر وفيه: محمد بن الخطاب البصري، ضعفه الأزدي وغيره ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله رجال الصحيح (53/10)، وقواه المناوي في «فيض القدير» (348/1) حديث (617) ونقل عن العراقي أنه صححه، وخالفهم الألباني في «سلسلة الضعيفة» فحكم على الحديث بالوضع! انظر: حديث (163)، ويلاحظ أن الشيخ ذكره على أنه أثر.

اتحاد الكلمة واجتماع الصف أمر جاء به الإسلام، وأمر به، وورغب فيه، وجعله من القواعد الأساسية التي لا تقوم الأمة إلا عليها، فلإسلام مهمتان في هذا الوجود: بناء الفرد المسلم على أقوى الدعائم الإيمانية والفكرية والأخلاقية والسلوكية، وبناء الأمة المسلمة على كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة.

الأمة التي يريد الإسلام أمة واحدة، لا تعرف الفرقة، ولا تعرف العداوة ولا البغضاء بين بعضها وبعض، والعرب أولى الناس بأن يمثلوا الإسلام، ووحدتهم فيما بين بعضهم وبعض، هي السبيل إلى وحدة الأمة الإسلامية الكبرى، ووجود وحدة جزئية لا ينافي قيام وحدة كلية، إذا لم يكن هناك دعوة إلى الاغلاق أو انعزال.

لهذا يفرح المسلمون إذا اجتمع العرب، وصفوا ما بينهم من خلافات، ووقفوا صفًا واحدًا ليواجهوا المشكلات، ويواجهوا الكوارث التي يحاول أعداء الأمة أن يصبوها عليهم من كل جانب، عن يمين وعن شمال.

نحن في عصر لا يعرف إلا التكتل، فلو تكلمنا بمنطق العصر، أو بمنطق المصلحة، أو بمنطق الدين، فكل هذا يفرض على المسؤولين في هذه الأمة، وعلى كل ذي رأي ووعي، أن يسعى إلى الوحدة، وأن تبتعد هذه الأمة عن الفرقة.

منطق الدين يجعل هذه الأمة أمة واحدة، ووحدة الإسلام عقيدتها، ووحدة الإسلام شريعته، ووحدة الإسلام قبلتها، ووحدة الإسلام أسوتها، ووحدة الإسلام مفاهيمها، ووحدة الإسلام مشاعرها، ووحدة الإسلام تقاليدها، فهي أمة واحدة

في كل هذه النواحي.

أمة واحدة تجتمع على عقيدة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، تجتمع على شريعة الإسلام ... على أحكام واحدة في شؤون دينها ودنياها، تجتمع على قبلة واحدة، تصلي دوائر حول الكعبة، تصغر وتضيق، ثم تتسع حتى تشمل الكرة الأرضية جميعها.

قبلة واحدة، زعامة واحدة، وأسوة واحدة، هي زعامة رسول الله صلى الله عليه وسلم: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ
الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

مفاهيم واحدة، أفكار واحدة، المفاهيم الأساسية عند المسلمين مستقاة من القرآن والسنة، فقد وحد الإسلام طريقة تفكيرهم ومنهجهم، كيف يفكرون، وكيف يرفضون الظن، واتباع الهدى، والتقليد الأعمى، وكيف لا يقومون إلا على اليقين، ولا يقبلون شيئاً إلا ببرهان {... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [النمل: 64]. فهذه هي العقلية الإسلامية التي كونها القرآن عند كل مسلم.

حتى عواطفهم: الحب والبغض، فهم يحبون في الله، ويبغضون في الله، يحبون الحق ويكرهون الباطل، يحبون الخير ويكرهون الشر، يحبون الصالح ويكرهون الفاسق، يحبون الله ويكرهون الطاغوت.

التقاليد، حتى في الكل والشرب، واللبس، والركوب، والمشى، والجلوس، والنوم واليقظة، والسفر والحضر، تجد المسلمين متحدين، أو متقاربين جداً في تقاليدهم، فالمسلم إذا أكل يأكل بيده اليمنى، ويبدأ بسم الله، وإذا فرغ قال: الحمد لله، وإذا لقي أخاه قال: السلام عليكم، فيرد: وعليكم السلام، وإذا عطس

قال: الحمد لله، فقال له أخوه: يرحمك الله (120)، تقاليد واحدة تجعل المسلمين متفاهمين في كل شيء.

المسلمون أمة واحدة في حياتهم كلها، ولكن الخطر يأتي من الدسائس التي تريد أن تفرق جماعتهم، وقد بدأ هذا منذ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، حينما جمع الله الأوس والخزرج على الإسلام، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألف بين قلوبهم، وأزال منها البغضاء والشحناء التي كانت بينهم في الجاهلية، مر بهم أحد اليهود الخبيث اسمهم: «شاس بن قيس» فغاضه أن يرى هؤلاء الذين طالما تحاربوا، وطالما سفكت منهم الدماء، وطالما قامت بينهم المعارك، أن يراهم مجتمعين على عقيدة واحدة، فجلس بينهم بخبث ودهاء، يذكرهم بأيام الجاهلية، وينشد بعض الأشعار التي قالها الأوس يوم انتصارهم، فيرد عليهم الخزرج: بأننا انتصرنا يوم كذا، وقال شاعرنا كذا، وما زال يذكي هذه النار، وما زال يطعمها بالوقود حتى تأججت، ونادى الرجال من الأوس: يا للسلاح، والرجال من الخزرج: يا للسلاح، يا للأوس، يا للخزرج، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فأقبل عليهم يقول لهم: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟!» وتلا عليهم الآيات، فندموا واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح (121).

(120) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «حق المسلم على المسلم ست، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: إذا لقيته فسلم عليه، وإذا دعاك فأجبه، وإذا استنصحك فانصح له، وإذا عطس فحمد الله فشمته، وإذا مرض فعده، وإذا مات فاتبعه» رواه مسلم، ورواه الترمذي، والنسائي بنحوه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (716/2) الحديث (1617).

(121) ذكره ابن كثير في «تفسيره» عن محمد بن إسحاق (389/1) ط. الحلبي.

التداعي بالقبيلة ... الأوس ... الخزرج، انتهى هذا، اسمكم الآن: الأنصار، لا أوسية، ولا خزرجية الآن، بل هناك الإسلام الذي جمع بينكم، وذكرهم الله وتلا عليهم القرآن، فبكوا وذرقت أعينهم الدموع، وعانق الرجال من هؤلاء الرجال من هؤلاء، وعرفوا أنها نزع شيطان، كان الشيطان هو ذلك اليهودي الماكر.

وأنزل الله آيات تتلى من سورة آل عمران: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ} [آل عمران: 100] - أي بعد وحدتكم متفرقين، سمي الله الوحدة إيمانًا والتفرق كفرًا - {وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ}، {وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [آل عمران: 101]، ثم دلهم على طريق الوحدة، وهي تقوى الله عز وجل، والاعتصام بحبله ... بكتابه ... بدينه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

لا بد من أن يكون هناك شيء يجتمع عليه الناس، هذا الشيء هو حبل الله المتين، هو الذكر الحكيم، هو الصراط المستقيم، هو القرآن الكريم، هو الذي يجمع المتفرقين، والله تعالى يقول: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُّسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام: 153].

{وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} ولكن اتبعوا هذا الصراط المستقيم، فهناك سبل على رأس كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، فإذا اتبعتم هذه المناهج وهذه السبل، وهذه الدعوات المستوردة من هنا وهناك، ستتفرق بكم الطرق والمناهج، هذا إلى اليمين وهذا إلى اليسار، وهذا يوالي الشرق وهذا يوالي الغرب.

ولابد من حبل تعصمون به: {وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا
وَأذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا
وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ} [آل عمران: 103].

ثم أرشدهم إلى أمر من شأنه أن يجمع كلمتهم، هو أن يكون لهم رسالة، أن يكونوا أصحاب دعوة، أن يكون هناك مبرر لوجودهم بين الناس، فما هي مهمتهم؟

إنها الدعوة إلى الله ... إلى الخير، إنها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إنها رسالة الهداية للعالم، إنهم إذا انشغلوا بذلك اجتمعت كلمتهم، ولذلك قال: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [آل عمران: 104]، وقال بعد آيات: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...} [آل عمران: 110].

ثم حذرهم ... حذرهم من الفرقة والاختلاف، وأن يقع بهم ما وقع بالذين من قبلهم من أهل الكتاب، فقال: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ 105 يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} [آل عمران: 105، 106].

وضح الله لهم الطريق، ولكنهم تركوا الطريق الواضح، وذهبوا إلى بينات، وإلى طرق ملتوية هنا وهناك، فتفرقت كلمتهم، لا تكونوا كهؤلاء: «لا

تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»⁽¹²²⁾.

هذا ما حذر منه القرآن: الخلاف والفرقة، وخصوصاً في أوقات الشدائد ... في أوقات المعارك، فالله تعالى يقول: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُنِينَ مَرْصُوصًا} [الصف: 4]، ويقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ...} من أعدائكم في معركة {فَأَتَابْتُوا وَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} 45 وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَعَوْا فَنفَشَلُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [الأنفال: 45، 46].

ونحن الآن في معركة مع عدو يريد أن يمزق صفوفنا، وأن يضرب بعضنا ببعض، وأن ينفرد بكل منا على حدة، هذا العدو هو اليهودي الصهيوني الصليبي الشيوعي، أعداء من كل ناحية، يفترقون فيما بينهم ويجتمعون علينا: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...} [الأنفال: 73]. فلا بد من أن نعرف هذا، وأن نوحّد صفوفنا.

إذا لم يجتمع الناس عند المعركة، فمتى يجتمعون؟! وإذا لم يتحدوا عند الشدة، فمتى يتحدون!؟

المصائب يجمعن المصابين، والشدائد تجمع المتفرقين، والمعارك تؤلف بين المتخاصمين، فإن لنا أن نفهم هذا.

منطق الدين يفرض علينا نحن العرب والمسلمين أن نتحد ... أن نجتمع.
منطق المصلحة، منط العقل، يقول: إننا لا يمكن أن ننتصر، ولا يمكن أن

(122) رواه البخاري عن ابن مسعود، كما في «صحيح الجامع الصغير وزيادته» (7255).

نحقق ذاتنا، ونثبت وجودنا، وننبوأ مكاننا تحت الشمس إلا بأن نتحد.

لا ننتصر في الحرب، ولا نتقدم في السلم إلا بالاتحاد، لا نستطيع أن ننتصر على عدونا ونحن متفرقون، ولا يمكن أن نبني تكنولوجيا متطورة، أو تقدمًا علميًا معاصرًا، إلا بالاتحاد... بالاجتماع... بالتكتل، فإن الشعوب الصغيرة لا مكان لها.

إذا تكلمنا بمنطق العقل والمصلحة، فالعقل والمصلحة يفرضان علينا أن نتحد، وإذا تكلمنا بمنطق العصر الذي نعيش فيه، فهو عصر لا يتكلم إلا بلغة التكتل.

الآن بعض الدول المتقدمة أصبحت ترى أنه لا مكان لها وحدها، الدول الأوروبية الصناعية الكبيرة، اتحدت في سوق أوروبية مشتركة، اتحاد اقتصادي أو شك أن يكون اتحادًا ساسيًا.

هؤلاء الذين طالما تحاربوا فيما بينهم من قبل، ولكنهم وجدوا المصلحة، ووجدوا منطق العصر يحتم عليهم أن يتحدوا اقتصاديًا، ويتحدوا سياسيًا. ما بالننا نحن نريد كل منا العيش في حدوده الإقليمية الضيقة، كل منا يريد كما قال الشاعر قديمًا:

وتفرقوا شيعًا فكل قبيلة فيها أمير المؤمنين ومنبر
الذي ضيع المسلمين في الأندلس، وأخرجهم من تلك البلاد - بعد أن أقاموا فيها حضارة عظيمة، وظلوا فيها ثمانية قرون، زرعوا فيها الخير والعلم والإيمان والأخلاق - هو تفرقهم بسبب ملوك الطوائف، أن كل طائفة أصبح لها ملك، وأصبح بعض هؤلاء يحارب بعضًا، بل بعض هؤلاء كان يستعين

على خصمه بالنصارى ... بالصليبيين المتربصين، وكانوا يستجيبون لهم، إنها فرصة أن يحالفوا بعضهم على بعض، ويضربوا بعضهم ببعض، ثم ينقضوا عليهم جميعاً، وقد فعلوا.

وبعد أن فرحوا بهذه الألقاب التي جعلت منهم شيئاً مذكوراً، كما قال شاعرهم في ذلك الوقت:

مما يزهديني في أرض ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهجر يحكي انتقالاً صورة
ضاعت الأندلس بسبب التفرق.

جربنا في تاريخنا الكثير، وجربنا في حياتنا المعاصرة الكثير، لا بد أن نتكلم، رأينا العالم يتقارب، ورأينا المتباعدين يقتربون، والمختلفين يتفقون، المختلفين دينياً، والمختلفين فكرياً، وأيديولوجياً، والمختلفين سياسياً.

النصارى اقترب بعضهم من بعض رغم اختلاف مذاهبهم، فكل مذهب كأنه دين مستقل.

اليهود والنصارى حاولوا أن يتقاربوا، وأصدر «الفاتيكان» منذ سنين قليلة، وثيقة تبرئة اليهود من دم المسيح، بعد أن ظلوا عشرين قرناً يحملونهم وزر ما اعتقدوا أنه صلب المسيح.

العمالقة ممن يعتنقون الرأسمالية والشيوعية تقاربوا، تقاربت أمريكا مع روسيا، وتقارب الفريقان مع الصين.

العالم يتقارب، ونحن العرب والمسلمين - وحدنا - الذين نتباعد! هل هذا منطوق؟ هل هذا عقل؟ هل هذا يجيزه الدين؟ أو تجيزه المصلحة؟ أو يجيزه أي

منطق كان؟

إن كل منطق يفرض على هذه الأمة أن تتوحد، أن تنسى ما بينها.

إن الذي يجري بين المسلمين شيء عجيب، إنها الدسائس والمؤامرات، إنه الكيد ... المكر الكبير، المكر الذي يمزق هذه الأمة من داخلها.

في كل بلد توجد خلافات، إذا كان هناك مسلمون وغير مسلمين، وجدت مسألة الأقليات الدينية، وإن كان هناك مسلمون من عروق مختلفة ظهرت قضية الأقليات العرقية، وإذا كان هناك مسلمون من مذهب ومسلمون من مذهب آخر وجدت الخلافات المذهبية، إذا كانت هناك خلافات سياسية وأيديولوجية وجد الخلاف أو الصراع السياسي والأيديولوجي، وغذى هذا وذلك، لا بد من أن يوجد نوع من التفريق والتمزيق بين هذه الأمة!

ونحن للأسف ننصاع ونستجيب لهؤلاء، ولا ندري ما يكاد لنا، وما يدبر لنا بليل.

إن على هذه الأمة أن تتفق، نحن العرب حوالي مائتي مليون، والمسلمون حوالي ألف مليون، ونحن نرى تكتلات في العالم ... الصين ألف ومائة مليون، الكتل الكبيرة موجودة، فلماذا يراد بنا نحن أن نظل ممزقين؟

إن علينا نحن المسلمين عامة، ونحن العرب خاصة، أن نستجيب لأمر الله، وأن نستجيب لداعي الحق، وداعي الخير ونتحد.

العرب يجمعهم الدين، وتجمعهم اللغة، ويجمعهم التاريخ، ويجمعهم المصير المشترك، وتجمعهم الآمال والآلام، يجمعهم هذا كله، ولكن أهم ما يجمعهم ... الشيء الذي يجمع الجميع: هو أن يتذكروا الله عرع، أن يتقوا الله

حق ثقافته، ألا يموتوا إلا وهم مسلمون، ولن يموتوا على ذلك إلا إذا عاشوا مسلمين، أن يعيشوا بالإسلام وللإسلام وليموتوا عليه، فالإنسان إنما يموت على ما عاش عليه.

أما الذين أبعدوا الإسلام عن الساحة، وقالوا: أتركوا الإسلام حتى يتحد الجميع، لنتجه اتجاهًا علمانيًا لا دينيًا، حتى لا توجد طوائف مختلفة، فهؤلاء والله ضد كل منطق.

العلمانية كيف يمكن أن تجمع هذه الأمة؟ وقد رأينا بلادًا علمانية كالهند، ومع هذا تنقاتل الطوائف بعضها مع بعض، لبنان بلد عريق في العلمانية، ومع هذا رأينا الاقتتال الذي لم ير له مثيل في التاريخ، وآخر ما رأيناه من ذلك: قتل ذلك العالم الفاضل الشيخ «حسن خالد» مفتي جمهورية لبنان.

العلمانية لا تحل العقدة ولا المشكلة، بل الذي يحل عقدة هذه الأمة: أن تعرف الله حق معرفته، وتنقي الله حق ثقافته، وترجع إلى الإسلام.

ما عرفنا في التاريخ أن هذه الأمة انتصرت إلا بالعودة إلى الإسلام، الإسلام الصحيح، الإسلام الأول، الإسلام قبل أن تدخله الشوائب والبدع والانحرافات.

الإسلام يجمع ولا يفرق، ويبني ولا يهدم، ويقوي ولا يضعف، هذا هو الإسلام الذي ندعو إليه: إسلام القرآن والسنة، إسلام الصحابة والتابعين لهم بإحسان، الإسلام الذي انتصرت به هذه الأمة، وفتحت العالم، وورثت ممالك كسرى وقیصر، وأقامت دولة العدل والإحسان، وحضارة العلم والإيمان، هذا الإسلام وحده هو الذي يجمعنا ولا يفرقنا.

يجب أن يعود الجميع إلى هذا الدين، المسلم وغير المسلم، ما يضر غير المسلم أن يتقي المسلم ربه، ويقوم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحل الحلال ويحرم الحرام.

هل يضر غير المسلم أن يلتزم المسلم بدينه؟ لا والله، بل هذا ينفعه ولا يضره، بل هذا هو الضمان له، لأن الإسلام يبقى على عقيدته وعلى عبادته وعلى مشاعره، ولا يرضى بالاعتداء عليه في دم أو عرض أو مال.

هذا هو الإسلام، ونحن نرحب بأن يكون هؤلاء متمسكين بدينهم، بل أن يكونوا ملاحدة، أو منحلين يعيشون في الأرض فساداً.

نحن نحب الناس أن يتدينوا بدين كتابي سماوي الأصل، بدل من أن يعيشوا سائبين لا دين لهم.

إن الإسلام هو الضمان الوحيد لوحدة هذه الأمة، هو الضمان الذي يبقى عليها فلا تفترق ولا تنتشت ولا تتشردم، ولا يعادي بعضها بعضاً، ويقتل بعضها بعضاً {إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء: 92].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى ونفوسها على الحب، وعزائمها على عمل الخير وخير العمل، اللهم آمين، أقول قولي هذا واستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

لا زال إخواننا في الأرض المحتلة يقاومون ويقاتلون ذلك العدو الماكر الغادر الشرس، الذي لا يريد أن يعترف بالحق لأهله، وهيهات أن يعترف هؤلاء بالحق، إلا إذا أجبرناهم بالقوة.

لا بد من الجهاد، الجهاد هو الطريق الوحيد لإجبار هؤلاء على أن يعترفوا لأصحاب الحق بحقهم، والذين يريدون أن تسلم الانتفاضة وأن تستسلم، وأن تلقي السلاح، هؤلاء واهمون ومخدوعون.

لا بد أن تستمر الانتفاضة، وأن تدعم، أن تظل ثورة المساجد حتى يعترف هؤلاء مرغمين، وإن شاء الله النصر للمؤمنين.

التضحيات كبيرة، والدماء تسيل، والشهداء يتساقطون، والمعتقلون يتزايدون، ولكن الله من ورائهم محيط: {... وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ} [الأنفال: 30].

يا أيها الإخوة هذه ملاحظة، وملاحظة ثانية أحب أن أذكر بها: لا زلت أذكر الإخوة بمعركة أخرى نخوضها ضد القوى التي تريد أن تقتلع المسلمين، وأن تهدم وجودهم العقائدي والمعنوي، وهي التي أقمنا من أجلها «الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية».

نحاول أن نجمع مبلغًا كبيرًا من المال، من كل من تجود نفسه بالخير، حتى يمكننا أن نقاوم هذه القوى الجبارة المدعومة، التي تجمع آلاف الملايين.

أقمنا الهيئة لما جمع «ألف مليون دولار» لتنصير المسلمين، ولكننا علمنا أن هذا ليس نهاية المطاف، إنهم يجمعون آلاف الملايين باستمرار لينشروا دينهم، هؤلاء ينشرون الباطل، أفلسنا أولى بنشر الحق؟ أفلسنا أولى على

الأقل بالدفاع عن الحق؟ بحماية وجودنا، بالحفاظ على هويتنا وشخصيتنا؟

لهذا كان لا بد لنا من أن نبذل، الحساب مفتوح للصدقة الجارية، حساب الألف دولار، نريد ألف شخص، كل واحد منهم يدفع ألف دولار، فنكون مليوناً، ونحن نريد «ألف مليون»، والقليل على القليل كثير.

وهناك بعض الإخوة من الموظفين الذين طلبوا الاستقطاع من راتبهم كل شهر، لتستمر له هذه الصدقة، وهذا أيضاً ميسور لمن أرادته إن شاء الله.

إن باب الجنة مفتوح، وإن الباب إلى رضوان الله تعالى مفتوح على مصراعيه لمن أراد الخير {... وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ} [المطففين: 26].

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنا للرد عن أنفسنا، والدفاع عن وجودنا، والحفاظ على ديننا.

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، اللهم أصلح ذات بيننا، اللهم هيئ لنا من أمرنا رشداً، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقل من ذلك، اللهم ألف بين قلوب العرب والمسلمين، اللهم اجمع كلمتهم على الإسلام والإيمان، اللهم اجمع كلمتهم على القرآن والسنة، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا ولا إلى أحد من خلقك فنهلك ونضيع، اللهم كن لنا ولا تكن علينا، وأعنا ولا تعن علينا، وانصرنا ولا تنصر علينا، وامكر لنا ولا تمكر علينا: {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، اللهم آمين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كلما أهلّ علينا شهر ربيع الأول تذكّر الناس مولد أعظم شخصية في الوجود، وهي شخصية محمد صلى الله عليه وسلم⁽¹²³⁾، الذي اصطفاه الله تعالى من خلقه، وصنعه على عينه، وأرسله رحمة للعالمين.

وللناس في هذا الشهر أحوال في الاحتفاء أو الاحتفال بمولد محمد صلى الله عليه وسلم، واحتفاؤنا واحتفالنا واهتمامنا بمولده صلى الله عليه وسلم ليس كما يصنع الجهال والغافلون من الناس.

ليس بأن نقيم الزينات، أو نرفع الرايات، أو نوزع الحلوى، إنما احتفالنا به أن نتذكر هذا الرسول العظيم، أن نعيش في ذكراه، أي نعيش في ذكرى سيرته، أو ذكرى رسالته صلى الله عليه وسلم.

إن هذا الرسول العظيم قد ترك لنا سيرة طاهرة عاطرة، وترك لنا رسالة عامة خالدة، صالحة مصلحة لكل زمان ومكان، والاحتفاء والاحتفال به، أن نتذكر هذه السيرة وتلك الرسالة، رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته،

(123) المشهور أن ولادته صلى الله عليه وسلم كانت يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (53 ق. هـ) (570م) عام هجوم الأحباش على مكة، ويقول الشيخ محمد الغزالي حفظه: وتحدد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال، فالأحفال التي تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوي لا صلة له بالشريعة. «فقه السيرة» للغزالي (ص 58) ط. دار القلم.

الأمر خاصة، ككتب ابن إسحاق⁽¹²⁴⁾، وابن هشام، وابن كثير⁽¹²⁵⁾، وغيرهم، محفوظة في كتب الشمائل⁽¹²⁶⁾، التي عنيت بأخلاقه، وشمائله، وهدية صلى الله عليه وسلم، محفوظة في كتب الدلائل⁽¹²⁷⁾... ودلائل النبوة والآيات والمعجزات الحسية والمعنوية المتكاثرة والوفيرة، التي أظهرها الله على يديه صلى الله عليه وسلم، محفوظة في كتب التاريخ العام، التي خصصت جزءاً كبيراً لحياته صلى الله عليه وسلم، كل هذا موجود عندنا نحن المسلمين.

والسيرة محفوظة من ألفها إلى يائها، من المولد إلى الوفاة، هذا مذكور في كتب وفي سجلات السيرة عندنا.

في السيرة: كيف ولد؟ ومتى ولد؟ ومن أرضعه؟ ومن احتضنه؟ وكيف نشأ؟ وماذا عمل في صباه؟ وماذا عمل في شبابه؟ وماذا صنع في كهولته قبل البعثة وبعد البعثة، قبل الهجرة وبعد الهجرة؟ كل هذا تحكيه لنا سيرة محمد صلى الله عليه وسلم.

حلقات متصلة مروية بأسانيدھا الصحاح، لا يوجد هذا لأي نبي من

(124) توفي سنة (151هـ)، وبعد كتابه: «السيرة النبوية» أقدم كتاب في السيرة، وقد هذبه من بعده ابن هشام (ت 213 هـ)، وهو الذي انتهت إليه هذه السيرة، وغلب اسمه عليها، فعرفت به، وشاع ذكره بها.

(125) وهي مأخوذة من كتابه الكبير في التاريخ «البداية والنهاية» وقد نشرت مستقلة بحقيق د/مصطفى عبد الواحد.

(126) ومن أجمعها كتاب «شمائل الرسول» لابن كثير (ت 774 هـ) وقد حققه د/مصطفى عبد الواحد.

(127) ككتاب «دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة» لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت 458هـ).

الأنبياء، ولا لأي عظيم من العظماء، لأن الأنبياء الذين بعثهم الله بعثهم لمرحل موقوتة، لزمان محدود معلوم، ولأقاليم معينة، وأقوام مخصوصين.

أما محمد صلى الله عليه وسلم فكانت رسالته عامة، خالدة خاتمة، «امتدت طولاً حتى شملت آباد الزمن، وامتدت عرضاً حتى انتظمت آفاق الأمم، وامتدت عمقاً حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة»⁽¹²⁸⁾.

لهذا تكفل الله بحفظ سيرته وسنته صلى الله عليه وسلم في مجموعهما، باعتبارهما البيان النظري، والشرح العملي للكتاب الكريم، وحفظ المبيّن يقتضي حفظ البيان، كما قال الإمام الشاطبي رضي الله عنه⁽¹²⁹⁾.

الله تكفل بحفظ كتابه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: 9]، والسنة والسيرة هما الشرح النظري، والتطبيق العملي لكتاب الله، لهذا حفظهما الله سبحانه وتعالى.

عندنا نحن المسلمين سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم، تحكي لنا كل أحواله: أقواله، وأعماله، وتقريراته، وأوصافه الخلقية، وصفاته الخلقية، وسيرته كلها.

ليس هناك دائرة حمراء في هذه السيرة، يقال هذه لا تروى، أو هذا شيء خاص لا يذكر للناس، لا، حياته كلها صلى الله عليه وسلم ملك للناس، أكله إذا أكل، شربه إذا شرب، لبسه إذا لبس، ركوبه الدابة إذا ركب، نومه إذا نام،

(128) هذا الوصف للرسالة من مقال للإمام حسن البنا، ذكره الأستاذ القرضاوي في كتابه «الخصائص العامة للإسلام» خصيصة الشمول.

(129) راجع: «الدليل الثاني» «السنة» في الجزء الرابع من كتاب «الموافقات في أصول الشريعة» لأبي إسحاق الشاطبي (ت 790 هـ)، وهو كتاب لا ند له في بابيه.

استيقاظه إذا استيقظ، خروجه من بيته، كل هذا، حتى صلته بأهله، حتى الصلة الجنسية تروى للناس، لأن فيها تشريعاً، ولأن فيها اقتداء.

روت لنا السيرة كل حياته صلى الله عليه وسلم، في علاقته بربه، في علاقته بنفسه، في علاقته بزوجاته، في علاقته بأولاده، في علاقته بأحفاده، في علاقته بالناس، في علاقته بالأعداء، في سلمه إذا سالم، في حربه إذا حارب، في صلحه إذا صالح، كل هذا مروى في سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى حياته الخاصة، تروىها تسع نسوة⁽¹³⁰⁾، لو نسيت واحدة ذكرتها الأخرى، ليكون كل شيء أماناً واضحاً جلياً {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} [الأحزاب: 21].

ما أحوجنا نحن المسلمين إلى أن نتدبر سيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم، أن نعيش مع هذه السيرة، أن نستجلي جوانب العظمة المحمدية، العظمة التي

(130) وهن اللاتي توفى عنهن صلى الله عليه وسلم: عائشة بنت أبي بكر، وحفصة بنت عمر، وأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان، وهند أم سلمة بنت أبي أمية، وسودة بنت زمعة، وزينب بنت جحش، وميمونة بنت الحارث، وجويرية بنت الحارث، وصفية بنت حيي بن أخطب، وأما أزواجه صلى الله عليه وسلم اللاتي توزجهن، ودخل بهن فهن إحدى عشرة امرأة، يضاف إلى التسع الأنثى: خديجة بنت خويلد، وهي أم المؤمنين الأولى أو الكبرى، وهي أم بناته صلى الله عليه وسلم، وزينب بنت خزيمة، وهاتان توفيتا قبله عليه الصلاة والسلام، أما عن سبب تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، فأحيل القارئ الكريم إلى ما كتبه الأستاذ القرضاوي في «فتاوى معاصرة» (546/1 - 550)، وللدكتور عبد الله ناصح علوان رحمه الله رسالة نافلة بعنوان «تعدد الزوجات في الإسلام والحكمة من تعدد أزواج النبي صلى الله عليه وسلم»، كما كتب الشيخ محمد علي الصابوني رسالة بعنوان «شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم».

أشار إليها رب العزة في كتابه.

أشار إلى جانب من جوانبها، وهو الجانب الخلقى حينما قال: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم: 4]، الله زكى نبيه هذه التزكية، وليس بعدها تزكية.

ما أوجنا إلى أن ندرس هذه السيرة دراسة المتأمل البصير، لنعرف كيف نقنّدي برسول الله صلى الله عليه وسلم، وكيف نأخذ الأسوة، ونقتبس النور من هذه السيرة الجامعة لحياتنا ... لأنفسنا ... لبيوتنا وأسرنا ... لأبنائنا وبناتنا ... لمجتمعاتنا ... لحكامنا ومحكومينا ... نأخذ من هذه السيرة هدياً، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

إننا كثيراً ما نقف عند الأشياء التي لا تسمن ولا تغني من جوع، طالما كنت أسمع وأنا صغير قصة المولد، يقرأونها في القرى والأرياف، ومعظم هذه القصة تدور على أشياء وخوارق ليس فيها هذا الأمر الذي نريده: جانب القدوة، جانب التأسي، جانب العظمة في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم وفي رسالته.

طالما رأينا المؤذنين يؤذنون على المآذن والمنابر، يقولون: الصلاة والسلام عليك يا أول خلق الله⁽¹³¹⁾!! وما ثبت أنه أول خلق الله، الصلاة والسلام عليك يا مليح الوجه يا رسول الله!! أفي ملاحه الوجه هذه مجال للقدوة؟!!

المسلمون - أو أقول: الكثيرون منهم - أخطأوا فهم شخصية رسول الله

(131) وهو كلام لم يصح به نقل، ولا يقره عقل، هذا ما أثبتته الأستاذ القرضاوي في فتوى له نشرت ضمن «فتاوى معاصرة» الجزء الأول (ص 178، 179).

صلى الله عليه وسلم، هذه الشخصية التي أنزل عليها الرسالة الخالدة العامة، اختاره الله عسع ليختتم النبوات والرسالات، ويعلن أنه خاتم النبيين، وأنه لا نبي بعده.

هذه الشخصية في حاجة إلى أن ندرسها، إلى أن نعرفها، وما أكثر الجوانب التي يمكن أن نقف عندها لنعرف عظمة الشخصية المحمدية.

خذوا الجانب الرباني من سيرته وحياته صلى الله عليه وسلم، جانب التعبد لله سبحانه وتعالى، إن من يقرأ في هذا الجانب، جانب العبادة ... الصلاة ... الصيام ... الذكر ... التسبيح ... التهليل ... التكبير ... الدعاء ... الاستغفار، يجد قلباً نابضاً بحب الله سبحانه وتعالى، يجد لساناً رطباً بذكر الله تعالى، لا ينساه على كل حال، يذكر الله في كل أحواله، وعلى كل أحيانه.

انظروا إلى الرسول العابد الذي أمره الله تعالى بقوله: {وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} [الحجر: 99]، فكان يعبده في ليله ونهاره، وصباحه ومساءه، في خلوته وجلوته، لا يفتر عن عبادة ربه.

كان يعلم أن الإنسان ما خلق إلا لعبادة الله، وأن عبادة الله هي المهمة الأولى لهذا المخلوق، الذي خلقه الله بيده، وسواه ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وجعله خليفة في الأرض.

كان يعلم أن مهمته أن يعبد الله عبادة مبنية على معرفة به {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ 56 مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ 57 إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ} [الذاريات: 56 - 58]. لهذا كان صلى الله عليه وسلم أكثر الناس إقبالاً على الله.

شرع الله الصلوات الخمس، لتربط المسلم بربه كل يوم خمس مرات، لا يوجد دين يربط الإنسان بمولاه هذا الربط الوثيق، ليكون دائماً على موعد مع ربه، كلما شغلته الشواغل، كلما غرق في لجة الحياة، كلما أنسته مطالب الدنيا، كلما غرق مع التجارات، مع الدينار والدرهم، لكنه حين يسمع المنادي ينادي: الله أكبر الله أكبر ... حي على الصلاة ... حي على الفلاح، يترك البيع والشراء، ويترك دنياه ودنيا الناس، ويهرع إلى بيت الله، هكذا علم محمد صلى الله عليه وسلم الناس.

علمهم أن الحياة إنما تكون لله وبالله، وأن الإنسان يجب أن يتحرر لمولاه، هكذا علمه ربه: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهٗ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم المسلم الأول في كل أمر، المسلم الأول في عبادته إذا تعبد، في ذكره إذا ذكر، في دعائه إذا دعا، في خلقه إذا تخلق، في جهاده إذا جاهد.

كان المسلم الأول في عبادته لله، ولم تكن عبادته مجرد تسديد خانة، أو امتثالاً لأمر، بل كانت عبادته عبادة الحب والشوق إلى الله ع.

كان إذا قرب وقت الصلاة يتشوق إليها ويحن لها، ينتظر وقتها بفارغ الصبر، حتى إذا حان الوقت قال لمؤذنه: «قم يا بلال فأرحنا بالصلاة»⁽¹³²⁾، وما أعظم الفرق بين من يقول: أرحنا بها، ومن يقول: أرحنا منها.

(132) رواه أبو داود في كتاب الأدب من «سننه»، انظر: الحديثين (4985، 4986) وأحمد في «مسنده» (364/5، 371).

إنها صلاة الحب، لا مجرد صلاة الأمر، إنه كان يجد فيها نفسه، يجد فيها غذاء قلبه، وانشرح صدره، وحياء روحه، وقررة عينه، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «... وجعلت قررة عيني في الصلاة»⁽¹³³⁾.

كان يصلي الصلوات الخمس في ميقاتها... في جماعتها، بخشوعها، وركوعها، وسجودها، وإسباغ وضوئها، وما كان يكتفي بها، بل كان له صلوات.

كان يصلي من الليل، ما كانت متاعبه لتشغله عن وقوفه بين يدي ربه، إذا جن الليل، وأرعى ستوره، وغارت النجوم، وهدأت العيون، وأوى كل ذي فراش إلى فراشه، كان يقوم من الليل، ويصف قدميه مصلياً لله عز وجل، ويناجيه فيقول: «اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض، ولك الحمد أنت قيام السموات والأرض، ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ومن فيهن، أنت الحق، وقولك الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك الحق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وأخرت، وما أسررت وأعلنت، أنت إلهي لا إله إلا أنت»⁽¹³⁴⁾.

هذا هو النبي العظيم، ما شغلته متاعب الحياة، ومتاعب الدعوة، وما شغلته

(133) جزء من حديث: «حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قررة عيني في الصلاة». رواه النسائي في «عشرة النساء» (61/7)، وأحمد في «المسند» (128/3)، 199، 285، وإسناده حسن، ورواه الحاكم من طريق آخر وصححه، ووافقه الذهبي (160/2).

(134) متفق عليه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما «شرح السنة» للبخاري بتحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرنؤوط (68/4).

حياته الخاصة، تسع نسوة لهن مطالب، ولهن حاجات، ولهن تطلعات، ومسلمون لهم حاجات، ولهم مطالب، وعليه توجيههم وهدايتهم، وجبهات تقف له بالمرصاد، تريد أن تقتلع جذوره، وأن تهدم دعوته من أساسها: الجبهة الوثنية، والجبهة اليهودية، والجبهة النصرانية البيزنطية، والجبهة المجوسية المتربصة، والطابور الخامس من المنافقين الذين يعلنون الإسلام ويبتغون الكفر {يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [البقرة: 9].

متاعب الحياة، ومتاعب الدعوة وهمومها، ما كانت لتشغله أن يقف بالليل مع ربه.

يقف ويطيل الوقوف حتى تتورم قدماه ... حتى تتقطر وتتشقق من طول القيام، حكى عنه حذيفة رضي الله عنه قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: سمع الله لمن حمده، ربنا لك الحمد، ثم قام طويلاً قريباً مما ركع، ثم سجد فقال: سبحان ربي الأعلى، فكان سجوده قريباً من قيامه» (135).

إنها صلاة يشعر فيها بحلاوة العبادة، يجد حلاوتها في قلبه، فلا يمل ولا

(135) رواه مسلم «رياض الصالحين» للنووي: باب فضل قيام الليل.

يضجر ولا يسأم، وأصحابه الذين كانوا أصغر منه سنًا، وأقوى منه شبابًا، ما كانوا يصبرون على هذه الصلاة الطويلة، حتى قال ابن مسعود، وهو من الصحابة: صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ليلة، فلم يزل قائمًا حتى هممت بأمر سوء، قيل: ما هممت؟، قال: هممت أن أجلس وأدعه⁽¹³⁶⁾، لم يصبر على طول القيام.

«كان النبي صلى الله عليه وسلم يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه - من طول القيام - فقالت له زوجته عائشة - مشفقة عليه - : لم تصنع هذا وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»⁽¹³⁷⁾؟ أي أن هذه المغفرة تجعلني أزداد في الإقبال على الله شكرًا لنعمته، ووفاء بحقه، وقيامًا بحبه، هكذا كان صلى الله عليه وسلم.

كان متعبًا لله عز وجل عبادة الخشية، وعبادة المحبة، كان يصلي ويطيل السجود، ويطيل الركوع، ويطيل القيام، وله في سجوده وركوعه وما بين التكبيرات، أدعية وأذكار تملأ القلب بالخشية والخشوع، وتهز كيان النفس هزًا، ما أوجنا أن نقرأها ونحفظها وندعو له.

كان إذا ركع يقول: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»⁽¹³⁸⁾، ويقول: «اللهم لك ركعت، وبك آمنت، ولك أسلمت، خشع لك سمعي وبصري

(136) متفق عليه «رياض الصالحين» للنووي: باب فضل قيام الليل.

(137) متفق عليه «رياض الصالحين» للنووي: باب فضل قيام الليل.

(138) رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها، وأبو داود، و النسائي «الأذكار» للنووي بتحقيق محي الدين مستو، الحديث (108).

ومخي وعظمي وعصبي»⁽¹³⁹⁾.

وإذا قام من ركوعه يقول: «اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»⁽¹⁴⁰⁾.

وكان إذا سجد قال: «اللهم لك سجدت، وبك آمنت، ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره، وشق سمعه وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»⁽¹⁴¹⁾.

وفيما بين السجدين يقول: «رب اغفر لي وارحمني، واجبرني وارفعني، وارزقني واهدني»⁽¹⁴²⁾.

هكذا كانت صلواته صلى الله عليه وسلم، صلاة الخشية ... صلاة الحب.

أما صيامه، فكان يصوم رمضان، هذا الشهر الكريم الذي كان يعتبره موسمًا لطاعة الله والإقبال عليه، فإذا جاء رمضان كان مع جبريل يدارسه القرآن، وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة.

(139) رواه مسلم عن علي رضي الله عنه «الأذكار» للنووي، الحديث (107)

(140) رواه مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وأبو داود، والنسائي «الأذكار» للنووي، الحديث (115).

(141) رواه مسلم عن علي رضي الله عنه، وأبو داود، والترمذي، والنسائي «الأذكار» للنووي، الحديث (120).

(142) رواه البيهقي في «سننه» عن ابن عباس في حديث مبيته عند خالته ميمونة رضي الله عنها، ورواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم «الأذكار» للنووي، الحديث (129).

«وكان إذا دخل العشر - الأواخر - شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله»⁽¹⁴³⁾، واعتكف في المسجد ... اعتزل عزلة مؤقتة عن شواغل الحياة لعبادة الله عز وجل⁽¹⁴⁴⁾.

كان قبل رمضان يقوم بعض الليل وينام بعضه، ولكن في هذه العشر الأواخر يحيي الليل كله لعبادة الله، ويوقظ أهله ... نساءه، ليشاركه هذا المغنم ... هذا الخير، ما كان يحب أن يكون وحده في طاعة الله، روت عنه أم سلمة: أنه استيقظ ليلة، فقال: «سبحان الله!، ما أنزل الليلة من الفتن؟ ماذا أنزل من الخزائن؟ من يوقظ صواحب الحجرات؟ - يعني نساءه - يا رب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»⁽¹⁴⁵⁾.

هكذا كان صلى الله عليه وسلم يصوم ويقوم، ولم يكن يكتفي بصيام رمضان، كما لم يكن يكتفي بالصلوات الخمس.

كان يصوم الأيام البيض من كل شهر: الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر⁽¹⁴⁶⁾، وكان يصوم الإثنين والخميس، ولما سُئل في ذلك قال:

(143) رواه الستة إلا الترمذي عن عائشة «فقه الصيام» للقرضاوي (ص 110) وقوله: «شد مئزره» كناية عن النشاط التام في طاعة الله.

(144) الإسلام لم يشرع الرهبانية، ولا التعبد بالعزلة الدائمة، ولكنه شرع الاعتكاف لفترات مؤقتة، لترتوي القلوب الضالمة إلى المزيد من التعبد والتجرد لله رب العالمين. «فقه الصيام» (ص 111) بتصريف قليل.

(145) رواه البخاري عن أم سلمة في كتاب التهجد من «صحيحه»، البخاري مع «الفتح» (1126) ط. دار الفكر المصورة عن السلفية.

(146) عن جرير رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر، وأيام البيض: صبيحة ثلاثة عشر، وأربعة عشر، وخمسة عشر». رواه النسائي بإسناد جيد، والبيهقي، قال الشراح: أي وأفضلها أيام البيض

«تعرض الأعمال يوم الإثنين والخميس، فأحب أن يعرض عملي وأنا صائم»⁽¹⁴⁷⁾.

كان يصوم حتى يقال لا يفطر، ويفطر حتى يقال لا يصوم، وكان أحياناً يصوم ويواصل الصيام⁽¹⁴⁸⁾، وينهى أصحابه عن الوصال رفقاً بهم، فيقولون له: إنك تواصل يا رسول الله، فيقول: «وأياكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني»⁽¹⁴⁹⁾.

لا تظنوا أنه يطعمه اللحم والأرز، أو الفاكهة، أو يسقيه الماء، لا، إنه غذاء آخر، وشراب من نوع آخر.

إنه غذاء القلب، وشراب الروح، إنه مشغول بمعرفة ربه وحبه وخشيته، لذلك شغله هذا عن الشراب والطعام والدنيا، كما قال القائل:

لها أحاديث من ذكراك عن الشراب وتلبيها عن الزاد
لها بوجهك نور يستضاء له ومن حديثك في أعقابها حادي
إذا شكت من كلال السير روح القدوم فتحيا عند ميعاد

صبيحة الثلاث المذكورة، وسميت بيضاً لطلوع القمر فيها طوال الليل، وتفضيل هذه الأيام لحكمة يعلمها الله، وقيل: ليتناسب نور القمر مع نور العبادة، ومثل هذا يعد من ملح العلم لا من صلبه وجواهره. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (320/1)، الحديث (540).

(147) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة، وقال: حديث حسن غريب، وروى النسائي نحوه في حديث عن أسامة بن زيد. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (320/1 - 321)، الحديث (541).

(148) أي يأتي الغروب فلا يفطر، ويستمر صائماً ليوم أو يومين.

(149) متفق عليه من حديث أبي هريرة «سبل السلام» للصنعاني (307/2)

من في الناس يصل إلى هذه المرحلة؟!!

إن في الحديث عن عبادته صلى الله عليه وسلم ... عن هذا الجانب الرباني من سيرته يطول، ولعل لنا عودة إليه لنجلي هذا الجانب - جانب الذكر والشكر وحسن العبادة - في حياة النبي العظيم صلى الله عليه وسلم، فإنه من أنصع الأدلة على أنه رسول الله.

إن الدجالين لا يمكن أن يحملوا بين جنوبهم مثل هذا القلب الشاكر، ولا يمكن أن يكون لهم مثل هذا اللسان الذاكر، ولا يمكن أن يكون لهم مثل هذا البدن الصابر على طاعة الله وعبادته.

إن هذا القلب ... قلب النبي المحب لربه، الخائف من عذابه، الراجي لرحمته، المقبل عليه بكل همته، إنه دليل من أسطع الأدلة على أنه رسول الله، على أنه يتكلم عن الله، لا يتكلم عن هواه، ولا يصدر من عند نفسه {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ 1 مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ 2 وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ 3 إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} [النجم: 1 - 4].

صلى الله عليك وسلم يا رسول الله، وجعلنا الله من المهتدين بهديك، المقتدين بسنتك: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ} **وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهُ كَثِيرًا** [الأحزاب: 21].

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ورد أنه في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يدعو بها عبد مسلم بخير إلا استجاب له، ولعلها تكون هذه الساعة.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنينا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وأثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا {... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [البقرة: 286].

عباد الله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على نبيك، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وأقم الصلاة.

* * *

قضية المرتد سلمان رشدي

1989/3/4م

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كان في خاطري أن أحدثكم اليوم عن أحد موضوعين، الموضوع الأول: موضوع المسجد الأقصى، بمناسبة ذكرى الإسراء والمعراج، بمناسبة هذه الذكرى كان يهمني أن أتحدث عن المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وعن أرض النبوات التي بارك الله فيها للعالمين، وعن أطفال الحجارة، وعن الانتفاضة الإسلامية، وعن الحركة الإسلامية التي أزعج انتصارها في الأرض المحتلة «شامير»⁽¹⁵⁰⁾ وأتباعه.

كنت أريد أن أتحدث عن قضية العرب والمسلمين الأولى بهذه المناسبة، مناسبة الإسراء والمعراج.

كان هذا موضوعاً، وكان هناك موضوع آخر، هو موضوع النصر، أعظم نصر حققه المسلمون في هذا العصر، وهو انتصار الإخوة المجاهدين الأفغان على أعتى قوة ملحدة في الأرض، قوة الإلحاد الأولى في العالم بل في التاريخ كله، واضطرار هذه القوة إلى أن تسحب جيوشها وجنودها، وتولي الأدبار عن أرض الجهاد، وينسحب آخر جندي من جنود الروس من أرض الأفغان الصامدة، المجاهدة، كنت أريد أن أتحدث عن هذا أيضاً في

(150) رئيس وزراء إسرائيل السابق.

هذه المناسبة.

ولكن أعداء الإسلام لا يريدون لنا أن نفرح بشيء، لم تتذوق حلاوة النصر منذ زمن بعيد، فنحن نعيش في زمن المآسي والنكسات، فإذا حدث لنا فرح حولوه إلى أحزان، وإذا احتفلنا بعرس أطلقوا فيه رصاصاً أردت قتيلاً، فتحول عرسنا إلى مأتم، لهذا شغلونا هذه الأيام بقضية فرضت نفسها على الساحة، كان لا بد من أن أحدثكم عنها هذا اليوم.

تلك قضية المرتد المتزندق المدعو: «سلمان رشدي»، الذي نشأ في أرض إسلامية، ومن أسرة مسلمة، ثم ذهب إلى الغرب، ليصنع هناك، وليستدير إلى أمته فيطعننها في صدرها، وليتوجه بسهامه المسمومة، إلى قدس الأقداس، إلى أظهر خلق الله، إلى محمد صلى الله عليه وسلم، وإلى بيته الطاهر، فيتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتهم نساءه، ويكيل الشتائم المقذعة، بأقذر الألفاظ، وأقبح العبارات، في قضية سماها «الآيات الشيطانية»، ذلكم هو المسمى «سلمان رشدي»، إنسان هندي الأصل، يدل عليه اسمه، اسم مسلم، ليس فيه من السلامة ولا من الرشد شيء.

كنا في الأسبوع الماضي في مجمع الفقه الإسلامي، فشغلنا يومين كاملين بقضيتين: قضية جاءت من بريطانيا، وهي قضية «سلمان رشدي»، وقضية جاءت من أمريكا وهي قضية آخر يدعى «رشاد خليفة»، وكلاهما للأسف في اسمه «الرشد» أو «الرشاد»، وليس لأحدهما من الرشد ولا من الرشاد شيء، واحد طبخ في المطبخ البريطاني، والآخر طبخ في المطبخ الأمريكي.

«رشاد خليفة» هذا كذب بالصلاة، وأنكر السنة إنكاراً مطلقاً، وادعى أن

في القرآن آيات ليست من القرآن، ثم ختم هذا كله بادعاء أنه رسول الله، وجاءت رسالته يبعث بها هنا وهناك: أن رشاد خليفة رسول الله (151).

شغلنا يومين بهذين الأمرين، بدل أن نشغل بقضايا المسلمين، وما تحتاج إليه من فقه وفتوى، هكذا أراد أعداء الإسلام.

كان أحد عتاة المبشرين⁽¹⁵²⁾ في أوائل هذا القرن يقول: لن ننجح في تبشيرنا وتنصيرنا، إلا إذا جندنا من أبناء المسلمين أنفسهم من يقوم بمهمتنا، إن الشجرة لا يقطعها إلا أحد أبنائها.

وهكذا استطاعوا أن يجندوا بعض هؤلاء الناس، الذين لا دين لهم، ولا عقل لهم، ولا ضمير لهم، باعوا دينهم، وباعوا أمتهم، وباعوا تراثهم، وباعوا كل شيء، من أجل مال ... من أجل شهوة ... من أجل شهرة ... من أجل أن يتبعوا أهواء الشياطين، الذي يوحون إليهم بتلك الوسوس والهواجس.

سلمان رشدي ألف قصة، هذه القصة تقوم على أن هناك في «مكة»، ويسمى مكة «مدينة الجاهلية»، أما «المدينة المنورة» فأبقى على اسمها

(151) ونحمد الله أن باطله لم يمكث في الأرض طويلاً، إذ أهلكه الله بعد مدة وجيزة، وخرست دعوته في مهدها.

(152) هو القسيس «زويمر» رئيس إرسالية التبشير في البحرين، ذكر ذلك في كتابه «العالم الإسلامي اليوم» الذي نشره بمؤازرة زملاء له، جمعوا فيه تقارير وملاحظات كتبها المبشرون عن حال المسلمين القاطنين في مناطقهم التبشيرية، وفي مقدمة الكتاب يقول «زويمر» تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها نقلاً عن كتاب «الغارة على العالم الإسلامي» تأليف ا. ل. شاتليه، تلخيص وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي (ص50).

القديم: «يثرب»، وأن في «مدينة الجاهلية» بيتاً للدعارة والبغاء، وأن هذا البيت يضم اثنتي عشرة امرأة، سمي هؤلاء النساء الداعرات بأسماء أمهات المؤمنين، زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسماهن: بغايا الأستار، كأنه يشير إلى أستار الكعبة، أو بغايا الحجاب، وكيف يكون الحجاب سبباً للبغاء، أو قريباً له؟!

هكذا تهجم هذا الرجل، وخطط الخيال بالتاريخ، والتاريخ بالواقع، وخذ الأمور بعضها ببعض، بحيث تخرج منه بأن هذا شيء لا يمكن أن يطاق، ولا أن يقبل بحال من الأحوال.

هذا الرجل أساء إلى أمة الإسلام، أساء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أساء إلى أمهات المؤمنين، أظهر خلق الله، اللائي خاطبهن الله في القرآن بقوله: {يُنسَاءُ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطَمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا 32 وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: 32، 33].

أول من خوطب بهذا نساء النبي صلى الله عليه وسلم، فالله يريد أن يذهب عنهن الرجس، وأن يطهرهن تطهيراً.

وحين افتري مفتر كذاب على إحداهن: عائشة بنت أبي بكر، الصديقة بنت الصديق، في حديث الإفك المعروف، نزلت آيات السماء، نزلت عشرات الآيات في سورة «النور» تبرئ هذه الطاهرة المطهرة المبرأة رضي الله عنها، وتلعن أولئك الذين أشاعوا هذا الإفك {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغُلُوبِ

أَلْمُؤْمِنَاتُ لُعْنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ 23 يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [النور: 23، 24].

أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمّهات المؤمنين، يوصفن عند هذا الفاجر الفاسق العريبي بأنهن مومسات، هكذا صنع.

ولهذا غضب المسلمون في بريطانيا، الذين قرأوا هذا الكتاب أو هذه الرواية الشيطانية باللغة الإنكليزية، احتجاجوا في أول الأمر، وطالبوا أن يصادر هذا الكتاب ويمنع نشره، حتى لا يسيء إلى الإسلام، ولا يجرح مشاعر المسلمين، ولكن صيحاتهم ذهبت سدى، ولم تؤت أكلها، ثم ساروا في مظاهرات وجاءوا فيها بنسخة من الكتاب، وأحرقوها في بعض الميادين، حتى يسمع لهم السامعون، وتعرف قضيتهم الجهات المختصة، ولكن أحدًا لم يبال بهم، بزعم أن هناك حرية ... حرية الرأي وحرية الفكر، ولكن أي رأي وأي فكر في هذا الكلام الساقط البذيء؟

ليس هناك علم ولا رأي ولا فكر، يمكن أن نقارع فيه الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، والرأي بالرأي، من شتمك، كيف تقول: إن الشتيمة هذه رأي، وإن صاحب هذا اللسان القذر، حر في أن يقول ما شاء؟!!

لو أن إنسانًا يبحث، وانتهى إلى رأي، يمكن أن نقول: إن هذا رأي، يرد عليه برأي مثله، ولكن إذا جاء إنسان وقال لك: أنت ابن كذا، وكذا، شتم أباك أو سب أمك، ماذا تقول في هذا؟ أهذا رأي يحترم، ويدافع عنه؟!!

لو أن إنسانًا - أي إنسان - اعتدى على أبيه أو أمه بكلمة بذيئة، فلا يسعه إلا أن يغضب، ولا يسعه إلا أن يثور، فكيف إذا سب أشرف الخلق وسيد

الوجود: محمد صلى الله عليه وسلم؟ كيف إذا سبت نساؤه أمهات المؤمنين؟
 من سب أباك أو أمك لا تصبر عليه، فكيف من سب نبيك، ورسولك
 وهاديك إلى الله؟ وكيف من سب أمهات المؤمنين جميعًا؟ والله تعالى يقول:
 {النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ...} [الأحزاب: 6]، كيف يقال
 إن هذا رأي؟! كيف يقال إن هذا فكر، وإن هذا من حرية الفكر؟!

إن رئيسة وزراء بريطانيا صادرت كتابًا، كان فيه بعض الفضائح
 السياسية، المعروف باسم: «صائد الجواسيس»، من أجل المصلحة، فلماذا لا
 يصادر كتاب من أجل مصلحة المسلمين؟ أم أن المسلمين في العالم لا قيمة
 لهم؟ ألف مليون مسلم تتحدى مشاعرهم في العالم كله، ولا يقام لهم وزن.
 من أجل ذلك ثارت الثورات، وقامت المظاهرات في بلاد العالم الإسلامي،
 وخصوصًا الذين يقرأون الإنكليزية.

ثارت المظاهرات في بريطانيا، وفي الهند، وفي باكستان، وفي غيرها من
 البلاد، وقتل من قتل، وأطلق الرصاص على بعض الناس فقتلوا، إنما ثاروا
 لكرامتهم، لكرامة دينهم، لكرامة نبيهم، لكرامة أمهات المؤمنين حفاظًا على
 المقدسات.

إن هذا الرجل اتهم أبا الأنبياء جميعًا ... الخليل إبراهيم، اتهمه بأنه وغد،
 وابن زانية، هكذا لم يدع شيئًا إلا وجرحه، أثخنه بالجراح، فمن حق الناس أن
 يثوروا.

لئن كنت محتاجًا إلى اللحم إلى الجهل في بعض الأحيان
 ولي فرس للحم بالحم ملجم ولي فرس للجهل بالجهل

فمن رام تقويمي فأني مقوم ومن رام تعويجي فأني معوج
وما كنت أرضى الجهل خدناً وصاحباً ولكنني أرضى به حين أخرج
لقد استغضب المسلمون، وكان من حقهم، بل من واجبه، أن يغضبوا،
ومن استغضب فلم يغضب فهو حمار، كما أن من استرضى فلم يرض فهو
جبار.

استغضب المسلمون، حينما مست عقائدهم في شخص رسولهم محمد
صلى الله عليه وسلم، ونسائه أمهات المؤمنين، وعدد من الصحابة، وبعض
الأنبياء العظام.

أشياء كثيرة تحدث عنها هذا الإنسان، كان من حق المسلمين أن يثوروا،
وأن يغضبوا، ما دامت السلطات المختصة في تلك البلاد لم تأبه للأمر، ولم
تشغل نفسها به.

هناك من قال: إننا يجب أن نستتيب هذا الإنسان، وصدرت بعض الفتاوى
في ذلك، وأصدر هذا الشخص اعتذاراً، هذا الاعتذار ليس فيه أي نوع من
التوبة، ولا أي نوع من التكذيب لنفسه، ولا أي نوع من التراجع عما قال، كل
ما قاله: إنه يأسلف إنه ألم المسلمين وأزعجهم، أما كلامه نفسه فلم يتراجع
عنه، ولم يقل إنه أخطأ، ولم يكذب نفسه في شيء، ولذلك رفض اعتذاره.

على أن جمهور المسلمين يرون أن من شتم رسول الله صلى الله عليه
وسلم، لا تقبل له توبة، وليس له إلا السيف، حتى لا يجرؤ الناس على هذا
الحمى المحرم.

هذا ما قرره العلماء من قديم، وألف فيه شيخ الإسلام ابن تيمية، كتابه

الشهير: «الصارم المسلول على شاتم الرسول صلى الله عليه وسلم»، وقال: إن من شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم من مسلم أو نمي، حتى الذمي - الذمي غير المسلم الذي يعيش بين ظهراي المسلمين، وفي ضمانهم وذمتهم، وله ما لهم وعليه ما عليهم، في حدود أصول الإسلام وقواعده - هذا إذا شتم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد نقض عهد الذمة وحل دمه.

أراد المسلمون ألا يفتحوا باب فتنة فيجرؤ الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم. من حقهم أن يردوا على الإسلام، وعلى عقائد الإسلام، ويقولوا: إن عقائدنا أفضل من عقائدكم، هذا الرأي يسمح به ونرد عليه، أما الشتم، أما الإهانة، أما التجريح، أما السب واللعن، فهذا شيء آخر لا يقبل من مسلم ولا من غير مسلم.

لقد أهان هذا الإنسان الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، ولكن العجب العجاب: أن نجد هذا الغرب يقف عن بكرة أبيه، ضد المشاعر الإسلامية.

وحيثما احتجت «إيران» على هذا الأمر، سحبوا سفراءهم من هناك، واجتمع المجلس الأوروبي، ويكاد يجتمع مجلس الأمن، أو الأمم المتحدة، من أجل هذا الأمر!

أليس من حق المسلمين أن يغضبوا لدينهم، ولنبيهم، ولمقدساتهم، ولأنبياء الله جميعاً؟

إن المسلمين في بعض البلاد الأوروبية سيروا مظاهرات من أجل «فيلم» تناول المسيح سسس بسوء وهؤلاء الناس للأسف أصدروا من الأفلام ما

يجرح المسيح سسس، ويتهمه بالشذوذ الجنسي، ويصوره في أقبح صورة، ومن الأفلام ما صور «مريم» العذراء سسسا أسوأ تصوير.

قام المسلمون وتظاهروا ضد ذلك، حتى أن «اسقف» بعض البلاد شكر المسلمين على هذا الأمر وقال: ما كنت أظن أن تغضبوا لمريم مثل غضبتنا وأكثر، قالوا له: إن مريم عندنا صديقة: {وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ} [آل عمران: 42]، {وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِ مَنَاقِبٌ} [التحريم: 12].

قالوا له: إن في القرآن سورة اسمها: سورة «مريم»، نزلت من أجل هذه الصديقة ... العظيمة ... المطهرة ... البتول ... المبرأة.

المسلمون يغضبون إذا نال نائل من أي نبي من الأنبياء، أو أي رسول من الرسل، فنحن لا يصح لنا دين، ولا يكمل لنا إيمان، إلا إذا آمننا بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل {عَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ عَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ...} [البقرة: 285].

هذا هو إيماننا نحن المسلمين، فلماذا نكافأ على هذا بأن يشتم نبينا، ويشتم ديننا، وتسب أمهات المؤمنين؟

أيسعنا أن نسكت على هذا الضيم؟ أن نغض العيون على القذا؟ أن نسحب الذبول على الأذى؟ لا والله، ما كان لنا أن نفعل ذلك.

كنا نود لو أن هذا الكتاب مات في مهده ولم يذكر، ولكن للأسف قالوا: إنهم

هناك يكافئون هذا الكاتب، ويعطونه الجوائز على مثل هذه الأشياء⁽¹⁵³⁾، فثار المسلمون الذين يعرفون هذا الأمر عليه، أما وقد سار الأمر وعرف وانتشر، فلا بد لنا من وقفة.

نعجب من تلك الحرب الصليبية التي ما زالت قائمة حتى اليوم، تظهر ما بين الحين والحين حينما دخل «اللنبي» القائد البريطاني، القدس الشريف سنة 1917م، قال كلمته الشهيرة: «اليوم انتهت الحروب الصليبية، أي بدخول بيت المقدس، الذي فشل فيه الصليبيون قديماً».

ولكن الحروب الصليبية لم تنته، ما انتهت الحروب الصليبية، الحرب مستمرة، ولكنها بأدوات غير الأدوات، وبأساليب غير الأساليب، وفي ساحات شتى، ومجالات كثيرة، الحرب الصليبية ما زالت قائمة ضدنا نحن المسلمين.

نحن نحاول أن نسالم، أن نرفع شعار السلام، أن نمد أيدينا، ولكن القوم لا يقابلوننا بمثل ما نقابلهم به، لا يردون التحية بمثلها، فضلاً أن يردوها بأحسن منها، وهكذا يساء إلينا يوماً بعد يوم.

وأعجب من هذا أن نجد في بلد المسلمين أنفسهم، ومن أقلام عربية

(153) والتي كان آخرها جائزة الأدب الأوروبي، التي منحتها حكومة النمسا لهذا الكاتب المارق - أي بعد مرور خمس سنوات على إصدار روايته الشيطانية - ضاربة عرض الحائط بمشاعر أكثر من مليار مسلم، ومتجاوزة نصوص الدستور النمساوي نفسه، والذي يجرم صراحة كل من يتناول على المعتقدات الدينية المعترف بها رسمياً هناك ومن بينها الإسلام. «نقلًا عن مجلة المجتمع الكويتية» في عددها (1096) الصادر في 8 ذي القعدة 1414هـ.

مسلمة، تدعي أنها نصيرة الحرية، تدافع عن هذا المرتد الملحد المتزندق، وتدافع عنه باسم حرية الرأي وباسم حرية الفكر! أي رأي، وأي فكر يا قوم؟! أي رأي وأي فكر في السباب والقذارة والإقذاع؟! ليس هناك رأي يمكن أن يناقش، أو يرد عليه.

إن هذه القضية كان من حسناتها: أن نبهت العالم الإسلامي، ورب ضارة نافعة، نبهته إلى ما يحاك له في الخفاء، وما يببب له بليل، وما يدبر له من وراء ستار، لكي يظل دائماً في بلبلة وحيرة.

علمتنا هذه القضية أن من أبناء المسلمين، من يستخدم ضد المسلمين أنفسهم، ومن حسنات هذه القضية أن وقف العالم الإسلامي جميعه ضد هذا الأمر، وإن كان السياسيون للأسف، لم يعيروا هذا الأمر التفاتاً بما يستحق، وما ينبغي له.

كان لا بد من أن تسمع أصوات تستتكر هذا الأمر، وتعلم هؤلاء القوم أن المسألة لا ينبغي أن تمر بسهولة، وأن العالم الإسلامي لا يقبل أن يهان في شخص إهانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبيته الشريف الطاهر.

يا أيها الإخوة: إن الإسلام والحمد لله، لا يمكن أن يتزعزع بهذه الأشياء، الإسلام طود شامخ، وجبل راسخ، بل هو أرسى من الجبال، لا تزعه هذه الرياح مهما عصفت.

الإسلام أرسخ قدمًا، وأثبت جذورًا، وأعمق أصولًا، من أن تؤثر فيه هذه الأباطيل، إن هذا الإسلام يمتد هنا وهناك، ويكسب كل يوم أرضًا، ويدخل فيه الكثيرون، ونحن موقنون أن الغد لهذا الدين، وأن المستقبل للإسلام، وصدق

الله العظيم إذ يقول: {يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} 32 هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: 32، 33].

نحن ننتظر يوماً يظهر فيه الإسلام على الأديان كلها، ويعم الأرض نوره، وقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي المدينتين تفتح أولاً يا رسول الله رومية أم قسطنطينية؟ كأن الصحابة عندهم علم سابق أن المدينتين كلتيهما مفتوحتان بالإسلام، رومية عاصمة إيطاليا، التي يعبر عنها الآن بـ «روما»، والقسطنطينية التي يعبر عنها الآن باسم: «استانبول» التي كانت عاصمة الخلافة العثمانية، عدة قرون - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مدينة هرقل تفتح أولاً» (154).

مدينة هرقل هي القسطنطينية، وقد فتحت (155).

فتحتها ذلك الشاب التركي العثماني، ابن الثالثة والعشرين: «محمد بن مراد» الذي لقب في التاريخ باسم: «محمد الفاتح»، الذي قرأ في الحديث:

(154) روى الإمام أحمد في مسند عبد الله بن عمرو عن أبي قبيل قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص، وسئل: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فدعا عبد الله بصندوق له حلق، قال: فأخرج منه كتاباً، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله صلى الله عليه وسلم نكتب، إذ سئل رسول الله: أي المدينتين تفتح أولاً: القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مدينة هرقل تفتح أولاً» يعني قسطنطينية، الحديث (6645)، وقال الشيخ شاکر: إسناده صحيح، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (219/6)، رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير أبي قبيل وهو ثقة، ورواه الحاكم (422/4) وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

(155) كان ذلك يوم 29 «أيار» «مايو» من عام (1453م)، بعد معارك دامت واحداً وخمسين يوماً.

«لتفتحن القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»⁽¹⁵⁶⁾، فتاقت نفسه، وطمحت إلى أن يكون هو هذا الأمير، وأن يكون جيشه هو هذا الجيش.

تعلقت بذلك نفسه، وهو في ريعان شبابه، فما زال يعد لذلك ويخطط، حتى أذن الله أن يكون له هذا الشرف، الذي سعى إليه الصحابة ولم يدركوه، وادخره القدر لهذا الفتى المسلم الطموح، ابن الثالثة والعشرين.

فتحت «القسطنطينية»، وبقي أن تفتح «رومية» إن شاء الله، معنى هذا: أنه لا بد من أن يدخل الإسلام إلى أوروبا من جديد، وقد طرد منها مرتين: طرد منها بعد الأندلس، بعد أن بقي فيها ثمانية قرون، وأقام تلك الحضارة العظيمة، طرد منها طردًا سجله التاريخ: القتل والتعذيب، والإجبار على التنصير، ومحي الإسلام من تلك الديار⁽¹⁵⁷⁾.

وطرد مرة أخرى بعد أن كاد العثمانيون يدخلون «فينا»⁽¹⁵⁸⁾، وطرقوا أبوابها عدة مرات، ثم عادوا إلى آسيا، وإلى ذلك الشريط الصغير من أوروبا،

(156) رواه أحمد في «مسنده» (335/4)، والحاكم في «مستدرکه» عن بشر الغنوي، وصححه ووافقه الذهبي (422/4) ورمز له السيوطي بالصحة في «الجامع الصغير» (123/2).

(157) من أراد أن يتأمل تلك الحقبة السوداء، وما جرى فيها للمسلمين من مأس يندى لها الجبين، ويتقطع لها نياط الفؤاد، فليرجع إلى كتاب «محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها» للدكتور عبد الرحمن علي الحجي، أو «المسلمون المنصرون» للدكتور عبد الله محمد جمال الدين، أو «تاريخ مسلمي الأندلس» تأليف الأسباني: أنطونيو دومينغير هورتز، والفرنسي: برنارد بننت.

(158) عاصمة «النمسا» حاليًا.

واقتمت تركة «الرجل المريض» كما يسميه المؤرخون في ذلك الوقت.

لا بد من عودة للإسلام إلى أوروبا إن شاء الله، لا بد من أن ينتصر الإسلام، إذا قمنا له بحقه، إذا كنا نحن صورة طيبة للإسلام، واستطعنا أن نقدمه لغيرنا، حتى يرى في الإسلام، ما يهديه من ضلال، وما يؤمنه من خوف، وما يسعده من شقاء.

إننا أصحاب الدين القوى، إننا أصحاب الرسالة العظمى، التي فيها نجاة الإنسانية من كل شر، ومن كل خطر، إنها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم، أما هذه الأكاذيب، وهذه الأباطيل، وهذه الزوابع التي تثار ما بين الحين والحين، فلن تزيد الإسلام إلا قوة، ولا تزيد العاملين للإسلام إلا ثباتاً عليه، وإصراراً على الدعوة إليه، وإنا إن شاء الله لمنتصرون، {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} [النور: 55]

نسأل الله أن ينجز لنا وعده، وأن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، وأن ينصر الإسلام ويعز المسلمين، اللهم آمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه من كل ذنب، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

ظهرت ظاهرة ما كان يعرفها المجتمع الإسلامي، تحدثنا عنها خطبة

كاملة في العام الماضي، هذه الظاهرة هي: تفكك الأسرة المسلمة، تخلي الإنسان عن أبويه في حالة الشيخوخة، والله تعالى وصى على الأبوين في كل الأحوال، ولكنه وصى عليهما في حالة الشيخوخة خاصة: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٌ وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا 23 وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا} [الإسراء: 23، 24].

{إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ}: أصبغا أمانة عندك، أصبغا في حضانتك كما كنت من قبل في حضانتها؟ ألا ترد الجميل؟ ألا تعرف المعروف؟ ألا تجازي الإحسان بالإحسان؟ وكيف تجازي الإحسان بالإحسان؟ وهل تستطيع.

إن الرجل الذي جاء إلى عمر وقال: يا أمير المؤمنين: لقد بلغ من مرض أمي وعجزها، أنني أصنع لها ما كانت تصنع لي في صغري، وفي طفولتي، أنا الذي أطعمها، وأنا الذي أسقيها، ولا تقضي حاجتها إلا وظهري لها مطية - أي إذا أرادت أن تقضي حاجتها البشرية من البول والغائط، يحملها ويذهب بها حتى تقضي حاجتها - أوفيتها حقها؟ فقال عمر: لا، إنها كانت تفعل ذلك لك، وتتمنى لك عمراً طويلاً، أما أنت فتفعل لها ذلك، وتنتظر موتها غداً أو بعد غدا!

روى البزار: أن رجلاً كان يطوف بالكعبة وهو يحمل أمه على كتفه، فرآه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: أوفيت لها حقها؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «لا، ولا بزفرة واحدة»⁽¹⁵⁹⁾ زفرة من زفرات الطلق وألم

(159) ذكره الحافظ بن كثير في تفسير سورة الإسراء (35/3) ط. الحلبي من رواية الحافظ

الوضع.

فما هذه الظاهرة: أن يذهب الناس بأبائهم وأمهاتهم إلى مستشفى العجزة، ويلقون بهم هناك، كأنما وضعوا في سلة المهملات، لا يسأل عنهم أحد، ولا يزورهم أحد.

أين عاطفة البنوة؟ أين روح الدين ... روح البر والوفاء؟ أين قوله تعالى: {وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ؟} أين: {وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا}؟ أين البر الذي جعله الإسلام من أصول الفضائل وجعله في المرتبة بعد توحيد الله سبحانه وتعالى؟

كنا نسمع عن مثل ذلك في أوروبا وأمريكا، ونقول هذا مجتمع مادي، أناني، لا يعرف المشاعر، ولا يعرف العواطف، ولا يعرف الفضائل، فهل انتقلت إلينا العدوى؟ هل انتقلت سموم المجتمع المادي إلى مجتمعنا، حتى يلقي الآباء والأمهات في دور العجزة، ثم يتركون ولا يسأل عنهم أحد؟

لا يا أيها الإخوة المسلمون، لا ينبغي أن نتخلى عن مكارمنا وفضائلنا، فينتخلى الله عنا، وبر الوالدين سلف، اعمل ما شئت كما تدين تدان أنت اليوم شاب وغداً شيخ، ما صنعته بأبائك، سيصنعه بك أبنائك، فاعمل لغدك، واعمل قبل كل شيء لإرضاء الله سبحانه وتعالى، وأوف الحق الذي عليك، يوف أبنائك بالحق الذي لك.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، وأن يجعلنا من عباده

البيزار في مسنده عن بريدة، وفي مسنده الحسن بن أبي جعفر ضعيف، وأورده الهيثمي في «المجمع» (137/8).

الأبرار الأوفياء، اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، واهدنا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنا سيئها، لا يصرف عنا سيئها إلا أنت، اللهم أعز الإسلام وأيد المسلمين، اللهم انصر إخواننا في فلسطين، وانصر إخواننا في أفغانستان، واجمع على الحق كلمتهم، ووحّد صفوفهم، وقرب النصر العزيز منهم، اللهم أرنا يومًا قريبًا ينتصر فيه الإسلام، وتعلو فيه راية القرآن، اللهم اهدنا صراطًا مستقيمًا، وافتح لنا فتحًا مبينًا، وانصرنا نصرًا عزيزًا، وأنزل في قلوبنا سكينتك، وانشر علينا فضلك ورحمتك يا أرحم الراحمين.

عباد الله: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56]. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

ذكرى الإسراء والمعراج

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نحن الآن في الأسبوع الأخير من شهر رجب، شهر الله الحرام⁽¹⁶⁰⁾، وفي الأسبوع الأخير من رجب يتذكر المسلمون حادثاً جليلاً من أحداث السيرة النبوية العاطرة، ذلكم هو حادث الإسراء والمعراج برسول الله صلى الله عليه وسلم.

يتذكر المسلمون هذا الحادث، ويحتفون به في ليلة السابع والعشرين من هذا الشهر الكريم، وليس هناك قطع بأن الإسراء حدث في تلك الليلة، بل هناك خلاف كثير حول ميقات الإسراء: في أي ليلة كان؟ وفي أي شهر كان؟ وفي أي سنة كان؟ وهل وقع مرة واحدة أو وقع أكثر من مرة؟⁽¹⁶¹⁾ إلى آخر ما بحثه العلماء المسلمون من وقائع السيرة وتواريخها، التي لم يضبطها

(160) هو أحد الأشهر الأربعة الحرم التي عظمها الله في القرآن حين قال: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ** [التوبة: 36]، وهذه الأشهر هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب «ثلاثة سرد وواحد فرد»، وسميت حرماً لأنها معظمة محترمة، تتضاعف فيها الطاعات، ويحرم فيها القتال، وقد ورد استحباب الصيام فيها، وبخاصة المحرم، وللشيخ القرضاوي فتويان تخصان شهر رجب والصيام فيه، وما يذكره بعض الخطباء، ويتناقله الناس، من مبالغات وتهويلات في فضله. راجع «فتاوى معاصرة» (384/1 - 386)

(161) راجع في هذا كله ما كتبه الأستاذ المحقق محمد الصادق إبراهيم عرجون، في الجزء الثاني من كتابه الفذ: «محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم».

الصحابة وتابعوهم بإحسان، فإنهم ما كانوا يهتمون إلا بما كان وراءه عمل.
ما كان وراءه حلال أو حرام، أو شيء يوجب عليهم عملاً معيناً، فكانوا
يبحثون عنه ويدققون فيه.

ولم يشرع في الإسراء والمعراج صيام نهار ولا قيام ليل، ولهذا حدث هذا
الاختلاف.

ولكن المسلمين قد اشتهر بينهم في العصر الأخيرة، أن الإسراء
والمعراج في ليلة السابع والعشرين من رجب، ونحن لا يهمنا: هل كان
الإسراء في تلك الليلة أو لم يكن؟ إنما يهمنا الحادث نفسه.

الإسراء واقع بنص القرآن الكريم، سميت باسمه سورة من سوره، وافتتح
الله بذكره هذه السورة حينما قال عز وجل: {سُبْحٰنَ الَّذِي أَسْرٰى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} [الإسراء: 1].

ومن هنا كان من كذب الإسراء، ولم يؤمن به، كافرًا بإجماع المسلمين،
لأنه كذب صريح القرآن المقطوع به، المجمع عليه، المعلوم من حياة نبي الله
صلى الله عليه وسلم بالضرورة.

أما المعراج فلم يذكر في القرآن إلا من باب الإشارة، وذلك في سورة
«النجم»، حيث قال الله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ 1 مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ 2
وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ 3 إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ 4 عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ 5 ذُو مِرَّةٍ
فَأَسْتَوَىٰ 6 وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ 7 ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ {الكلام عن جبريل الذي كان
يأتي بالقرآن للنبي صلى الله عليه وسلم - {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ 9 فَأَوْحَىٰ

إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى 10 مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى 11 أَفْتُمِرُونَ عَلَىٰ مَا يُرَىٰ 12 وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ 13 عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ 14 عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ 15 إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ 16 مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ 17 لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ { [النجم: 1 - 18]، رأى النبي صلى الله عليه وسلم جبريل على صورته الملائكية مرتين: مرة في الأرض، وهي الرؤية الأولى التي كانت بالبطحاء والمشار إليها في قوله تعالى في سورة التكوير: {وَلَقَدْ رَءَاهُ بِالْأَفُقِ الْمُبِينِ} [التكوير: 23]، والرؤية الثانية هي التي عند سدرة المنتهى في ليلة المعراج هذه.

المعراج جاء في القرآن بهذه الإشارات في هذه الآيات، ولكن الإسراء جاء صريحاً، وجاءت أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم تثبت الإسراء والمعراج.

الإسراء: رحلة أرضية، بين المسجدين المباركين المقدسين: مسجد مكة، ومسجد القدس «من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى»، ربط الله بينهما بهذه الرحلة النبوية المباركة، الأول هو بداية الإسراء والثاني هو نهايته.

أما المعراج: فهو رحلة تبتدئ من الأرض إلى السموات العلى، إلى مستوى لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، كما قال الشاعر:

حتى بلغت سماء لا يطار لها على جناح ولا يسعى على قدم
هناك بلغ مستوى لم يبلغه بشر قبله صلى الله عليه وسلم.

كان الأنبياء في استقباله في كل سماء، كبار الأنبياء استقبلوه في الأرض، وصلوا خلفه صلى الله عليه وسلم، ثم وزع الله أعظم الأنبياء على السموات، فكانوا يرحبون بمقدمه صلى الله عليه وسلم.

كان هذا التكريم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن نال ما نال من إعراض الخلق، ومن إيذاء البشر.

أراد الله عسع أن يسري عنه، وأن يعوضه، وأن يقيم له هذا الحفل التكريمي، في الأرض وفي السماء.

إن النبي صلى الله عليه وسلم قد قاسى ما قاسى هو وأصحابه، عشر سنوات يعرض على القوم دعوته، يتلو عليهم القرآن، ويبلغهم الإسلام، ولكنهم استقبلوه بأشد ما يستقبل به نبي.

واشتد الأذى أكثر وأكثر بعد موت عمه أبي طالب، الذي كان ذائداً مدافعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد موت زوجته خديجة، كلاهما كان سنداً له، أبو طالب سنده في الخارج، وخديجة كانت سنده في الداخل، ماتا في أيام قريية في عام واحد⁽¹⁶²⁾، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم «عام الحزن».

وأراد عليه الصلاة والسلام أن يجرب موقعاً جديداً، وأرضاً جديدة، فيها بذور دعوته، فقرر أن يتوجه إلى الطائف، إلى حيث تسكن قبيلة «ثقيف»، عسى أن يجد عند «ثقيف» ما لم يجد عند قومه من «قريش».

ذهب ومعه مولاه «زيد بن حارثة»، ولكنه لم يجد عند القوم إلا شراً مما وجد عند قريش.

استقبلوه أقبح استقبال، قال له منهم من قال: ألم يجد الله في جزيرة العرب غيرك حتى يرسله إلى الناس؟ وقال له آخر: إن كنت صادقاً فأنت أعظم من

(162) قيل في هذا العام العاشر من البعثة، قبل الهجرة بثلاث سنين.

أن أكلمك، وإن كنت كاذبًا فأنت أحقر من أن أكلمك، فلن أكلمك صادقًا ولا كاذبًا! حتى مجرد الكلام معه حرموه منه، لم يريحوه بالكلام.

سلطوا عليه العبيد والسفهاء والصبيان، يرمونه بالحجارة، حتى أدموا عقبيه صلى الله عليه وسلم، وسال دمه الشريف من عقبيه، ولم يجد بداً من أن يعود.

عاد ولكن الله عسع لم يدعه، لقد عاد يشكو إلى ربه، يناجيه تلك المناجاة المعروفة الرقيقة الندية، التي يقول فيها لربه: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل على سخطك، لك العتبي حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»⁽¹⁶³⁾.

لم يبالي بغضب الناس إذا كان الله تعالى قد رضي عنه، ولكنه يسأل الله العفو والعافية.

هنالك غضبت له الملائكة من فوق السموات العلى، وأرادوا أن يكونوا رهن إشارته صلى الله عليه وسلم، إن شاء أن يطبق عليهم الجبلين، أو

(163) القصة التي رواها ابن إسحاق في «السيرة» عن محمد بن كعب القرظي مرسلًا بسند صحيح (60/2 - 63) ط. دار إحياء التراث العربي، بتحقيق مصطفى السقا وآخرين، إلا الدعاء فذكره بغير سند، لكن رواه الطبراني في «الكبير»، وأورده الهيثمي في «المجمع» (35/1) وقال: فيه ابن إسحاق مدلس ثقة، وبقيه رجاله ثقات.

يخسف بهم الأرض، أو ينزل بهم ما نزل بالكفار من قبل، ولكنه صلى الله عليه وسلم أبى ذلك كله، وقال: «بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» (164).

و شاء الله سبحانه ألا تضيع رحلته سدى، فكان من أمره وهو عائد إلى مكة، أن جلس إلى حائط ... بستان لأحد مشركي قريش، لعتبة بن ربيعة وأخيه شيبه، ابني ربيعة، من بني عبد شمس، وأحسًا به، فأرسل إليه يقطف من العنب، مع غلام نصراني خادم عندهما، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بعض العنب، وقال: بسم الله، فعجب الغلام أن يسمع هذا، وقال: هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد، فقال: من أي البلاد أنت؟ قال: من نينوي قال: من بلدة العبد الصالح «يونس بن متى»؟ قال: ومن أين لك العلم به؟ قال: هو نبي، وأنا نبي، وعرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام، وتلا عليه بعض القرآن، فأسلم الرجل.

كان هذا أول ثمار الرحلة.

وفي عودته أيضًا أرسل الله إليه نفرًا من الجن يستمعون القرآن {... فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ} [الأحقاف: 29] (165) يقولون لهم: {يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ} [الأحقاف: 31].

(164) رواه مسلم في «صحيحه» كتاب الجهاد والسير، باب: ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين والمنافقين، رقم (1795).

(165) ومطلع الآية: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ}.

ثم كان هذا التكريم، كان الإسراء، وكان المعراج.

بعث الله أمين الوحي «جبريل» سسس إلى محمد صلى الله عليه وسلم، فغسل صدره بماء زمزم، وأخرج منه حظ الشيطان، وذهب به، ركبًا البراق: دابة كأنها من البرق، كأنها شيء يتصل نسبًا بالكهرباء، ركب هذه الدابة التي لا نعرف كنهها، من المسجد الحرام إلى القدس الشريف، فك الله أسره.

وأراه الله ما أراه، أراه أجزية وعقوبات لأناس كثيرين.

رأى رجالًا تقرض شفاهم بمقاريض من النار، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: الخطباء من أمتك، الذين يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟⁽¹⁶⁶⁾، ورأى عقوبة الذين يغتابون الناس، يخمشون وجوههم بأظافر من نحاس، ثم تعود كما كانت، ثم يخمشونها، وهكذا⁽¹⁶⁷⁾.

رأى ما رأى في طريقه، وفي مسيرته صلى الله عليه وسلم، حتى وصل إلى بيت المقدس، وكان هناك الأنبياء ينتظرونه.

(166) رواه ابن حبان في «صحيحه» عن أنس «الإحسان» (53)، وذكر محققه أن له متابعات ترتقي به إلى الصحة، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (645/2 - 646)، الحديث (1382).

(167) رواه أحمد في «مسنده» (224/3)، ورواه أبو داود في الأدب (4878)، عن أنس بسند صحيح، وروي مرسلاً، ولكن السند أصح كما قال الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (141/3)، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (743/2)، الحديث (1710).

ثم من هناك صعد إلى السموات العلى، إلى حيث ناجى ربه عز وجل، وفرض عليه الصلوات، كانت في أول أمرها خمسين صلاة، ولكنه بمشورة من أخيه موسى سسس ظل يراجع ربه، فخففها من خمسين حتى بلغت خمسًا، وقال الله تعالى: «**ما يبذل القول لدي هي في العمل خمس وفي الأجر خمسون**»⁽¹⁶⁸⁾.

كانت هذه بداية فرضية الصلوات، عمود الدين، التي هي الصلة اليومية بين الإنسان وربّه، هي المعراج اليومي للمؤمنين.

إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عرج به إلى السموات العلى، فالصحيح أنه أسري به، وعرج به، بجسده وروحه معًا، ولا بعيد على قدرة الله عز وجل، إن البشر استطاعوا - بوسائلهم الخاصة، وبما علمهم الله ما لم يكونوا يعلمون - أن يطووا المسافات، ويختصروا الأزمان، ويصلوا إلى القمر، فكيف يصاحب القدرة التي لا تقهر؟! بمن لا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض؟! لا نستبعد عليه أن يسري برسوله، وأن يعرج به إلى السموات العلى، جسمًا وروحًا⁽¹⁶⁹⁾.

(168) راجع حديث المعراج الذي رواه البخاري في كتاب «الصلوة» باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء رقم (349)، ورواه مسلم في كتاب «الإيمان» باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم رقم (162).

(169) انظر تحقيق القول في هذه المسألة «الجزء الثاني» من كتاب الأستاذ/ محمد الصادق إبراهيم عرجون، المشار إليه آنفًا، حيث أكد إجماع الصحابة ومن بعدهم من سلف العلماء، على أن الإسراء والمعراج كان بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو في أكمل حالات بشريته روحًا وجسدًا، ومن أقوى الدلائل على ذلك: أن النبى صلى الله عليه وسلم عندما أعلن ذلك بين قريش فتن بعض الذين أسلموا، وارتد من ارتد، ولو كان بالروح

عرج به حتى فرض الله عليه في السموات هذه الصلوات، وكان هذا فضلاً لهذه الفريضة على غيرها من الفرائض والشعائر، فالفرائض كلها فرضت في الأرض، وهذه الصلاة فرضت في السماء، دلالة على مكانتها في دين الله، دلالة على منزلتها، وأنها عماد الدين، من أقامها فقد أقام الإسلام، ومن هدمها فقد هدم هذا الدين.

الصلاة هي معراج كل مؤمن إلى ربه، تستطيع أن ترقى إلى الله يومياً بهذه الصلوات، التي تنتزعك من دنيا الناس، مما عليه يتصارع الناس، تنتزعك من دنيا الغفلة، من دنيا الصراع، إلى حيث تقف بين يدي ربك تناجيه، فتتاجي قريباً غير بعيد، وتساله، فتسأل كريماً غير بخيل، وتستعينه، فتستعين قوياً غير ضعيف، وكأنك تسمع له، وهو يقول في الحديث القدسي: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدى ما سأل، إذا قال العبد: {أَحْمَدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قال الله: حمدني عبدي، فإذا قال: {الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} قال: أثنى علي عبدي، فإذا قال: {مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ} قال: مجدني عبدي، فإذا قال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدى ما سأل، فإذا قال: {أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} قال هذا لعبدى ولعبدى ما سأل»⁽¹⁷⁰⁾، هناك

فقط، أو رؤيا رآها النبي لما كان في ذلك غرابة، فالإنسان العادي يرى في المنام ما لا يخطر ببال أحد.

(170) رواه مسلم، ومالك، وأحمد، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وغيرهم «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (426/1)، الحديث (803)، وقوله: «قسمت الصلاة» يعني القراءة أو الفاتحة، بدليل تفسيره بها، وقد تسمى القراءة صلاة، لكونها جزءاً من أجزائها.

تجاوب بين الله وبين عبده المصلى.

إن التحفة والهدية والذخيرة التي بقيت لنا من ذكرى الإسراء والمعراج، هي هذه الصلوات.

الصلوات التي نرى كثيرًا من المسلمين يفرطون فيها، ويضيعونها {...} **أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا** {مریم: 59} [171].

نرى من أبناء المسلمين، ممن يتسمى بأسماء المسلمين ... بأسماء الأنبياء ... بأسماء الصحابة، من اسمه محمد وأحمد، وعلي، وعمر، وحسن، وحسين، ومع هذا لا يعرفون المساجد، ولا يحنون لله راعين، ولا يعفرون الجباه لله ساجدين، أهذا من الإسلام في شيء.

الصلوة بقية الإسراء والمعراج.

وكذلك بقي لنا من الإسراء والمعراج شيء مهم: هو الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

ربط الله بينهما في كتابه، في هذه الآية الكريمة، التي بدئت بها سورة الإسراء، وذلك حتى لا يفصل المسلم بين هذين المسجدين، ولا يفرط في واحد منهما، فإنه إذا فرط في أحدهما أوشك أن يفرط في الآخر.

إذا تركنا المسجد الأقصى تأخذه «اليهود»، وبيعت به «اليهود»، ويعمل على تهديمه «اليهود»، ليقموا مكانه «هيكل سليمان»، إذا فرطنا في المسجد الأقصى، فلا يبعد أن نفرط يومًا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم،

(171) ومطلعها: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ}.

أو في المسجد الحرام.

ولليهود أطماع في المدينة، حيث كان هناك: بنو قينقاع، وبنو قريظة، وبنو النضير.

لهم أطماع في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا تستبعدوا شيئاً، كنا نستبعد ما وقع الآن حتى وقع، كل ما نراه الآن، كان عندنا قديماً شبيه مستحيل، ولكن الأجيال التي تنشأ اليوم على ما تراه، أصبح هذا الأمر واقعاً عندها، لا تستبعدوا شيئاً إذا نحن غفلنا وفرطنا.

ربط الله بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى، حتى لا تهون عندنا حرمة المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله، وإذا كان قد بارك حوله، فما بالكم المباركة له هو؟!!

إذا كان ما حوله مباركاً، الأرض التي حوله كلها أرض مباركة، أرض النبوات ... أرض الذكريات، وصفها الله في القرآن بالبركة في جملة مواضع، كما قال عز وجل في إبراهيم: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 71].

إنها أرض النبوات، الأرض التي رواها الصحابة والتابعون بدمائهم، وسقط فيها الشهداء، لا ينبغي للمسلمين أن يفرطوا فيها، أو يضيوعها.

مما نتعلمه من رحلة الإسراء والمعراج، أن الله قد ربط بين المسجدين: المسجد الحرام والمسجد الأقصى.

المسجد الأقصى أحد المساجد الثلاثة، التي لا تشد الرحال إلا إليها، كما جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد

- أي للصلاة فيها قصداً، كل المساجد بعد ذلك تتساوى - المسجد الحرام، ومسجدي هذا - أي مسجده صلى الله عليه وسلم - والمسجد الأقصى» (172).

فعلينا أيها المسلمون: أن نتذكر قضية المسجد الأقصى ولا ننساها، لا ينبغي أن يصبح الأمر الواقع مفروضاً علينا، ونتقبل هذا بهزيمة نفسية منكرة، ويصبح اليهود سادة المسجد الأقصى، وسادة أرض النبوات.

إن علينا أن نجاهد، حتى نسترد هذا المسجد، حتى نسترد القدس الشريف، حتى نسترد الأرض التي بارك الله فيها للعالمين، وهي أرض الإسلام، وهي جزء من دار الإسلام، ووطن الإسلام، لا يجوز لأحد أن يفرط فيه، أو يبيعه، أو يخونه.

حتى لو أن الفلسطينيين أنفسهم تخلوا عن هذا الوطن الإسلامي، عن هذه الأرض المقدسة، لوجب على المسلمين أن يدافعوا عنها، لأن هذه الأرض الطيبة المباركة، ليست أرض الفلسطينيين وحدهم، ولا أرض الأردنيين وحدهم، ولا أرض العرب وحدهم، ولا أرض المسلمين المعاصرين وحدهم بل هي أرض الإسلام، أرض الأمة الإسلام في مختلف أجيالها.

فلو أن هذا الجبل فرط، أو ضيع، أو خان، فإن الأجيال التالية ستلغنه، وستحاول أن تتدارك ما فات، ولا بد أن يأتي يوم يقاتل المسلمون فيه، عن إيمان و يقين.

(172) حديث صحيح، رواه أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه عن أبي هريرة، ورواه أحمد، والبخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه عن أبي سعيد، ورواه ابن ماجه عن ابن عمرو «الجامع الصغير» للسيوطي (201/2).

لا بد من يوم تقع فيه المعركة مع اليهود، يكون فيها النصر المؤزر للإسلام، هذا ما جاء في «الصحيح» عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود» (173).

وإننا لهذا اليوم لمنتظرون، وما ذلك على الله بعزيز {... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ 4 بَنَصَرَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ 5 وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [الروم: 4 - 6].

أقول قولي هذا، واستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

هناك فتاتان من القلبين أسلمتا، وهما تصليان معنا الآن عند الأخوات، أرجو من الأخوات المصليات أن يبادرن بمصافحتهما والسلام عليهما، وإشعارهما بروح الأخوة الإسلامية. وإن واجبا علينا نحن المسلمين، أن

(173) حديث قتال المسلمين اليهود رواه البخاري في كتاب «الجهاد»، ورواه مسلم في كتاب «الفتن وأشراف الساعة» وهذا لفظه، وقد رواه عن أبي هريرة وابن عمر من أكثر من طريق، وقد أوضح الشيخ القرضاوي - في فتوى له - ما تضمنه هذا الحديث من معانٍ، وأجاب عن بعض التساؤلات التي تثار حوله، انظر: «فتاوي معاصرة» (68/2 - 72).

نعمل على أن يدخل هؤلاء الذين يعملون في دورنا وبيوتنا إلى الإسلام.

كان الأولى أن نستقدم المسلمين والمسلمات، فهم أولى، كما جاء في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»⁽¹⁷⁴⁾.

أما وقد أصبح مئات وآلاف من هؤلاء في بيوت المسلمين، فعلى المسلمين أن يبلغوهم دعوة الإسلام، عليهم أن يعرضوا عليهم هذا الدين، فقد يجدون كثيراً من الاستجابة.

كثير من هؤلاء ليسوا على دين حقيقي، بل هو دين وراثي، إذا وجدوا من يشرح لهم الإسلام شرحاً مبسطاً ميسراً، يعرفهم حقيقة هذا الدين، دون تكلف أو تعمق، العقيدة الإسلامية الواضحة، عقيدة التوحيد، الشعائر الإسلامية الميسرة، الأخلاق الإسلامية، الأخوة الإسلامية، هذه كلها ينبغي أن تعرض على هؤلاء قولاً وفعلاً، فعسى أن نجد منهم من يستجيب و«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم»⁽¹⁷⁵⁾، «... خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت»⁽¹⁷⁶⁾ {وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ

(174) حديث صحيح، رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن أبي سعيد «الجامع الصغير» (201/2).

(175) أخرجه البخاري عن سهل بن سعد في «كتاب فضائل الصحابة» باب مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، و«حمر النعم» هي الإبل الحمراء اللون، وكان العرب يعتبرونها من أنفس الأموال.

(176) رواه الطبراني في «الكبير» عن أبي رافع، وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير» (122/2)، ونصه كاملاً: «لأن يهدي الله على يدك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت».

وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [قصص: 33].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحاة زيادة لنا من كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم أعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، وانصرنا على أعدائك أعداء الدين، اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على الصليبيين، اللهم انصرنا على الشيوعيين، اللهم انصرنا على الملاحدة والمنافقين، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الدين، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

عباد الله: يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الاحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه والتابعين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ

يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ { [العنكبوت: 45].

* * *

ليلة النصف من شعبان

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نحن الآن في شهر شعبان، مضى شهر رجب وهو من الأشهر الحرم التي عظم الله تعالى شأنها في كتابه: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الْدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ} [التوبة: 36].

مضى رجب وجاء شعبان، ويأتي بعد شعبان رمضان، أشهر من أشهر الله سبحانه وتعالى، ليس رجب شهر الله وحده، كما جاء في حديث لا يثبت ولا يصح: «**رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي**» (177) ليس هذا بصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، الشهور كلها شهور الله، والشهور كلها شهور الأمة، هو شهر الأمة لمن ينتفع به.

شعبان شهر كان النبي صلى الله عليه وسلم يصوم فيه أكثر مما يصوم في غيره من الشهور، وكانت سنة النبي صلى الله عليه وسلم كما رواها عنه

(177) هو حديث منكر وضعيف جداً، بل قال كثير من العلماء إنه موضوع، يعني أنه مكذوب، فليس له قيمة من الناحية العلمية ولا من الناحية الدينية «فتاوي معاصرة» للشيخ القرضاوي: (384/1)، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» بطرق عديدة، وكذا الحافظ ابن حجر في كتاب: «تبيين العجب فيما ورد في رجب» «كشف الخفاء» للشيخ إسماعيل العجلوني، وانظر: «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية» للشوكاني (ص439)، ط. دار الكتب العلمية ببيروت، بتحقيق عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وعبد الوهاب عبد اللطيف.

أصحابه أنه كان يصوم حتى يقال إنه لا يفطر، ثم يفطر أيامًا تطول حتى يقال لا يصوم⁽¹⁷⁸⁾، وكان أكثر ما يصوم في شعبان، كان يصوم أكثره، بل في بعض الروايات أنه كان يصومه كله، ولكن روايات أخر تقول: إنه ما استكمل صيام شهر قط غير رمضان⁽¹⁷⁹⁾، وروى عنه أسامة بن زيد أنه سأله: يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان، قال: «ذاك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر ترفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، وأحب أن يرفع عملي وأنا صائم»⁽¹⁸⁰⁾. كما صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع، وفي بعض الأحاديث أنه سئل⁽¹⁸¹⁾ عن سر الحرص على صيامهما فقال: «ذاك يومان تعرض فيهما الأعمال على رب العالمين، وأحب أن يعرض عملي، وأنا صائم». فالصيام يقرب العبد من الله سبحانه وتعالى، ويجعله أهلاً لاستجابة دعوته وتقبل عمله.

من هنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على كثرة الصيام في شهر شعبان، الذي يغفل الناس عنه بين رجب الشهر الحرام وبين رمضان الشهر

(178) ونص الحديث الذي رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود: «كان يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول: لا يصوم ...». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (318/1)، الحديث (532).

(179) فعمل المراد بها: أنه لم يكن يواظب على صيام شهر كامل إلا رمضان، أما غيره فربما أتمه، وربما أفطر بعضه، وانظر: «فقه الصيام» للشيخ القرضاوي (ص124، 125).

(180) رواه النسائي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (318/1)، الحديث (531).
(181) سأله أسامة بن زيد رضي الله عنه في حديث رواه أبو داود (2436)، والنسائي (201/4، 202).

المكرم، شهر القرآن، ومن هنا جاء فضل شعبان أنه يشرع فيه الصيام، وعلى من فاتته شيء من رمضان، كأن كان مريضاً أو مسافراً، أو كانت امرأة فاتها شيء بحكم الدورة الشهرية في رمضان، عليها أن تتدارك قبل أن يأتي رمضان القادم.

يسأل كثير من الناس: هل يجوز قضاء ما فات الإنسان من رمضان في شعبان؟ نعم يجوز⁽¹⁸²⁾، وإذا لم يكن قد قضى ما فاتته خلال عشرة أشهر ماضية، فعليه أن يتدارك الأمر، ويقضي ما فاتته في شهر شعبان، فإن أحداً لا يضمن عمره، وإن أحداً لا يضمن صحته، فالصحيح قد يمرض، والحي قد يموت، بل كل امرئ وكل نفس ذائقة الموت.

هذا هو شهر شعبان، أما ما جاء عن ليلة النصف منه، فقد وردت أحاديث ردها بعض العلماء جميعاً، وقالوا: لم يصح فيها شيء، كالإمام ابن الجوزي والإمام ابن العربي، وهناك من حسن بعض أحاديثها، كحديث معاذ بن جبل: «يطلع الله إلى جميع خلقه ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه، إلا لمشرك أو مشاحن»⁽¹⁸³⁾.

يطلع الله عليهم اطلاق رحمة ومغفرة، ينظر إليهم نظرة مغفرة وعطف، ونظرة إلى الخلق جميعاً دائم، وهو لا يغفل عنهم طرفة عين، ولا ينام عن

(182) أجاب الشيخ القرضاوي عن هذا السؤال بالتفصيل في «فتاوي معاصرة» (340/1 - 341).

(183) رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، ورجالهما ثقات، وابن حبان في «صحيحه»، وانظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (318/1 - 319)، الحديث (533).

عباده، إنما النظر هنا والإطلاع هنا، اطلاع رحمة ومغفرة وعناية خاصة. يطلع عليهم هذه الليلة فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن، أما المشرك فقد قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ} [النساء: 116]، وأما المشاحن فهو الذي تكون بينه وبين أخيه المسلم شحناء، خصومة، عداوة، قطيعة، جفوة، هذا يحرم من المغفرة، يحرم منها في كل أسبوع.

في يوم الإثنين ويوم الخميس، أو ليلة الإثنين وليلة الخميس، حيث يغفر الله تعالى لجميع خلقه إلا من كانت بينه وبين أخيه شحناء فيقول: أنظروا هذين حتى يصطلحا ... انظروا هذين حتى يصطلحا ... أنظروا هذين حتى يصطلحا (184).

هكذا في الموسم الأسبوعي، ثم يأتي هكذا في شهر شعبان في ليلة النصف، أي أن أبواب المغفرة موصدة، مغفلة أمام هؤلاء الذين لم يصفوا قلوبهم من الأحقاد، هؤلاء الذين لم يعرفوا معنى الصفاء والنقاء، الذين لا يدعون بهذا الدعاء: {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

(184) إشارة إلى الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة: «تفتح أبواب الجنة يوم الإثنين والخميس، فيغفر لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً، إلا رجلاً كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: انظروا هذين حتى يصطلحا، انظروا هذين حتى يصطلحا» يعني أخروهما، قال أبو داود: إذا كانت الهجرة لله فليس من هذا في شيء، فإن النبي صلى الله عليه وسلم هجر بعض نسائه أربعين يوماً، وابن عمر هجر ابناً له إلى أن مات. «المنتقى» للقرضاوي: (2/729 - 730)، الحديث (1666).

سلامة الصدر من الضغائن والأحقاد أمر أساسي في الإسلام فالإسلام يقيم حياة الناس على أمرين: على أن يحسنوا صلتهم بربهم الذي خلقهم فسواهم، وعلى أن يحسنوا الصلة بين بعضهم وبعض، بحيث تقوم على الأخوة ... على المحبة، إن لم تقم على الإيثار: {... وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ} [الحشر: 9]. كما كان الصحابة رضوان الله عليهم، وإن لم تقم على هذا المعنى العظيم الذي جاء في الحديث: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»⁽¹⁸⁵⁾ إن لم تقم على هذا وذاك، فلتقم على سلامة الصدر من الحقد، من الضغينة، من الغل، من الحسد والبغضاء، داء الأمم من قبلنا، كما جاء في الحديث: «دب إليكم داء الأمم قبلكم: الحسد والبغضاء هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين»⁽¹⁸⁶⁾.

هكذا علمنا النبي صلى الله عليه وسلم وحذرنا، فلماذا يعيش الناس ... لماذا يصبحون ويمسون ويضحون، وقلوبهم مليئة بهذه الأمراض؟ بهذه الأوبئة الفتاكة التي تعمل في قلوب الناس وأرواحهم أكثر مما تعمل الأمراض والأوبئة الحسية بالأجساد؟ إنها داء الأمم ... داء المجتمعات.

ألا ما أجمل أن يعيش الإنسان نقيًا صافيًا! علام يتباغض الناس؟ ... على الدنيا؟ والله إن الدنيا لأهون من أن يتقاتل عليها الناس، الدنيا تسعك وتسع

(185) رواه البخاري، ومسلم وغيرهما عن أنس رضي الله عنه «المنتقى» (514/2)، الحديث (998).

(186) أخرجه أحمد والترمذي، وإسناده ضعيف، لكن له شواهد يتقوى بها، وذكره الهيتمي في «المجمع» (30/8)، ونسبه البزار، وقال المنذري: سنده جيد، انظر: «شرح السنة» للبعوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (117/13)، الحديث (3538)، و«المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (716/2)، الحديث (1615).

أخاك، فلماذا تضيق ما وسع الله؟ لن يأكل أحد رزقك، كما لن تأكل رزق أحد.
 علام يتحاسد الناس؟ ... على الدنيا؟ وهي لا تزن عند الله جناح بعوضة!
 فليت شعري على أن جزء من جناح البعوضة يتقاتلون ويتباغضون؟

يأتي الإثنين ويأتي الخميس، وتأتي الجمع والأشهر، ويأتي النصف من
 شعبان، ويأتي رمضان، والأحقاد كما هي، يغفر الله لمن يشاء أن يغفر لهم،
 ولكنه يؤخر أهل الحقد كما هم، أهل الحسد والبغضاء الذين لا تصفى الأيام
 سرائرهم، الذين لا تنقي الأحداث ضمائرهم لا يتسامحون ... لا يعفون ... لا
 يغفرون {أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ...} [النور: 22].

لما فعل ما فعل بعض الناس - مثل مسطح وغيره - الذين أشاعوا الإفك
 عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقالوا فيها أسوأ ما يقال عن امرأة
 عفيفة طاهرة من بيت أكرم خلق الله، حلف أبو بكر رضي الله عنه أنه لن
 يعطف على هؤلاء ... لن ينالهم شيء من فضله ورفده، وقد كان يعطيهم
 ويودهم ويبسط يده إليهم، ولكنهم قابلوا المعروف بالانكران، وقابلوا بالإساءة
 الإحسان، ولكن القرآن نزل يعلم المسلمين ما هو أعظم من غل النفوس،
 وغضب القلوب، نزل يرتقي بمستوى المؤمنين، فلا ينبغي أن ينزل أبو بكر
 إلى هذا الحضيض، وأن يعامل الناس بمثل أعمالهم، وجاء في ذلك قوله
 تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ
 وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ
 غَفُورٌ رَحِيمٌ} [النور: 22]، فلما نزلت الآية قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه:

بلى نحب أن يغفر الله لنا.

هذا درس ينبغي أن نتعلمه من ليلة النصف من شعبان، ومن يوم الإثنين والخميس، حيث يغفر الله تعالى لكل عبد لا يشرك بالله شيئاً إلا امرءاً كانت بينه وبين أخيه شحناء.

جاء في الحديث الآخر: «ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبراً»⁽¹⁸⁷⁾ كناية عن عدم قبولها، فلا ترتفع ولا تصعد إلى الله {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ} [فاطر: 10]، ولكن هناك أعمالاً ترد على أصحابها فلا تعلق، هناك شيء يجذبها إلى الأرض، لأنها من جنس طينها ملوثة، من هؤلاء الثلاثة: «وأخوان متصارمان» متقاطعان ... متخاصمان، فانظروا كم يخسر الإنسان بخصومته ... بعداوته.

لم يرخص لنا الشارع إلا في ثلاثة أيام، تنطفئ فيها ثورة الغضب، حينما قال صلى الله عليه وسلم: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»⁽¹⁸⁸⁾.

لم يأت في ليلة النصف من شعبان تخصيصها بقيام، ولا تخصيص نهارك بصيام، ولا تخصيصها بدعاء خاص، وصلوات خاصة، كالتي رأينا الناس يفعلونها.

(187) رواه ابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (182/1)، الحديث (229). وتتمة الحديث: «رجل أم قومًا وهم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وأخوان متصارمان».

(188) رواه مالك والبخاري، ومسلم، والترمذي، وأبو داود «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (728/2 - 729)، الحديث (1661).

رأينا الناس من قديم يخصون هذه الليلة بالقيام، ونهارك بالصيام، ولم يصح في ذلك حديث، ولا يجوز أن تكون الأحاديث الضعيفة والواهية مدرگا لمثل هذه الأعمال والتعبادات، فإن الأصل في العبادة المنع إلا ما جاء النص الصحيح الصريح بالإذن به، حتى لا يشرع الناس في الدين ما لم يأذن به الله، فكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة.

كنت أرى الناس في صغرى يحتفلون بليلة النصف من شعبان، ويعتبرونها موسمًا من المواسم الإسلامية، يذبحون فيها الذبائح، ويجتمعون في المساجد يقرأون سورة «يس» وليس لهذا أصل، ثم يصلون ركعتين بنية طول العمر! وركعتين أخريين بنية الغنى عن الناس! ويقرأون دعاء مليونًا بالتناقض⁽¹⁸⁹⁾، ففيه: اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًا أو محرومًا أو مطرودًا أو مقتدرًا علي في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي، وحرمانى وطردى، وإقتار رزقى، واثبتني عندك في أم الكتاب سعيدًا مرزوقًا موفقًا للخيرات كلها، فإنك قلت وقولك الحق في كتابك المنزل وعلى لسان نبيك المرسل: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ^ط أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: 39].

وهذا كلام ينقض آخره أوله، لأنه يقول: {يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ^ط وَعِنْدَهُ^ط أُمُّ الْكِتَابِ} أي أن أم الكتاب لا محو فيها ولا إثبات، وفي الأول يقول: «إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًا. فامح اللهم بفضلك شقاوتي» كيف يستقيم هذا الكلام؟! وأي دعاء هذا الذي يقول فيه: إن كنت فعلت كذا فامح كذا، أو افعل كذا، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرنا إذا دعونا أن نجزم

(189) عرض الشيخ القرضاوي لهذا الدعاء وبين بطلانه وتناقضه بالتفصيل في فتويين له في كتاب «فتاوي معاصرة» (379/1 - 383).

المسألة فقال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، اللهم ارزقني إن شئت، ليعزم مسألته فإنه يفعل ما يشاء لا مكره له»⁽¹⁹⁰⁾، لا ينبغي أن نقول: إن شئت ... إن كنت كتبتني، لا، قل اللهم اغفر لي وارحمني واجعلني من السعداء.

وفي هذا الدعاء أيضاً يقول القائل: إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شعبان المكرم، التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم، وهذا خطأ، فالليلة التي يفرق فيها كل أمر حكيم هي ليلة القدر كما جاء في سورة «الدخان»: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبْرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ 3 فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ 4 أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [الدخان: 3 - 5]، والليلة التي أنزل فيها القرآن هي نفس الليلة التي قال فيها: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ} [القدر: 1] وهي بالنص والإجماع في شهر رمضان، كما قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ} [البقرة: 185].

ما أوجنا إلى أن ندعو الله تعالى في كل وقت، ولكن ندعوه بالمأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وندعوه بما ورد به القرآن، وما أكثر ما ورد في القرآن من أدعية تنشرح بها الصدور، وتطمئن بها القلوب، كخواتيم سورة البقرة، وخواتيم سورة آل عمران، وأدعية الأنبياء وغيرهم من المؤمنين والربانيين في القرآن.

لم يرد في ليلة النصف من شعبان تخصيصها بشيء من هذا، كل ما ورد

(190) متفق عليه من حديث أبي هريرة «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: (193/5)، الحديث (1392).

عن نصف شعبان حادثة عظيمة جرت فيه في السنة الثانية من الهجرة، وهي تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة، من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، وكانت هذه أمنية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كان قبل ذلك يصلي إلى بيت المقدس كما كان الأنبياء قبله يصلون، وكان وهو في مكة يحاول أن يجمع بين الأمرين، فكان يصلي بين الركعتين: بين الحجر الأسود والركن اليماني، فتكون الكعبة أمامه ويكون أيضاً بيت المقدس أمامه، ولكنه تعذر عليه ذلك حينما هاجر إلى المدينة، فكان يتمنى من قلبه أن يوجه إلى قبلة أبيه إبراهيم، باني البيت ورافعه، وابنه إسماعيل، والنبي صلى الله عليه وسلم وارث ملة إبراهيم ومتبعها {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} [النحل: 123].

كان يتمنى ذلك وينتظر الوحي، وينظر إلى السماء دون أن ينطق لسانه بشيء، أدباً مع الله سبحانه وتعالى، حتى هيا الله له ما أحب ورضى، ونزل في ذلك قوله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا...} [البقرة: 144] انظروا إلى هذا الحب: حقق له ما يرضاه في الدنيا، ووعده بإعطاء ما يرضاه في الآخرة، انظروا إلى هذه العبارة الندية في آية أخرى حيث قال له: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى} [الضحى: 5]، وهنا قال له: {...} فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ} [البقرة: 144]، وجهه إلى القبلة التي كان يتمناها ... إلى البيت الحرام ... إلى قبلة إبراهيم سسس.

وهنا ثارت ضجة، أثارها اليهود في المدينة، أقاموا الدنيا ولم يقعدوها: إن

محمدًا له كل يوم رأي، وكل يوم قبلة، كيف اتجه إلى الكعبة وكان من قبل يتجه إلى بيت المقدس؟ إن كان ما مضى باطلًا فإن صلاة من صلى قبل ذلك ضائعة، وإن كان حقًا فكيف غير هذا الحق اليوم؟ ونزل القرآن الكريم يرد على هؤلاء، نزلت آيات كثيرة تمهد لهذا الأمر، وتقرر أولاً حق الله تعالى في نسخ ما يشاء من الأحكام والآيات، كما قال تعالى: {مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [البقرة: 106].

ثم من ناحية أخرى حملت على هؤلاء السفهاء الذين ينتهزون أي فرصة لإثارة الشبهات واختلاق الأقاويل بلا علم ولا بينة، وردت عليهم فأفحمتهم، قال تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِمْ قُلِ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 142]، المشرق والمغرب لله ... الجهات كلها لله تستوي صخرة بيت المقدس أو الكعبة في مكة، كلها لله عز وجل، الله هو الذي يخصص ويأمر، وإلا فالجهات مستوية، كما قال تعالى في نفس السورة: {وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ} [البقرة: 155] فهو سبحانه من حقه أن يخصص الجهة التي يريد بها ويحبها لخلقه {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [البقرة: 142]، وقد هدى هذه الأمة إلى أحسن الجهات، اختار لهم أفضل الأماكن ... أول بيت وضع للناس ليتجهوا إليه، وليكونوا متعلقين بأبي الأنبياء إبراهيم سسس، وليجدوا ملته في التوحيد ومحاربة الأوثان والأصنام.

ومن هنا ذكر القرآن هذه الوسطية ... وسطية هذه الأمة {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ...} [البقرة: 143] فهم وسط في كل شيء: في الاعتقاد، وفي التعبد، وفي الأخلاق، وفي

السلوك، وفي التشريع، حتى القبلة يقول عنها العلماء والباحثون اليوم: إن الكعبة البيت الحرام تعتبر وسط العالم، وسط الدائرة، مركز الدائرة، سرّة العالم، هكذا أثبت الأستاذ حسين كمال الدين.

أما لماذا كانت الكعبة ثانيًا وبيت المقدس أولًا، فهذا سر الابتلاء، ولهذا يقول القرآن: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ} [البقرة: 143].

لا بد من امتحان كما حدث في الإسراء والمعراج، لا بد من تنقية الصف قبل مرحلة الجهاد المقبلة التي يواجه المسلمون فيها أعداء كثيرًا: الجبهة الوثنية، والجبهة اليهودية، والجبهة النصرانية، والجبهة المجوسية، وجبهة المنافقين، لا بد من صف مؤمن متماسك كالبنيان المرصوص، فلا بد من امتحان يميز الله فيه الخبيث من الطيب {لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ...} المؤمن يقول: سمعنا وأطعنا، والمذبذب ينقلب على عقبيه لأدنى شيء، فهذا لا خير فيه.

{... وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ} [البقرة: 143] كان هذا التحويل شاقًا بما صحبه من تهاويل، ولكن الذين هداهم الله بالإيمان استقبلوه بنفوس مطمئنة، وعرفوا أن هذا من حق الله سبحانه وتعالى.

{وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة: 143] الذين صلوا قبل ذلك نحو بيت المقدس لم تضع صلاتهم، صلاتهم كانت صحيحة في وقتها، ولو صلوا بعد هذه الآية إلى بيت المقدس لبطلت صلاتهم، لأن كل حكم صحيح في وقته، فإذا نسخ فلا يجوز أن يعمل به.

ثم بين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك أن المهم في الأمور كلها هو صدق التوجه إلى الله، البر الحقيقي هو بر العقيدة وبر الخلق وبر السلوك، ولهذا رد على اليهود الذين يقفون عند الرسوم والشكليات بقوله: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ} [البقرة: 177] ما سر هذه الضجة {وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [البقرة: 177].

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا بر العقيدة، وبر العبادة، وبر الأخلاق، وبر السلوك، إنه سميع قريب، ادعوا ربكم يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إن همومنا نحن المسلمين كثيرة ومصائبنا شتى، ولا ندري ما المخرج من هذه المصائب التي تتوارد علينا؟ أصبحنا هدفاً لكل السهام، لكل النبال، تنوشنا من كل جانب.

القوى الكبرى تضربنا عن يمين وشمال، ومن شرق وغرب، الشيوعية متمثلة في روسيا تضربنا في أفغانستان، والرأسمالية متمثلة في أمريكا تضربنا في ليبيا، والصليبية التي يعاونها هؤلاء وهؤلاء تضربنا في الفلبين مرة، وفي إريتريا مرة أخرى، وفي فلسطين، وفي لبنان، عمن نتحدث؟ إنها مصائب كثيرة ... إنها بلايا شتى، ما العمل؟ سنظل نضرب، وسنظل نطعن،

وسيظل أعداؤنا يطمعون فينا ما دمنا متمزقين ... ما دمنا متفرقين، الألف مليون لن تكون لهم قوة إلا إذا اتحدوا، الاتحاد يقوى القلة، والتفرق يضعف الكثرة.

ولا يمكن أن نتحد إلا إذا اتحدنا على الإسلام، لا وحدة لنا بغير الإسلام، إذا لم نتناد بالإسلام منهاجًا وشريعةً ونظامًا لحياتنا، وأساسًا لوجودنا، سنفترق يمينًا ويسارًا وشرقًا وغربًا، هذا يوالي هؤلاء وهذا يوالي أولئك، وهذا قبلته هنا، وهذا قبلته هناك.

نريد القبلة الواحدة، نريد أن نتجه كلنا إلى الكعبة رمز التوحيد، نريد أن يكون قائدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، نريد أن يكون كتابنا هو القرآن الكريم، نريد أن تكون شريعتنا ومنهاجنا الإسلام، بهذا وحده نتحد ونصبح قوة تنصر الصديق، وترهب العدو، وإلا فلا منجاة لنا، سنظل ندور وندور كالحمار في الرحي أو الثور في الساقية، والمكان الذي انتهينا إليه هو الذي ابتدأنا منه.

لا بد من عمل، والعمل الأساسي أن توحد هذه الأمة على الإيمان والإسلام، على أن تسير خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم، تلتمس القدوة وتلتمس الهدى والنور، وتتخذ كتاب الله أساسًا لحياتها، ولا تتخذ مهجورًا، حتى لا يخاصمها النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: **يُرَبِّبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** {الفرقان: 30}، هذا وحده هو سبيل الخلاص، ولا سبيل سواه، هذا وحده هو طوق النجاة ولا طوق غيره، وبدون هذا لن تنتج المؤتمرات، ولا الاجتماعات، ولا البرقيات، ولا الاستنكارات، لن ينتج هذا كله شيئًا.

لا بد من عودة حقيقية إلى الله ... أن نضع أيدينا في يد الله ... أن ننتزع الأحقاد والعداوات، إن كان ضروريًا بالنسبة للأفراد، فكيف بأحقاد الجماعات والدول؟ لماذا هذه الأحقاد ... داء الأمم ... الحالقة التي تحلق الدين وتحلق الوجود كله؟ لا بد من عودة الأخوة ... لا بد من عودة الصفاء ولا صفاء إلا بالإيمان، ولا أخوة إلا بالإسلام.

اللهم اجمع كلمتنا على الهدى، وقلوبنا على التقى، ونفوسنا على المحبة، وعزائمنا على عمل الخير وخير العمل، اللهم اجعل يومنا خيرًا من أمسنا، واجعل غدنا خيرًا من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ } [آل عمران: 147] اللهم آمين وأقم الصلاة.

* * *

يوم الامتحان الأعظم

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

كلما أقبلت مواسم الامتحانات، ورأيت الطلاب والطالبات منكبين على دروسهم، منهمكين في مذاكرتهم، مشغولين بيوم آت لا ريب فيه، هو يوم الامتحان، يوم يكرم المرء فيه أو يهان، كلما رأيت هذه المواسم ورأيت الانشغال والجد، والاهتمام والحرص، وترقب هذا اليوم بقلق وخوف، نكرني ذلك بامتحان أكبر يغفل الناس عنه ويهملونه، ويضعونه دبر آذانهم، وتحت أقدامهم، ذلك الامتحان الأكبر هو امتحان يوم القيامة.

امتحانات الدنيا مهما تكن نتائجها تهون، الناس يشغلون بها كل الشغل، ينشغل الطالب وأهله، ينشغل الأبناء والبنات، والآباء والأمهات، تنشغل الأسرة كلها بهذه الامتحانات، وتسرع إذا كانت النتيجة حسنة، وتساء وتخزن إذا كانت النتيجة سيئة، فبيت فرح مسرور، وبيت آخر أس حزين، ولكن لماذا يكون السرور؟ ولماذا يكون الحزن؟

السرور لأن الإنسان قد اجتتى ثمرة اجتهاده وجده، فمن حقه أن يفرح، ومن حق أهله أن يفرحوا، وآخر قد جنى نتيجة تفريطه، فمن شأنه أن يحزن وأن يساء، ومن شأن أهله كذلك.

إلا أن امتحانات الآخرة أشد خطراً، وأبقى وأخلد أثراً، امتحانات الدنيا تهون، لأن الامتحان يمكن أن يعوض، يمكن أن يكون له ملحق، أن يكون له

دور ثان، يمكن أن يعيد السنة ويستدرك ما فات.

صحيح أن هناك فرقاً بين السابقين واللاحقين، والمتفوقين والمتأخرين، ولكن الأمور يمكن أن تتدارك، لكن امتحان الآخرة لا تدارك فيه، هناك يوم لا ريب فيه، يمتحن فيه المكلفون جميعاً، عربهم، وعجمهم، ذكورهم وإناثهم، غنيهم وفقيرهم، حكامهم ومحكوموهم، فهم جميعاً يمتحنون في هذا اليوم، فماذا قدموا لهذا اليوم، هل زرعوا فهم يحصدون؟ هل غرسوا فهم يجتنبون؟ أو فرطوا واضاعوا؟ اليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل، اليوم الغرس وغداً اجتناء الثمرات، اليوم الزرع وغداً الحصاد، وقد قال القائل:

إذا أنت لم تزرع وأبصرت ندمت على التفريط في زمن
وهذا هو زمن البذر، الدنيا مزرعة الآخرة، فمن أراد أن يحصد غداً
فليزرع اليوم ... فليقدم لنفسه قبل أن يأتي يوم الامتحان، وهو يوم لا غش فيه.
إذا كان الناس يغشون في امتحان الدنيا، ويتعاون بعضهم على الإثم
والعدوان، فليس في امتحان الآخرة غش، وليس فيه مساعدة، لا يساعد أحد
أحدًا، لا يساعد الابن أباه، ولا الأب ابنه، ولا الزوج زوجته، ولا الصديق
صديقه، كل إنسان مشغول بنفسه، كما قال الله تعالى: {فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ 33
يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ 34 وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ 35 وَصُحْبَتِيهِ وَبَنِيهِ 36 لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ
يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: 33 - 37]، كل إنسان يقول: نفسي نفسي... لا يجزي
والد عن والدته ولا مولود هو جاز عن والدته شيئاً...} [لقمان: 33].

كل يطلب النجاة لنفسه، لا يدري قد ينقص ميزانه حسنة واحدة فكيف
يمنحها لغيره؟ الميزان بالحسنات والسيئات، التعامل ليس بالدرهم والدينار،

ولا بالريال ولا بالدولار، ولكن العملة الوحيدة في ذلك اليوم الحسنات والسيئات، فلا ينفع أحدٌ أحدًا، إنه يوم الأناية المفرطة، يوم الفردية المطلقة، حتى الأبوة، حتى الأمومة، حتى هذه العواطف الحانية لا وجود لها في ذلك اليوم كل يقول: نفسي نفسي ... النجاة النجاة.

جاء في «الصحيح» أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يحشر الناس حفاة عراة فرلا» (غير مختونين) قالت عائشة: فقلت: الرجال والنساء جميعًا ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال: «الأمر أشد من يهتمهم ذلك»⁽¹⁹¹⁾ الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض، كل مشغول بنفسه، قيل: وما شغله⁽¹⁹²⁾؟ قال: {لِكُلِّ مَأْمَرِي مَنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ} [عبس: 37].

أجل، كل مشغول بمصيره: أيسعد سعادة الأبد أم يشقى شقوة الأبد؟ أكون من أهل الجنة أم من أهل النار؟ إنه يوم الحساب الأكبر، يوم الامتحان الأعظم، ولكن الناس في غفلة عن هذا اليوم، الطالب المجد يعد ليوم الامتحان من أول العام، يجتهد ويستذكر ويراجع ويتنبه، حتى يجني الثمرة في النهاية نجاحًا وفلاحًا وتفوقًا يبشر به ويهنأ به، ولكن العاجز الكسلان يتبع نفسه هواها، ويتمنى على الله الأمانى.

(191) رواه البخاري، ومسلم، والنسائي، وابن ماجه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (925/2)، الحديث (2241).

(192) يشير الشيخ إلى حديث سودة بنت زمعة رضي الله عنها وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بيعت الناس حفاة عراة غرلاً، قد أجمعهم العرق، وبلغ شحوم الأذان» فقلت: يبصر بعضنا بعضًا؟ فقال: «شغل الناس لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه». رواه الطبراني، ورواته ثقات. وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عباس وهو ثقة. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (926/2)، الحديث (2243).

وكذلك الناس في الآخرة، هناك من يعد للحساب عدته، من يتهيأ ليوم الامتحان الأكبر، ومن يغفل عن هذا اليوم.

والناس في هذا أصناف ثلاثة:

صنف لا يؤمن بالآخرة، يظن أنه خلق لهذه الدنيا وحدها، لا يؤمن بحساب ولا جزاء ولا جنة ولا نار، أولئك هم الماديون والدهريون والشيوعيون وغيرهم من الملاحدة قديماً وحديثاً، أولئك الذين ظنوا قصة الحياة أرحاماً تدفع، وأرضاً تبلى، ولا شيء وراء ذلك {...نُمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ...} [الجاثية: 24].

هكذا وجد من قديم وحديث أناس يظنون أن هذه الحياة هي كل شيء، هي المبدأ والمنتهى، هي الأولى والآخرة، ولا شيء غيرها، لماذا إذن كان هذا الخلق؟ لماذا إذن كانت هذه الحياة؟ لماذا انتصب هذا السوق؟ إذا كانت هذه الدنيا ستنتهي ولا حياة بعد ذلك ... ولا بعث ... ولا حساب، وقد نهب الناهب، وسرق السارق، وظلم الظالم، وقتل القاتل، وطغى الطاغى، إذا كان كل هؤلاء ستطوى صفحاتهم ولا يجازي أحدهم بما عمل فأين العدل إذن؟ أين الحكمة؟ إن بعض هؤلاء قد فر من عدالة الأرض فأين عدالة السماء؟ قد هرب من عدالة الدنيا، ألا توجد عدالة أخرى؟ بل بعض من هؤلاء من واضعي القوانين وحراسها، حاميتها حراميتها! هؤلاء لم يجاوزوا في الدنيا، أفلا يوجد عدل؟ إذا لم يكن هناك آخرة فلا عدل.

كيف يسوى هؤلاء لظلمة الطغاة بأخرين نصرُوا الحق، وفعلوا الخير، وقاوموا الظلم، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، فأعلن الطغاة حرباً

عليهم، وساموهم سوء العذاب، فشرد من شرده، وعذب من عذب، وقتل من قتل؟

ما الذي يعوض هؤلاء عما قاسوه في الدنيا في سبيل الحق والعدل، إذا لم تكن هناك حياة أخرى؟

أينتهي الأمر بنجاة أهل الباطل والظلم، وإيادة أهل الحق والخير؟ وقد قضى الأمر. وختم الكتاب، وأسدل الستار!!؟؟

هذا هو الباطل الذي يتنزه الله تعالى عنه، هذا هو العبث الذي لا يليق بحكمته وجلاله، ولهذا يقول الله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ 115 فَتَعَلَىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...} [المؤمنون: 115 - 116]، ويقول الله عز وجل: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ 27 أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ} [ص: 27، 28]، لا والله لا يستويان {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ 21 وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} [الجن: 21، 22]، الحق الذي قامت عليه السموات والأرض أنه لا بد من جزاء عادل، لا بد من أن توفى كل نفس ما كسبت وتخلد فيما عملت، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ 7 وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ} [الزلزلة: 7، 8].

هناك عدالة إلهية، هناك قصاص لا بد منه، حتى أنه ليفتص للشاة الجلاء التي لا قرن لها من الشاة القراء، التي اعتدت عليها ونطحتها كما جاء ذلك

في «صحيح مسلم»⁽¹⁹³⁾، دلالة رمزية على أن العدل الإلهي عدل شامل، لا يمكن أن يهرب منه أحد، قسطاس مستقيم وميزان عادل لا جور فيه.

جاء رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إن لي مملوكين يكذبونني، ويخونونني، ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُحَسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصُوكَ وَكَذَبُوكَ، وَعِقَابُكَ إِيَاهُمْ، فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كِفَافًا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ اقْتَصَ هُمْ مِنْكَ الْفَضْلَ» فتنحى الرجل، وجعل يهتف ويبيكي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَمَا تَقْرَأُ قَوْلَ اللَّهِ: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حُسْبِينَ} [الأنبياء: 47]»، فقال الرجل: يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء خيرًا من مفارقتهم، أشهدك أنهم كلهم أحرار⁽¹⁹⁴⁾ ما دامت المسألة بهذا التحديد وهذا التدقيق فليرح نفسه ويعتقهم لوجه الله، لا بد من حساب وميزان لحبة الخردل.

هناك أناس لا يؤمنون بالآخرة، لا يؤمنون بالبعث والحساب، يستبعدون على الله تعالى أن يعيد خلقًا بدأه {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ...} [الروم: 27] {وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَةَ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ

(193) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَتُؤَدَّنَ الْحَقُوقُ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يَقَادَ لِلشَّاةِ الْجِلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقِرْنَاءِ» رواه مسلم، والترمذي «المنتقى من الترغيب والترهيب» (930/2)، الحديث (2259).
(194) رواه أحمد والترمذي، عن عائشة رضي الله عنها. وانظر «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (631/2 - 632)، الحديث (1348).

78 قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ { [يس: 78، 79]، هؤلاء هم الماديون المنكرون للآخرة، وهم الذين قال الله سبحانه وتعالى فيهم: {إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غُفْلُونَ 7 أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [يونس: 7، 8].

هذا صنف من الناس، وهناك صنف آخر يؤمنون بالآخرة، ويؤمنون بأن بعد الموت بعثًا، وأن بعد البعث حسابًا، وأن هناك جنة ونارًا، ولكنهم غافلون عن هذا المصير، غرقوا إلى آذانهم في دنياهم، عاشوا ليومهم ونسوا غدهم، أحبوا الدنيا ونسوا الآخرة، وأحبوا المال ونسوا الحساب، وأحبوا الخلق ونسوا الخالق، وأحبوا القصور ونسوا القبور، هؤلاء مؤمنون بالآخرة، ولكنه إيمان نائم مخدر ضعيف، لا يبعث على عمل، لا يحفز إلى خير، ولا يردع عن شر، ليس هذا هو الإيمان المراد، نريد إيمانًا بالآخرة يدفع إلى عمل الخير، ويزع عن فعل الشر.

أكثرنا للأسف من هذا الصنف الثاني، كلنا يؤمن بأن هناك آخرة، كلنا يؤمن بيوم القيامة، كلنا يؤمن بالجنة والنار، ولكن من منا الذي يذكر ذلك في مصبحة وممساه، وغدوته وروحته، وجلوته وخلوته؟! وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك⁽¹⁹⁵⁾.

(195) رواه البخاري، وروى الترمذي والبيهقي نحوه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (866/2)، الحديث (2080).

ما يدريك - أيها الإنسان - أنك إذا أصبحت ستعيش إلى المساء؟ وما يدريك إذا أمسيت أنك ستبقى إلى الصباح؟ فالأمر ليس في يدك، إنما هو في يد غيرك، والأجل مجهول لا يعرفه أحد {...وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} [لقمان: 34] ونحن نعرف في هذا العصر موت الفجأة ... الموت بالذبحة الصدرية أو بالسكتة القلبية، أو بغير ذلك من الأمراض التي عرفها الناس في هذا العصر، ونعرف الموت بالحوادث ... حوادث السيارات أو حوادث الطائرات أو حوادث البواخر أو غير ذلك. وقد لا تخطئ أنت، ولكن يأتي من يخطئ فيدهمك ويقضي عليك، قد تكون ماشياً على قدميك، فيأتي من يصعد إلى حافة الطريق ويصدمك فتلقى أجلك، كل هذا وارد، فهل أعددنا للموت ولما بعد الموت عدته.

الموت أهون ما بعده وأشد ما قبله، الموت أشد من أي شيء عرض للإنسان في حياته، ولكنه أهون من كل المراحل التي تأتي بعد ذلك.

بعد الموت هناك القبر، وبعد القبر هناك الحشر ... الموقف ... الحساب ... الميزان ... الصحف ... الصراط ... الجنة ... النار، هذا كله بعد الموت.

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر يبكي حتى يبيل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتذكر القبر فتبكي؟ فقال: إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «القبر أول منزل من منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد» قال: وسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما رأيت منظرًا قط إلا

والقبر أفضع منه»⁽¹⁹⁶⁾ يقول هانىء مولى عثمان: وسمعت عثمان ينشد على قبر:

فإن تنج منها تنج من ذي وإلا فإني لا إخالك ناجياً
إن تنج من هذه المنزلة من منازل الآخرة تنج من ذي عظيمة ... تنج من
هول شديد، وإلا فانتظر ما بعده.

«ما رأيت منظرًا قط إلا والقبر أفضع منه» ما أصدقها كلمة! وما أبلغها!
ولكن لإفنا هذا المنظر أصبح لا يؤثر فينا.

تصوروا إنساناً يعيش في حياة ناعمة ... في بيت مكيف ... في أثاث
ورياش، وربما في قصر ضخم، وحوله خدم وحشم، ينتقل بعد ذلك إلى هذه
الحفرة، ويوضع فيها وحده، لا أنيس ... لا جليس ... لا خدم ... لا حشم ... لا
حراس، ليس معه شيء إلا عمله، ماذا يصنع بما ترك خلفه؟ هب أن عنده
الملايين هل يصحب منها شيئاً؟ هل توضع معه صناديق الذهب؟ ولو
وضعها معه هل يرشي منكر ونكير؟ لا ... لا ينفع أحداً شيء مما خلقه
وراءه من دنياه وتراثه.

إذا مات العبد قالت الملائكة: ماذا قدم؟ وقال الناس: ماذا خلف؟ الناس
يسألون: كم ترك من رصيد في البنوك؟ كم ترك من عمارات وبنائيات؟ كم
ترك من عقار وأموال؟ ماذا خلف وراءه؟ والملائكة تسأل: ماذا قدم أمامه؟

(196) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ورواه ابن ماجه، والحاكم وصححه،
وحسنه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب»
(909/2، 910) الحديث (2225).

لأن الذي ينفعه ليس ما خلفه وإنما ما قدمه. ما خلفه قد ينفعه وقد لا ينفعه، بل كثيراً ما يتضرر به؛ لأنه جمعه من غير حله، أو بخل به عن حقه، وتركه لمن لا يؤدون حق الله فيه.

وبعد القبر يأتي المحشر... يأتي الموقف... يأتي الحساب، تأتي هذه المراحل كلها، ولذلك كان الموت أهون من كل مما بعده.

رأى الحسن البصري رضي الله عنه ميتاً يدفن فقال: إن امرءاً هذا آخره لجدير أن يزهد في أوله - أي في الدنيا التي قبله - وإن امرءاً هذا أوله لجدير أن يخاف آخره - أي لما يأتي بعد ذلك من مواقف القيامة.
الناس أصناف ثلاثة:

صنف لا يؤمن بالآخرة، من الماديين الجاحدين أعادنا الله من شرهم. وصنف يؤمن بالآخرة، ولكنه غافل عنها، لا تعيش الآخرة نصب عينيه، بل يدعها وراء ظهره، كأنما جعلها نسيًا منسيًا، أو كتابًا مطويًا لا يريد أن يفتحه.

والصنف الثالث هم الذين يؤمنون بالآخرة ويعيشون لها ويسعون سعيها، كما قال الله سبحانه وتعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا} [الإسراء: 19] هؤلاء هم المؤمنون الصادقون الذين يعلمون أن الدنيا إنما هي دار ممر لا دار مقر، وأنها مزرعة للآخرة، وأنهم لم يخلقوا للدنيا وإنما خلقت لهم الدنيا، هم خلقوا للآخرة، خلقوا لله، فهم يتخذون الدنيا مطية يرتحلونها في سفرهم إلى الله، ولا يتخذونها ربًا فتتخذهم عبيدًا.

وهم يذكرون الآخرون دومًا، كان عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقول:

لولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون. أي كان كل إنسان يصنع ما بدا له، ويفعل ما يحلوا له، يعب من الشهوات عبًا، ويرتكب من الموبقات ما يرتكب، ويعتدي على كل ضعيف، وكانت الحياة غابة يفترس فيها القوي الضعيف، ولكن القيامة هي التي جعلت عمر يعف عن المال العام، ويعيش بثوب مرقع، وكنوز كسرى وقيصر تأتي إليه من هنا وهناك.

كانوا يعلمون أن أولئك قوم عجلت لهم طبيباتهم في حياتهم الدنيا، فلا يريدون عيشهم، إنما أرادوا أن يعيشوا في الدنيا بقلوب أهل الآخرة {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجْرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور: 37] خوف يوم القيامة هو الذي قطع نياط قلوب المؤمنين، وجعلهم يعيشون دائمًا بأمال الآخرة.

سئل بعض السلف: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت قريبًا أجلي، بعيدًا أملي، سيئًا عملي؛ وسئل الإمام الشافعي: كيف أصبحت يا با عبد الله؟ سأله المزني في عنته الأخيرة فقال: أصبحت عن الدنيا راحلًا وللإخوان مفارقًا، ولسوء عملي ملاقيًا، ولكأس المنية شاربًا، وعلى الله تعالى واردة، ولا أدري روعي تصير إلى الجنة فأهيتها أم إلى النار فأعزيتها؟ ثم أنشأ يقول:

ولما قس قلبي وضافت جعلت رجائي نحو عفوك سلما
تعاظمني ذنبي فلما قرنته بعفو ربي كان عفوك أعظما
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تجود وتعفو منه وتكرما
ولولاك لم يغوي بابليلس عابد فكيف وقد أغوى صفيك آدماء؟

لو أن الناس استحضروا الآخرة ... استحضروا الموت ... استحضروا

القبر ... استحضروا القيامة ... استحضروا الميزان والصراف ... استحضروا الجنة والنار ... لانحلت مشكلات هذه الحياة، لما رأينا الصراع على هذا المتاع الأدنى، ما رأينا الإنسان يقاتل أهله، ويجافي إخوانه، ما رأينا تنازع البقاء أو تنازع الفناء الذي نشهده.

إن مشكلة الناس في عصرنا أن الآخرة غائبة عنهم، لو أن الآخرة حاضرة مشهودة في وعيهم ... في عقولهم ... في قلوبهم، لحلت المشكلات ... لتسامح الناس ... لأعطى كل ذي حق حقه ... لما تظالم الناس ولا طغى بعضهم على بعض، ولكنها الغفلة عن الآخرة، والغفلة شر ما يصيب الناس، ولهذا قال الله تعالى في ذم قوم جعلهم حطب جهنم: {أُولَئِكَ كَالْأَنْعَمِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغٰفِلُونَ} [الأعراف: 179] وكان من دعاء السلف رضي الله عنهم: اللهم لا تدعنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرة، ولا تجعلنا من الغافلين.

نسأل الله سبحانه وتعالى ألا يجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا، وأن يجعل الآخرة نصب أعيننا، اللهم آمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

ألاحظ أن هناك بعض الإخوة يحضرون متأخرين، وهؤلاء يفوتون على أنفسهم ثواباً عظيماً، فقد صحت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن «من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة، ثم راح في الساعة الأولى -

أي في الفوج الأول - فكأنما قرب بدنه، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر»⁽¹⁹⁷⁾ كأن السجل الذي يكتب فيه الحضور والغياب طوى ... انتهى، لأنه جاء بعد الوقت المحدد، فهذا يحرم نفسه خيراً كثيراً، ثم يضطر إلى تخطي الرقاب فيؤدي الآخرين، ولهذا أوصي الإخوة بالتبكير.

إن كل لحظة تبقاها في المسجد تكتب لك صلاة، الإنسان في المسجد في صلاة ما دام ينتظر الصلاة حتى يحدث أو يخرج من المسجد، وما دام في المسجد ينتظر الصلاة فإن الملائكة تصلي عليه ... تدعو له، تقول: اللهم اغفر له ... اللهم ارحمه، حتى يحدث أو يخرج من المسجد⁽¹⁹⁸⁾.

فاحرص على أن تجلس في المسجد بنية الاعتكاف لله عز وجل، ليكون لك عبادة ومثوبة عند الله، وبخاصة أننا مقبلون على الموسم العظيم ... على شهر رمضان ... شهر القرآن ... شهر العبادة ... شهر الصيام والقيام. فهبوا

(197) رواه مالك، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن أبي هريرة رضي الله عنه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (245/1)، الحديث (374).

(198) يشير الشيخ إلى حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «... فإذا صلى لم تنزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه: اللهم صل عليه، اللهم ارحمه، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة» وفي رواية: «اللهم اغفر له، اللهم تب عليه، ما لم يؤذ فيه، ما لم يحدث فيه» رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» للقرضاوي (162/1)، الحديث (166).

أنفسكم له بالنية الصادقة ... بالتوبة النصوح ... بالعزم المصمم على أن تخرجوا منه مغفوراً لكم ف «من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽¹⁹⁹⁾، «... ومن صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽²⁰⁰⁾.

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقي، واجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10]

اللهم آمين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

(199) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي «المنتقى» (311/1)، برقم (515).

(200) رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه «المنتقى» (311/1)، برقم (514).

فضل شهر رمضان

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إن لربنا في دهرنا نفحات، تأتينا نفحة بعد نفحة، تذكرنا كلما نسينا، وتنبهنا كلما غفلنا، وتقويننا على عزائم الخير كلما ضعفنا.

إنها مواسم للخيرات، يتيحها الله تعالى لعباده، ليتزودوا منها ما استطاعوا، وخير الزاد التقوى {... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ} [البقرة: 197].

وإن أعظم مواسم الخير هو هذا الشهر الكريم، شهر رمضان المبارك، الذي فضله الله تعالى بنزول القرآن فيه، أعظم الكتب، كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، دستور خالد لهداية الخلق، وقانون السماء لهداية الأرض {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ...} [البقرة: 185].

إن الله تعالى منّ على هذه الأمة بهذا الشهر من كل عام، يزورها ضيفاً كريماً، فمن الناس من يحسن وفادته ... من الناس من يكرمه، ومن الناس من يخرج عنه رمضان وهو يحمل له أسوأ الأثر والذكريات.

فطوبى لمن شفع فيه رمضان، وطوبى لمن شفع فيه القرآن «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعتك الطعام والشهوة فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعتك النوم بالليل فشفعني فيه، قال

فيشفعان»(201).

رمضان موسم للخيرات يتيحه الله تعالى للإنسان، هو موسم المتقين ومتجر الصالحين، لكل بضاعة موسم، ولكل تجارة موسم، يترقبه أهلها، لماذا؟ ليزيدوا من حسناتهم ويضاعفوا من جهودهم، عسى أن يزيد ربحهم، وما قيمة الربح؟ إنهم يزيدون النشاط، فيركبون الأخطار، ويصلون الليل بالنهار، في سبيل ربح قد يكون وقد لا يكون، وإذا كان فقد ينتفعون به وقد لا ينتفعون، وإذا انتفعوا به يوماً فإنهم عنه زائلون، إن دام لهم فهم أنفسهم لا يدومون.

هب الدنيا تساق لك عفواً أليس مصير ذاك إلى انتقال
وما دنياك إلا مثل غل أظلك ثم آذن بالزوال
إن للدنيا تجاراً، وإن للآخرة تجاراً، تجار الدنيا يترقبون مواسمها
ليربحوا، وتجار الآخرة يترقبون مواسمها أيضاً ليربحوا، ولكن ربح هؤلاء
غير ربح أولئك، إن ربحهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار،
تجار الآخرة هم كما وصفهم الله: {رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ
وَأَقَامِ الصَّلَاةَ وَآتَاءِ الزَّكَاةَ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ} [النور: 37].
يأتي رمضان كل عام فرصة للإنسان المسلم، ليزداد من الخيرات، ويقفل
من أسباب السيئات.

(201) رواه أحمد، والطبراني في «الكبير»، ورجاله محتج بهم في «الصحيح». ورواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الجوع» وغيره بإسناد حسن، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (309/1)، الحديث (509).

الخير مفتوحة أبوابه، الجنة مفتحة أبوابها، والناس مغلقة أبوابها، والشياطين مقيدة مصفدة، دلالة على أن أسباب الخير كثيرة متوافرة، وأسباب الشر قليلة محدودة.

فيا سعادة من انتفع بهذه الفرصة، جاء في «الصحيحين» أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا جَاءَ رَمَضَانَ فَتَحَتْ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغَلَقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصَفَدَتِ الشَّيَاطِينَ»⁽²⁰²⁾، وجاء في بعض الأحاديث: «... وينادي مناد يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر...»⁽²⁰³⁾.

يا باغي الخير أقبل، الفرصة أمامك، بحسبك من الغفلة عن الله أحد عشر شهراً مضت، يا طالب الخير أقبل، الحسنات تضاعف، الباب مفتوح، ضع يدك في يد الله عز وجل، يا باغي الخير أقبل على الله بحسن الصيام وحسن القيام والإكثار من الطاعات.

حسن الصيام: ألا يكون صيامك مجرد صيام البطن والفرج، ولكن لسانك مفطر، وعينيك مفطرتان، وأذنيك مفطرتان، وجوارحك مفطرة.

عينك مفطرة بالنظر إلى الحرام، ولسانك مفطر بالكذب أو الغيبة أو

(202) رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (312/1)، الحديث (517).

(203) جزء من حديث رواه الترمذي، وابن ماجه، وابن خزيمة في «صحيحه»، والبيهقي كلهم من رواية أبي بكر بن عياش، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة. قال الترمذي: حديث غريب، ورواه النسائي، والحاكم، بنحو هذا اللفظ، وقال الحاكم: صحيح على شرطهما، ووافقه الذهبي، وحسن الألباني إسناده للخلاف في ابن عياش من قبل حفظه. وانظر نص الحديث كاملاً في «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (312/1، 313)، الحديث (517).

النميمة أو السخرية أو اللغو، وأذنك مفطرة بسماع الأغاني الفارغة، وسماع الألفاظ السخيفة، لا ينبغي لك أيها المسلم أن يصوم بطنك وفرجك، وكذلك مفطر. تصوم عما أحل الله من الطعام والشراب، وتفطر على ما حرم الله من المعاصي، يقول الحديث الصحيح: «من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»⁽²⁰⁴⁾ لم يتأدب بأدب الإسلام، ما دام لم يحصن نفسه من المعاصي: «... والصيام جنة - درع من المعاصي ومن الآثام في الدنيا، ومن النار في الآخرة، جنة كجنة أحدكم من القاتل - فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث، ولا يصخب، فإن سابه أحد، أو قاتله، فليقل إني صائم، إني صائم...»⁽²⁰⁵⁾.

لا يقابل السيئة بالسيئة، بل يقابل السيئة بالحسنة. يتذكر أنه في عبادة ينبغي ألا تخدش ولا تجرح، فيقول بقلبه ويقول بلسانه، مخاطبًا نفسه ومخاطبًا من يسبه ويشتمه، يقول: إني صائم إني صائم.

الأمر إذن ليس كما يفعل كثير من سفهاء الناس، يتناول أحدهم بلسانه على الخلق، ثم يقول: أعذرتني فإني صائم، كأن الله شرع الصيام ليفسد أخلاق الناس! لا، بل ينبغي للصائم أن ينضبط... أن يهذب نفسه... أن يصون لسانه، كما يصون أذنه، كما يصون عينيه، كما يصون جوارحه كلها «رب

(204) رواه البخاري عن أبي هريرة، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وعنده «من لم يدع قول الزور والجهل والعمل به» وهو رواية للنسائي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (330/1)، حديث (568).

(205) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (307/1)، برقم (505).

صائم ليس له من صيامه إلا الجوع»⁽²⁰⁶⁾ أتعب نفسه، وأجهد جسمه، وأجاع بطنه، ولكنه لم يقيم للصيام بحقه.

ذهبت عائشة رضي الله عنها، وذهب الأوزاعي، وذهب الظاهرية، وذهب عدد من فقهاء السلف، إلى أن الغيبة والنميمة والكذب والمعاصي كلها تفطر الصائم، ومن ارتكب شيئاً من ذلك فعليه أن يقضي يوماً بدل هذا اليوم. وقال سائر الصحابة وجمهور العلماء: إنها لا تفطر الصائم، ولكنها تذهب بثوابه وأجره عند الله⁽²⁰⁷⁾. وهل هذا هين؟ أن تجوع وتظماً، ويجف ريقك يوماً كاملاً، ثم بعد ذلك لا يكون لك مثوبة عند الله، تخرج خاوي الوفاض، بادي الأنفاض، ليس لك شيء.

صن نفسك، صن لسانك، صن أذنك، صن عينيك، صن يدك، صن رجلك، صن جوارحك كلها، حتى لا تمس حراماً، ولا تفعل حراماً.

حاول أن تتطهر في هذا الشهر الكريم، إنه شهر التطهر، الله أتاح لنا فرصة بعد فرصة لتتطهر. علم الله أن فينا ضعفاً، وأنه خلقنا خلقاً مزدوج الطبيعة، فينا الطين وفينا الروح، فينا الصلصال والحمأ المسنون، وفينا سر قوله تعالى: {... وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي...} [الحجر: 29، ص: 72] فأحياناً يغلب الإنسان جانبه الطيني، فيهوى إلى الأرض ويخلد إليها، وأحياناً يغلب جانبه

(206) رواه ابن ماجه واللفظ له من حديث أبي هريرة، ورواه النسائي وابن خزيمة في «صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (330/1)، برقم (570)، وتامه: «ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر».

(207) ذكر الشيخ هذه المسألة بشيء من التفصيل تحت عنوان: هل المعاصي تفطر الصائم؟ في كتابه «فقه الصيام» (ص 86 - 89) فلترجع هناك.

الروحي، فيرقى حتى يصعد إلى الملائكة.

الصيام شرعه الله لنا لنرقى إلى أفق الملائكة، ليرتقي فينا الجزء الرباني السماوي على الجزء الأرضي الطيني.

الإنسان ليس جسمًا فقط، الإنسان جسم وروح، بل الروح هو الحقيقة، والجسم هو الغلاف، فلا يجوز له أن يعيش لجسمه وبدنه، ويغفل نفسه وروحه التي بين جنبيه.

يا خادم الجسم كم تسعى أتطلب الربح مما فيه
أقبل على النفس واستكمل فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
من هنا شرع الله الصيام ليرقى بالإنسان، ليرقى بنفسه وروحه، حتى
يكون إنسانًا حقًا، فلقد عاش بعض الأحيان أقرب إلى الحيوان، وربما أقرب
إلى الشيطان، ورمضان فرصة ليتطهر ويصعد إلى أفق أعلى.

هذه فرصتك أيها الإنسان المسلم، الصيام يقربك من الله عز وجل، لأنك
حرمت نفسك مما اعتدته من قبل، لا شيء إلا لإرضاء الله سبحانه وتعالى. ما
الذي غير نظام حياتك؟ كنت تأكل في الصباح، وتأكل في الظهر، فغيرت
هذا النظام، ثرت على مألوفتك، ما الذي جعلك تفعل هذا؟ إنه العبودية لله
سبحانه وتعالى، ولذلك جاء في الحديث: «كل عمل ابن آدم له، الحسنه
بعشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف، قال الله: إلا الصوم فهو لي وأنا أجزي
به، يدع الطعام من أجلي، ويدع الشراب من أجلي، ويدع لذته من أجلي،
ويدع زوجته من أجلي...»⁽²⁰⁸⁾.

(208) رواه ابن خزيمة في «صحيحه» واللفظ له، ورواه البخاري، ومسلم، ومالك، وأبو

من أجل الله وحده، يترك الإنسان ما تشتهيئه نفسه، ولهذا نسب الله هذه العبادة إليه.

الإنسان المسلم في رمضان يرتقي ويتطهر، الله أعطانا فرصة يومية للتطهر بالصلوات الخمس «أرأيتم لو أن نهراً على باب أحدكم، يغتسل فيه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟» - هكذا سألهم النبي صلى الله عليه وسلم - قالوا: لا يبقى من درنه شيء. قال: «فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله بهن الخطايا»⁽²⁰⁹⁾. فرصة يومية، حمام يومي يغتسل فيه الإنسان كل يوم خمس مرات، ليتطهر من أوضار ذنوبه، وأنجاس خطايا. ثم تأتي فرصة أسبوعية في يوم الجمعة، ثم تأتي الفرصة السنوية في رمضان، بصيامه وقيامه، جاء في الحديث الصحيح: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽²¹⁰⁾، و«من قام رمضان إيماناً وحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽²¹¹⁾ أي من الصغائر كما دلت الأحاديث الأخرى، أما الكبائر فلا بد لها من توبة نصوح. وفي «الصحيح»: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات

داود، والترمذي، والنسائي، مع اختلاف بينهم في الألفاظ «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (308/1)، برقم (505).

(209) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، من حديث أبي هريرة، ورواه ابن ماجه من حديث عثمان «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (168/1)، برقم (184).

(210) متفق عليه من حديث أبي هريرة «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرنؤوط (217/6)، حديث (1706) ومعنى «إيماناً»: أي تصديقاً بوعده الله تعالى، ومعنى «احتساباً»: أي طلباً لوجه الله تعالى وثوابه.

(211) متفق عليه من حديث أبي هريرة، ورواه مالك في «الموطأ». «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرنؤوط (116/4)، حديث (988).

لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»⁽²¹²⁾.

الصيام والقيام يؤيان بك إلى مغفرة الله سبحانه وتعالى، إذا أردت أن تخرج من هذا الشهر مغفوراً لك، فعليك بأن تحسن الصيام، وتحسن القيام. أن تصوم صوم المؤمنين المحتسبين، وتقوم قيام المؤمنين المحتسبين.

ولهذا يا ويل أولئك الذين يأتي عليهم رمضان، ولا يفرقون بينه وبين غيره من شهور العام، أولئك الذين يتسمون بأسماء المسلمين، ويعيشون بين ظهرانينا، وينتهكون حرمة هذا الشهر الكريم، هل يجوز أن يحدث هذا في مجتمع مسلم، لا والله. أولئك إما فساق عصاة، أو مرتدون كفار والعياذ بالله.

من استخف بحرمة هذا الشهر، من أنكر فرضيته، فهو كافر مارق، ينبغي أن يفرق بينه وبين زوجته وأولاده، أن يحكم عليه بالردة والمروق من الإسلام. ومن اعترف بحرمة هذا الشهر وفرضيته، ولكنه أعلن أنه عاص بعمله، فهذا فاسق عاص، لا يحكم عليه بالكفر.

كان المسلمون قديماً يصومون ويصومون صبيانهم وهم صغار، حتى كانوا يأتون لهم باللعب من العهن ... الصوف المنفوش، يسلونهم بها حتى يحين وقت الإفطار. ومن هنا كان على المسلم أن يدرّب أولاده على الصيام حتى ينشأوا على هذه العبادة.

وينشأ ناشئ الفتيان منا على ما كان عودّه أبوه

(212) رواه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة، كتاب الطهارة، حديث (233). وانظر تعليق الشيخ القرظاوي عليه في كتابه «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (239/1)، الحديث (358).

بعد السابعة إن أطاق الصبي الصيام يؤمر بالصيام، إلى العاشرة فيضرب عليه إن أطاقه⁽²¹³⁾. يمكن أن يصوم أيامًا ويفطر أيامًا، حتى يمكنه بعد ذلك صوم الشهر كله، الخير عادة والشر عادة، وكما قال الشاعر:

وينفع الأدب الأحداث في وليس ينفع عند الشبية الأدب
 إن الغصون إذا قومتها اعتدلت ولن تلين إذا قومتها الخشب
 إن الله سبحانه وتعالى فرض علينا شهرًا واحدًا، يقول بعد الأدباء: احمدا
 الله، هناك ربيع أول وربيع ثان، وجمادى أولى وجمادى آخرة، ولكن
 رمضان واحد. ليس هناك رمضان أول ورمضان آخر، هو رمضان واحد،
 شهر من اثني عشر شهرًا، وطلب الله منا الصيام فيه من الفجر إلى غروب
 الشمس.

وما أعظم نعمة الله علينا في هذه البلاد، إنها ساعات محدودة، هناك من
 يصوم عشرين ساعة أو أكثر في شمال أوربا وأمريكا وكندا، هناك من
 سألوني عن الصيام في ذلك النهار الطويل، ماذا يصنعون؟ نحن نصوم
 ساعات محدودة معدودة، يستطيع أي إنسان عنده عزم وقوة أن يصومها.

ومع هذا كله فإن الله رخص للإنسان أن يفطر لأعذار شتى: المرض
 عذر، والسفر عذر، والشيخوخة عذر، والعمل الشاق عذر. من كان يعمل في
 عمل شاق لا يقدر أن يقوم به يمكنه أن يفطر ويقضي بعد ذلك.

(213) ذكر الشيخ في كتابه «فقه الصيام» (ص37) «أن الحديث الوارد في شأن الصلاة: «مروا أولادكم وهم أبناء سبع، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» ينطبق على الصيام هنا بفارق واحد، وهو مراعاة القدرة البدنية للصبي - أو الصبية - فقد يبلغ السابعة أو العاشرة، ولكن جسمه ضعيف لا يحتمل الصيام، فيمهل حتى يشتد عوده ويقوى.

ولكن رأينا الناس والله في القرى والأرياف، رأينا العمال الذين يعملون في البناء والأعمال الشاقة، يتحملون حر الشمس في وقدة الصيف، ويظلون صائمين إلى آخر النهار، إنها عزائم المؤمنين.

وهنا يسأل كثير من الطلاب في هذه الأيام عن الصيام والامتحانات قائمة أو على الأبواب، وأنا أقول: إن على كل مسلم أن ينوي الصيام، وأن يعزم ويصم عليه، وأن يتسحر ويستعد، ثم يجرب نفسه: هل يستطيع أن يواصل أم لا يستطيع؟ فإن وجد نفسه لا يستطيع أن يستوعب، أو أن يفهم، أو أن يهضم أو أن يؤدي الامتحان بجدارة، فعنده رخصة في الإفطار ثم عليه القضاء بعد ذلك.

أما أن ينوي الإفطار مقدماً دون أن يحاول الصوم، فمن أين له: أنه لا يستطيع؟

وهناك أناس يستطيعون أن يغيروا نظامهم، كثير من الناس يسهرون الليل كله في رمضان، فيستطيع الطالب أن يذاكر طوال الليل وأن ينام النهار لا يقوم إلا للصلاة، ومن تيسر له ذلك كان الأمر سهلاً عليه. المهم العزم على الصيام، والصيام بآدابه التي شرعها الله سبحانه وتعالى.

على المسلم أن يصوم من الفجر إلى غروب الشمس عن المفطرات كلها، حتى إذا غربت الشمس بادر بالإفطار، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»⁽²¹⁴⁾. وكان تعجيل الفطر وتأخير

(214) متفق عليه عن سهل بن سعد «اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان» حديث (667).

السحور من هديه وهدى أصحابه، يقول الرسول الكريم: «إنا معاشر الأنبياء، أمرنا أن نعجل فطرنا، وأن نؤخر سحورنا، وأن نضع أيماننا على شماننا في الصلاة»⁽²¹⁵⁾. وعن عمرو بن حريث، وعمر بن ميمون قالوا: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرع الناس إفطاراً وأبطأهم سحوراً⁽²¹⁶⁾. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفطر قبل أن يصلي على رطبات، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات حسا حسوات من ماء⁽²¹⁷⁾.

تعجيل الإفطار وتأخير السحور إلى ما قبيل الفجر سنة.

ليس هناك فترة تسمى فترة الإمساك أو الاحتياط، وليس في الشرع شيء من هذا، بل هذا نوع من الغلو الذي يرفضه الإسلام. النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن صوم يوم الشك، اليوم الذي بعد التاسع والعشرين من شعبان، نهى عن صومه منفرداً إلا أن يكون يوم عادة له صادف يوم خميس يصومه أو نحو ذلك⁽²¹⁸⁾. لماذا؟ حتى لا يحدث الناس غلواً في الدين، ويصبح بعد مدة

(215) قال الهيثمي في «المجمع» (155/3): رواه الطبراني في «الأوسط»، ورجاله رجال الصحيح.

(216) أثنان رواهما الطبراني في «الكبير»، ورجالهما رجال الصحيح «المجمع» (154/3).

(217) رواه أبو داود عن أنس رضي الله عنه، والترمذي وقال: حديث حسن، ورواه الحاكم شاهداً وصححه على شرط مسلم، وسكت عليه الذهبي «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (329/1)، برقم (565).

(218) أخرج البخاري، ومسلم، من حديث أبي هريرة: «لا تقدموا بين يدي رمضان بيوم، أو يومين، إلا رجلاً كان يصوم صياماً فليصمه» «زاد المعاد» لابن القيم بتحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط (40/2 - 41).

أمرًا عاديًا مشتركًا للأمة كلها. الإسلام ببسر، الشريعة حنيفية سمحة، في آية الصيام: {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ...} [البقرة: 185].

علينا أن نحسن الصيام، وعلينا أن نحسن القيام «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽²¹⁹⁾، أن يقوم قيام المؤمنين المحتسبين، ليس المقصود ركعات يؤديها الإنسان دون خشوع ولا اطمئنان، والطمأنينة ركن في الصلاة.

نريد أن يعيش الإنسان مع كتب الله، يعيش في رحاب القرآن، فرمضان شهر القرآن، يعيش مع قارئًا، يتلو ما استطاع من هذا الكتاب، فله بكل حرف عشر حسنات⁽²²⁰⁾. ويعيش معه مستمعًا، وما أحلى صلاة التراويح يقضيها الإنسان مع القرآن الكريم.

ليس المقصود هذه الصلوات التي نراها في المساجد، لا يخشع فيها قلب، ولا يراقب فيها رب، ولا يستقر فيها صلب، هذه الصلاة التي نرى أصحابها كأن وراءهم من يلهب ظهورهم بسوط، ليست هي الصلاة المقصودة.

نريد الصلاة الخاشعة المطمئنة، نريد أن يكون رمضان شهرًا لله سبحانه وتعالى، أن يخرج الإنسان من هذا الشهر، وحظه من المغفرة والرحمة والعنتق من النار، أن يكون من عتقاء الله تعالى من النار، والله في كل ليلة

(219) سبق تخريجه.

(220) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح غريب. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (417/1)، برقم (773).

عتقاء.

هذا هو شهر رمضان أيها الإخوة، شهر رمضان، شهر أتاحه الله لنا لنتطهر، نتطهر من سيئاتنا ونتزود من الحسنات ونحاول أن نزيد من رصيدنا عند الله سبحانه وتعالى، الناس يحاولون أن يضاعفوا من رصيدهم في المصارف والبنوك، ومهما حاولوا فإن هذا لن يكون معهم يوم القيامة {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ 88 إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} [الشعراء: 88، 89].

لا حرج على الإنسان أن يزيد من رصيده إن كسبه من حلال، ولم ييخل به عن واجب، ولكن الأهم من ذلك كله، هو الرصيد الذي ينفع في يوم لا عملة فيه إلا الحسنات والسيئات.

حاولوا أيها الإخوة المسلمون أن تزيدوا من رصيدكم عند الله عز وجل، اعزموا - ونحن في أول الشهر - أن تجعلوا هذا الشهر شهرًا خالصًا لله سبحانه وتعالى، أن تجعلوه شهرًا للصيام وللقيام وللخيرات، وأن تبذلوا فيه لله عز وجل، اخرجوا زكاة أموالكم، أدوا ما عليكم من حقوق، من كان عليه دين فليقض دينه، فإن الديون يسأل عنها الإنسان يوم القيامة، ولا ينفع فيها صلاة ولا صيام ولا حج ولا عمرة.

نحن الآن في زمان تكاثرت فيه علينا المصائب من كل جانب، وتداعت الأمم علينا كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها، يختلف أولئك فيما بينهم ويتفقون علينا نحن المسلمين {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ...} [الأنفال: 73] (221).

لا ينجينا أيها الإخوة مما نحن فيه إلا رجعة صادقة إلى الله سبحانه

(221) وتمامها {إِلَّا تَقْلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ}.

وتعالى، إلا أن نقرع باب الله قرع التائبين المنيبين، الراجين الخائفين، وهذا أو ان هذه الرجعة، هذا هو موسم التوبة والإنابة، فلنقل جميعاً ما قال أبونا آدم وأما حواء: {قَالَ رَبِّنا ظَلَمْنَا أَنفُسَنا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنا وَتَرْحَمَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخُسْرينَ} [الأعراف: 23].

ما أوجنا أن نرجع إلى الله في هذا الشهر، أن ندعوه بقلوب خاشعة ضارعة، وأيد ممدودة إليه مبتهلة، أن ينجينا مما نحن فيه، أن يكشف عنا غمنا، ويفرج كربتنا.

ما أوجنا إلى أن ندعو، وللصائم دعوة ما ترد عند فطره، كما جاء في الحديث: «إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد»⁽²²²⁾. وجاء في الحديث الآخر: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حين يفطر - وفي رواية: الصائم حتى يفطر - والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين»⁽²²³⁾.

ما أوجنا إذا ما أقبل الليل من ههنا، وأدبر النهار من ههنا، وغربت الشمس، وتهيأنا للإفطار أن نمد أيدينا إلى الله داعين لأنفسنا وأهلينا والمسلمين في كل مكان، بالمغفرة والرحمة، وللمضطهدين والمعديين

(222) رواه ابن ماجه، وذكر البوصيري في «الزوائد» أن إسناده صحيح. وانظر تعليق الشيخ القرضاوي على الحديث في «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (310/1)، الحديث (512).

(223) رواه أحمد، والترمذي وحسنه واللفظ له، وابن ماجه، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحهما، وكذا حسنه الحافظ، وصححه الشيخ شاکر في تخريج المسند «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (310/1)، الحديث (513).

والمجاهدين، بالفتح والنصر والنجاة ونقول: «ذهب الظمأ وابتلت العروق، وثبت الأجر إن شاء الله تعالى»⁽²²⁴⁾.

أقول قولي هذا أيها الإخوة، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، فاستغفروه يغفر لكم، وادعوه يستجب لكم.

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة:

رمضان شهر الصيام والقيام، فعلى كل مسلم - ومسلمة أيضًا - أن يتهيأ للقيام تهيؤه للصيام. وينبغي للزوج أن يتيح لزوجته أن تذهب إلى المسجد لصلاة التراويح، فتكسب الصلاة، وتكسب الموعظة والدرس، ويشاركها في الأجر، دون أن ينقص من أجرها شيء، وقد كان النساء في عصر النبي صلى الله عليه وسلم يذهبن إلى المسجد ويشهدن صلاة الجماعة، حتى الفجر والعشاء حتى إنهن كن يدخلن مع الرجال من باب واحد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لو تركنا هذا الباب للنساء»⁽²²⁵⁾. فجعلوه للنساء، ولا زال يسمى «باب النساء» إلى اليوم، بمسجد الرسول صلى الله عليه وسلم.

علينا أن نتيح الفرصة لزوجاتنا وبناتنا للذهاب إلى صلاة التراويح، وأن نحرص عليها في المساجد التي تؤديها أداءً حسنًا، حتى يكون حظنا أوفر عند

(224) رواه أبو داود، والدارقطني، وحسن إسناده، والحاكم وقال: صحيح على شرط

البخاري. وانظر تعليق الشيخ القرضاوي عليه في كتابه «فقه الصيام» (ص110).

(225) رواه أبو داود في كتاب الصلاة من «سننه» برقم (462) عن ابن عمر، وفيه قال

نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات. وفي رواية: أن راوي الحديث عمر لا ابنه،

فيكون منقطعًا. وقد أعاده أبو داود برقم (571).

الله سبحانه وتعالى، ونحن على العادة إن شاء الله سنصلي التراويح في «الجامع الكبير» كما هي عادتنا.

ونصيحتي للإخوة الذين يحرصون على صلاة التراويح هناك، أن يأتوا متجمعين ما أمكن، أي كل مجموعة من الأصدقاء والجيران يأتون في سيارة واحدة، نظراً لضيق المواقع هناك، وأن تُخلى الأماكن القريبة لمن يأتي ومعه أسرته، وهذا من باب التعاون، ورمضان شهر المواساة ... شهر التعاون، كما أنه شهر الصبر، والصبر ثوابه الجنة.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعلنا في هذا الشهر من المقبولين. اللهم أخرجنا من هذا الشهر الكريم مغفوراً لنا. اللهم اجعل حظنا منه الرحمة والمغفرة والعنتق من النار، اللهم أعنا على أن نصوم نهاره إيماناً واحتساباً، وأن نقوم ليله إيماناً واحتساباً. اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وفلّ حدهم، وأحبط مكرهم، وخذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر.

{... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147].

{... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

ربنا واجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا ربنا وتقبل دعاء ربنا اغفر لنا
ولو الديننا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.

عباد الله، يقول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56].

اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك محمد وعلى آله وصحبه
والتابعين.

وأقم الصلاة.

* * *

الذكرى السنوية للانتفاضة (226)

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

انقضى عام على ثورة المساجد، بدأت ثورة المساجد تدخل عامها الثاني بتوفيق من الله سبحانه وتعالى وتأييده.

أقول: ثورة المساجد، فهذا هو العنوان الحقيقي لها، ليست مجرد انتفاضة، الانتفاضة أمر عارض يطراً ثم يزول وهكذا كانوا يظنونها، زوبعة في فنان، أو شرارة تتطاير ثم سرعان ما تنطفئ.

ما علموا أنها إصغار فيه نار، يدمر كل شيء بأمر الله، كل شيء من جبروت اليهود، وباطل اليهود، وخطرسة اليهود.

دخلت ثورة المساجد عامها الثاني، الثورة التي انطلقت من بيوت الله أساساً، وهكذا كان يطلع عليها مدة من الزمن، ثم رثى أن يخفي هذا العنوان «ثورة المساجد»، ليظهر عنوان آخر: ثورة الحجارة، وأطفال الحجارة، ولا بأس بذلك.

(226) في الثامن من ديسمبر عام 1987م انطلقت الانتفاضة المباركة من مخيم «جباليا» في قطاع غزة، بقيادة حركة المقاومة الإسلامية «حماس». وكانت الشرارة الأولى هي حادثة «المقطورة» التي راح ضحيتها أربعة من أبناء فلسطين انتقاماً لطعن مستوطن يهودي على يد أحد الشباب المسلم في قطاع غزة قبلها بيومين، وقرأ قصة الانتفاضة ودوافعها وأهدافها وسماتها والظروف التي أحاطت بانطلاقها، في كتاب «الانتفاضة المباركة ومستقبلها» للأستاذ جهاد محمد جهاد.

إنها حجارة من سجيل إن شاء الله، حجارة من سجيل، تحملها طير أبابيل، هم أشبال غزة والقدس والخليل، تحمل هذه الحجارة لترمي أعداء الله وسلالة القردة والخنازير وعبدة الطاغوت، لتجعل كيدهم في تضليل وتجعلهم بإذن الله كعصف مأكول.

«الحجارة» هذا السلاح الجديد، أصبح شيئاً مرعباً، مخيفاً. انظروا - أيها الإخوة - كيف يتحول الشيء البسيط إلى سلاح مرعب مخيف!! إن الدبابات، وإن المدافع وإن البنادق وإن الذخائر الحية، وإن الأسلحة التي تشتري بالملايين لا تغني شيئاً إذا لم تجد المجاهد الذي يحسن استعمالها، ويحملها بقلب لا يهاب الموت، فهو يراه عين الحياة ما دام في سبيل الله، وهو ينشد مع ذلك المجاهد القديم:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزوع
في سنة (1967) دخلوا بأسلحة تسد عين الشمس، أسلحة اشترت بأقوات الشعب، وعصارة الأرزاق، ودفع فيها ما دفع من ملايين، بل بلايين ولكنها لم تجد الجندي المؤمن الذي يموت دونها، بل وجدت من يترك دبابته ويولي الأدبار، ويقول: الفرار الفرار، أنج سعد فقد هلك سعيد، اذهب بنفسك، لم يكلف خاطره أن يشعل فيها عود ثقاب، فلا لي ولا لأعدائي، ولكن إذا وجد الخذلان، أصبح كل شيء ضدك، حتى السلاح الذي في يدك.

الأسلحة لا تقاتل بنفسها، وكما قال الشاعر العربي قديماً:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

ماذا تغني الخيل، وماذا تغني الرماح؟ وماذا يغني السلاح؟ إذا لم يكن فوق
الفرس فارس، إذا لم يعل ظهر الخيل خيال.

الأسلحة لا تغني وحدها، لا بد من المقاتل المؤمن، صاحب الرسالة، الذي
يقاتل عن هدف. ولهذا حينما وجد هذا المقاتل، ولو كان صبيًا يافعًا في ميعه
الصبا، وزهرة العمر، يجد من الحصى سلاحًا، يجد من الحجارة - التي عن
يمينه وشماله وطالما مشى عليها ووطنها بقدميه - سلاحًا يرمى بها عدو الله
وعدوه، فإذا بهذا العدو يستخذي، ويختبئ ويخاف ويحتر: ماذا يصنع أمام
هذا السلاح فإذا بهذا العدو يستخذي، ويختبئ ويخاف ويحتر: ماذا يصنع أمام
هذا السلاح الذي لا يفلى؟! وصدق الله العظيم حينما قال في حصيات رمى بها
النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر في وجوه المشركين ... حفنة من تراب
رمى بها في تلك الوجوه العكرة وقال: «شاهدت الوجوه» {سَيُهْرَمُ الْجَمْعُ
وَيُؤَلُّونَ الدُّبُرَ} [القمر: 45]، فما بقى مشرك إلى نخل هذا التراب عينيه وأنفه
وفمه، ومضى لا يلوي على شيء، قال الله تعالى في ذلك: {فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى...} [الأنفال: 17].

الله رمى برمية رسوله، والله رمى اليهود برمية هؤلاء الغلمان ... الصبية
اليافعين، رمى الله اليهود بهذه الحجارة.

المهم إذن هو الإنسان المؤمن، الإنسان الذي يقاتل لهدف، الذي يقف على
أرض صلبة، لا يتزلزل ولا يتزعزع، الإنسان الذي يرى الجنة أمامه،
ويجعل رضا الله مرامه، هذا هو الإنسان الذي نريده.

نريد لهذه المرحلة هذا الإنسان، وهذا ما صنعته ثورة المساجد. ربت

الأطفال على حصير المساجد، ربتهم على القرآن، على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وضعت أمامهم نماذج الصحابة والتابعين، صورة الأبطال الفاتحين، صورة أبي عبيدة، وخالد، وعمرو، وعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصالح الدين الأيوبي، وضعت أمامهم صورة السابقين واللاحقين من الشهداء الأبرار، ربت هؤلاء على هذه المعاني الحية، فكانت منهم الأيدي المتوضئة، كما سماها أديب العربية والإسلام «مصطفى صادق الرافعي» منذ أكثر من نصف قرن، قصة الأيدي المتوضئة التي كانت تعمل من أجل فلسطين وقضية فلسطين.

نريد الأيدي المتوضئة، الأيدي الطاهرة النظيفة، والقلوب الطاهرة النظيفة وراء هذه الأيدي.

ثورة المساجد صنعت هذا، هيأت هذه الفئة، فئة الإنقاذ، الطائفة المنصورة المختارة، التي تتبأ بها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبشر بها منذ أربعة عشر قرناً، فيما رواه أحمد عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، لعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم، إلا ما أصابهم من لأواء - أي من شدة وأذى - حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»، قيل: يا رسول الله، وأين هم، قال: «ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»⁽²²⁷⁾.

هذه الفئة المؤمنة هي معقد الأمل، هي موطن الرجاء، هي التي تعلق

(227) رواه عبد الله بن أحمد عن أبيه في «المسند» (269/5)، كما أورده الحافظ نور الدين الهيثمي في «مجمع الزوائد» (288/7) وقال: رواه عبد الله ابن الإمام أحمد وجادة عن خط أبيه، والطبراني، ورجاله ثقات وفيه: «إلا من جابههم» ولعلها غلط ناسخ أو طابع.

عليها الآمال في المستقبل لتحرير فلسطين، فإن فلسطين لا تحرر إلا بهؤلاء.
المعركة مستمرة، وهي معركة شرسة ومعركة طويلة الأمد، هذه طبيعتها، إنها صراع بين عقيدتين، وصراع بين حضارتين.

إنه الصراع بين الإسلام واليهودية، صراع بين الحضارة الإسلامية
الربانية الأخلاقية الإنسانية، وحضارة العجل ... العجل الذهبي، حضارة أمة
تعبد الذهب، ولا تبالي في سببه بأي شيء.

ولهذا نرى وجودها في أرضنا وفي منطقتنا خطرًا، خطرًا علينا، خطرًا
على عقائدنا، خطرًا على قيمنا، خطرًا على تقاليدنا، خطرًا على وحدتنا،
خطرًا على استقلالنا، خطرًا على اقتصادنا، إنها الشوكة التي في جنوبنا، إنها
الخنجر في ظهورنا، إنها الداء الوبيل الذي غرس فينا.

لا تستطيع هذه الأمة أن تتوحد وهذه موجودة فيما بيننا، هي التي تنتشر
الوباء، تنتشر السموم البيضاء، تنتشر المخدرات، تنتشر السموم بشتى ألوانها
... الدعارة الظاهرة والخفية، إنها دولة سوء، إنها بؤرة فساد وإفساد.

ولهذا لا نتصور أن يوجد بيننا وبينها سلام ... أي سلام بين لص يدخل
الدار ويغصبها من صاحبها، وبين صاحب الدار؟!!

يقولون: الأرض مقابل السلام، ما معنى هذا؟! أنا لست محترفًا للسياسة،
ولكنني أفهم في اللغة، فما معنى الأرض مقابل السلام؟ أرض من؟ أرضنا
نحن مقابل سلامهم؟! يعطوننا أرضنا مقابل أن يعيشوا هم على أرضنا أيضًا
في سلام؟! الأرض التي اغتصبوها قديمًا، نتركها لهم مقابل أن يتركوا لنا
جزءًا من أرضنا؟! لا أستطيع أن أفهم، لا أفهم شيئًا.

لا أفهم أن العدوان الجديد يضيف الشرعية على العدوان القديم، العدوان عدوان مهما طال زمنه.

إن فلسطين كلها أرض عربية إسلامية، قلت وسأظل أقول: إنها ملك للفلسطينيين، وملك للعرب وملك للمسلمين؛ وليست ملكاً لهذا الجيل من المسلمين، بل ملك الأجيال الإسلامية جميعاً، ولا يملك أحد أن يبيع منها شبراً.

لو أن الفلسطينيين تنازلوا عنها ما وسعنا نحن أن نتنازل عنها. إنها أرض المسجد الأقصى، إنها أرض النبوات، الأرض التي وصفها القرآن: بأن الله بارك فيها للعالمين⁽²²⁸⁾، أرض الإسراء والمعراج، فيها أولى القبلتين وثالث المسجدين العظيمين، هذه الأرض لا نتنازل عن شبر منها.

لا أستطيع أن أقول: إن «يافا» و«حيفا» و«عكا» و«اللد» و«الرملة» وسائر هذه البلاد ليست من فلسطين.

لقد قدر لجيلي أن يعيشوا هذه المأساة من وقت بعيد، لعل كثيراً من الشباب الذين يسمعونني اليوم، لم يعيشوا ما عايشت ولم يعاصروا ما عاصرت.

لقد شهدنا هذه المدن ... عرائس البحر، تسقط واحدة بعد أخرى، وكأن عضوًا من أعضائنا يسقط، وكأن قطعة من قلوبنا تقطع، وكنا نقول: لا بد من أن تعود، لا بد أن ترجع، ولا يمكن أن نتصور فلسطين بدون «حيفا» أو «يافا» أو «عكا» أو هذه البلاد.

(228) في قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: 71].

هذه الأرض أرضنا، عاش عليها أبائنا وأجدادنا، ارتفعت فيها المآذن، ودوت بـ «لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»، ودفن فيها ... في ترابها ... في تراها المؤمنون، عاشوا عليها أحياء، ودفنوا في تراها أمواتاً.

هذه أرضنا لا بد أن نقاتل عنها.

ثورة المساجد مستمرة، حتى تحرر فلسطين ... كل فلسطين، يمكن للسياسة أن يلعبوا بما شاؤوا كراً وفرّاً، يأخذون بعض ما يأخذون، لا أريد أن أتهم أحداً بخيانة، فلنأس أن يجتهدوا، ولكني أقول من منطلق ديني ومنطلق إسلامي: إن الأرض التي عاش عليها الإسلام لا يمكن التسليم بذهابها إلى الأبد، لا بد أن تعود.

ليكرّوا ويفرّوا كما شاؤوا في مجال السياسة، ومن حق الفلسطينيين أن تكون لهم دولة، وأن تقوم لهم دولة، وهذا هو الحد الأدنى، ولكن على أن يكون ذلك مرحلة من مراحل الكفاح، مرحلة من مراحل الجهاد، ليس هو نهاية المطاف. لا ... لا يمكن أن يكون ذلك نهاية المطاف، إن المعركة مستمرة.

والعجيب أنه رغم التساهلات، ورغم التنازلات، فإن الغطرسة اليهودية الصهيونية ترفض ذلك كله، تقول: لا، لا نعطي شيئاً، ليس أمامكم إلا الخروج من هذه الأرض، اذهبوا حيث شئتم، ابحثوا عن وطن بديل، هذا ما يريده هؤلاء. يرضي القتل وليس يرضي القاتل! إن الأمر جد إذن لا بد أن نأخذ حقنا بأيدينا.

الحجارة وثورة الحجارة، وأطفال الحجارة ستستمر، ستفرض عليهم - إن

شاء الله - أن يتنازلوا هم. لا، لا أقول: يتنازلوا، ستفرض أن يعترفوا بما لأهل فلسطين من حق.

إن هذه القضية التي طالت وطالت منذ كنت طالبًا في القسم الابتدائي بالأزهر، وأنا أتحدث عن فلسطين أتحدث عنها نثرًا وانظم فيها شعرًا منذ كنا طلابًا، كنا نقود المظاهرات، ونسير المسيرات في كل عام من أجل فلسطين، في يوم (2 نوفمبر) ... في ذكرى وعد بلفور، وتحدثت في ذكرى الإسراء والمعراج في كل عام عن المسجد الأقصى، ولا زال الأمر مستمرًا.

القضية مستمرة، المعركة مستعرة الأوار، ولا بد لها من وقود يقدم، الأبناء والأشبال، الفتية الذين آمنوا ربهم وزادهم الله هدى، يقدمون الشهداء، يقدمون الضحايا. الشباب اليافع، الفتاة المحببة، الأم الشجاعة الصبور، الشيخ الفاني الذي لا يزال قلبه شابًا، هؤلاء هم الذين نراهم وراء هذه الثورة المؤمنة.

ضربوا بالرصاص البلاستيكي، وضربوا بغازات الأعصاب التي تفعل فعلها في الأبدان والأنفس، ودقت عظامهم بأعقاب البنادق، ودفن من دفن منهم أحياء، وجرفتهم الجرافات تحت التراب، على أن يفت ذلك في أعضادهم، أن يدخل الرعب على قلوبهم، ولكن هؤلاء الشباب لن يخافوا، لأن معهم الناصر الذي لا يهزم، القوة التي لا تغلب، معهم الله سبحانه وتعالى.

يد الله أعلى من أيدي أولئك، وقدرة الله فوق قدرتهم {... وَظَنُّوا أَنَّهُمْ
مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ

الرُّعْبَ ...} [الحشر: 2].

إن المعركة بيننا وبين اليهود قديمة جديدة. قديمة منذ عهد بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، الذين عاهدهم النبي صلى الله عليه وسلم فغدروا به، وانضموا إلى أعدائه، فكان جزاؤهم ما عرفه التاريخ.

هؤلاء اليهود ضمهم الإسلام في رحابه، أدخلهم تحت جناحه، فتح لهم صدره الحنون، رفضتهم الدنيا ولفظتهم لفظ النواة، وشردهم العالم من شرق وغرب، فلم يجدوا كهفًا يأوون إليه إلا دار الإسلام، لم يستظلوا إلا بظل المسلمين، ثم نجدهم تغلب عليهم طبيعتهم الغادرة، فينقلبون على من آواهم وحماهم، ويأبون إلا أن يقيموا في أرض الإسلام ووطنًا لهم في فلسطين، عرضت عليهم أوطان أخرى بديلة، فأبوا إلا هذه الأرض، والأمر كما قال المجاهد الكبير الحاج «أمين الحسيني» رحمه الله: إن فلسطين ليست ووطنًا بغير شعب، حتى تستقبل شعبًا بغير وطن! فلسطين لها شعبها وأهلها.

هؤلاء انقلبوا على المسلمين، يريدون أن يخرجوا أهل فلسطين، وقد فعلوا إلى حين إلى حد ما، استطاعوا أن يخرجوا أهل فلسطين من ديارهم، وقد أخرجوا منهم من أخرجوا، وأراد أن يهودوا الباقين، الذين يعيشون في قلب ما سموه «إسرائيل»، والذين سموهم «عرب إسرائيل».

أرادوا أن يهودوهم فكرًا وشعورًا، وثقافة وسلوكًا، إن لم يقدرُوا على تهويدهم ديانة وعقيدة. وفعلاً في وقت من الأوقات كاد هؤلاء يذوبون في المجتمع الإسرائيلي، لم تكد تعرف لهم هوية، إذا دخلت في الأرض المحتلة من سنة (1948) لا تكاد تعرف «محمدًا» من «حاييم»، ولا تكاد تعرف

«فاطمة» من «راشيل» لا تكاد تعرف المسلم من اليهودي، الكل قد ساروا في موجة هذه الحضارة الزائفة الوافدة.

كادوا يقتلعون الهوية الإسلامية من الشعب الفلسطيني الذي يعيش في ظل تلك الدولة الملعونة، ولكن جاءت الصحوة الإسلامية فردت إلى هؤلاء الروح، وسرت في الجسد الميت حياة جديدة، انتبه هؤلاء إلى أنفسهم، بدأ المسلم يعرف أنه مسلم، بدأت المسلمة تشعر بانتمائها ونسبها.

بدأ في هذا المجتمع شيء جديد قلب الموازين، قلب الحسابات والمعادلات، وكان ثمرة هذه الصحوة: هذه الانتفاضة، أو هذه الثورة، أو هذه الحركة، حركة المقاومة الإسلامية، كان هذا كله نتيجة وثمره للصحوة الإسلامية... الصحوة الإسلامية هي صانعة هذا التيار الجديد، التيار الذي أقلق إسرائيل، ومن وراء إسرائيل.

لقد فرضت هذه الفئة المؤمنة الجديدة نفسها على التاريخ، بعد أن كاد التاريخ ينساها، بعد أن أصبحت قضية فلسطين قضية لاجئين، بعد أن أصبح الأمر ميئوساً منه، فلا السياسة العربية قادرة على شيء، ولا المنظمات والهيئات الفدائية قادرة على شيء، استرخى الجميع، واستناموا، وأصبحت حركة شبه يائسة، ماذا نصنع؟

أعادت هذه الصحوة، وهذه الانتفاضة، وهذه الثورة المؤمنية الربانية الجديدة، أعادت الروح إلى الجسد الهامد. بدأ العالم كله يتحدث عن الانتفاضة... عن الثورة... عن صبية الحجارة.

إننا نحن أبناء هذه الأمة، لا يحركنا شيء كما تحركنا كلمة الإيمان، لا

ينهضنا شيء كما تنهضنا العقيدة، لا تفعل فينا كلمة، كما تفعل كلمة «لا إله إلا الله والله أكبر».

في سنة (1967) حينما كان شعارهم: بر ... بحر ... جو، لم ينتصروا في بر ولا بحر ولا جو. وفي سنة (1973م) أو (1393هـ) على الحقيقة، فأنا أفضل أن أسميها حرب العاشر من رمضان، لا حرب السادس من أكتوبر. في ذلك الوقت كان الشعار: الله أكبر، الله أكبر، فعلت فعلها.

فقد هذه الأمة بالإيمان تصنع الأعاجيب، ارفع أمامها المصحف وقل: يا رياح الجنة هبي، ويا خيل الله اركبي، ويا كتائب الله سيرى، ثم انظر ماذا ستصنع هذه الأمة!

لقد طالما عزفوا على معزوفات: القومية، والاشتراكية، والديمقراطية، والتقدمية، فلم تحرك هذه ساكنًا، ولم تنبه من الأمة غافلًا، ولكن حينما حركت هذه الأمة بالإيمان ... بالإسلام ... بالتوحيد ... بـ «لا إله إلا الله» عادت إليها الروح.

هذه الحقيقة أكدها التاريخ، من يقرأ التاريخ في مده وجزره، في أيام النصر وأيام الهزيمة، في معارك التاريخ القريبة والبعيدة، يجد أن الإيمان هو الذي يحرك هذه الأمة.

الإيمان ... الإسلام ... القرآن ... أحلام الجنة، هي التي تحرك الأمة، هذا ثابت بيقين، ونحن محتاجون إليه دائمًا، ولكننا أشد ما نحتاج إليه في وقتنا هذا وفي قضية فلسطين خاصة ... قضية فلسطين لا يمكن أن تنتصر إلا إذا أصبحت قضية إسلامية ذلك لأن عدونا يقاتلنا باسم الدين. اليهود تجمعوا في

فلسطين من شرق وغرب، ومن أمريكا ومن روسيا، من بلاد العرب والعجم، ومن هنا ومن هناك، ما الذي جمعهم من شتات؟ ما الذي جاء بهم من الشرق والغرب، والشمال والجنوب؟ إنها العقيدة اليهودية، إنها الأحلام التوراتية، إنها التعاليم التمودية، إنها اللغة العبرية، هذا هو الذي جمعهم.

لقد كانوا في بلادهم يعيشون آمنين، بل كان منهم من يملك الملايين، ومن لهم نفوذ يستطيعون أن يؤثروا به على السلاطين، ولكنهم تركوا هذا كله، وجاءوا من أجل أن يقيموا دولة ... دولة لها اسم ديني تاريخي، سمي باسم نبيهم الكبير: إسرائيل: ... يعقوب سسس ... دولة تقديس تعاليمهم، تمنع العمل يوم السبت منعًا تامًا ... دولة فيها أحزاب دينية متطرفة، وغير الدينيين منهم يخضعون للدين أيضًا، وجاءوا بدوافع دينية، ويقاثلون بدوافع دينية هكذا كانوا يقولون، قال موشي ديان: إن جيش إسرائيل ليست مهمته حماية المؤسسات، إنما مهمته حماية المقدسات.

كلهم يهود، وأنا لا أستطيع أن أفرق بين يهودي وصهيوني، كل يهودي صهيوني، لأن أحلام التوراة وتعاليم التلمود، تجعل كل يهودي صهيونيًا. هذا هو الأصل، والنادر لا حكم له، أنا أتكلم عن التيار العام.

إن قضية فلسطين يجب أن تكون إسلامية، إذا قاتلونا باسم اليهودية نقاتلهم باسم الإسلام، إذا رفعوا التوراة رفعنا نحن القرآن، إذا قالوا: التلمود قلنا: البخاري ومسلم، إذا قالوا: الهيكل قلنا: المسجد الأقصى، إذا قالوا: السبت قلنا: الجمعة، ولا يفل الحديد إلا الحديد، وحديدنا أقوى من حديدهم.

نحن أصحاب الدين الحق، ونحن أصحاب الأرض وأهل الدار، ندافع عن

مقدساتنا، وندافع عن ذاتنا، وندافع عن أرضنا و عرضنا وأهلنا، مهما يكن لدينا من ضعف مادي، فإن الحق الذي معنا يقوينا، وهذا ما فقهه أولئك الشباب، الشباب الذين انطلقوا من المساجد هذا ما فهمته هذه الثورة الربانية الجديدة، الثورة التي منطلقها المساجد، وراياتها المصاحف، وشعاراتها «لا إله إلا الله والله أكبر».

إننا ننتظر لهذه الثورة النصر بإذن الله {وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ...} [الإسراء: 51] إن الذي يقاتل لا يسأل: متى هو؟ ولكن يقول: {... عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا} [الإسراء: 51]، {مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَّ إِنَّا نَصْرُ اللَّهِ قَرِيبٌ} [البقرة: 214]، {... وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ 40 الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عِاقِبَةُ الْأُمُورِ} [الحج: 40]، [41].

بشرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن المعركة مستمرة مع اليهود، حتى ينتصر عليهم المسلمون، حتى يقول الحجر والشجر: «يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله»⁽²²⁹⁾. وإنا لهذا اليوم ولهذه المعركة لمنتظرون.

اللهم انصرنا على أعدائك واعدائنا وأعداء العرب والمسلمين، اللهم آمين،
أدعو ربكم يستجب لكم.

(229) ذكره في «صحيح الجامع الصغير» برقم (7427) ونصه كاملاً: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله إلا الغرقد، فإنه من شجر اليهود».

الخطبة الثانية:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

إذا كانت ثورة المساجد تؤدي دورها، فعلينا نحن المسلمين أن نؤدي دورنا، أن نكون معهم، أن نشد أزرهم مادياً وأدبياً، وأن ندعو لهم في صلواتنا، والنصر آت لا ريب فيه.

إن الله عسع الذي أيد إخواننا في أفغانستان، حتى أجبروا الروس على أن يجلسوا معهم وجهًا لوجه على مائدة واحدة، سيجبر اليهود على أن ينسحبوا من أرض المسلمين بالسيف ... بالجهاد، الجهاد الخالص المخلص.

علينا أن نشد أزر هؤلاء، وأن نمد إليهم يد المعونة {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرٍ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} [يوسف: 21]

اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم رد عنا كيدهم، وقل حدهم، وأذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المؤمنين {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]. {... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحشر: 10]. اللهم آمين.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

* * *

اتفاقية غزة وأريحا⁽²³⁰⁾ من مأساة البوسنة إلى مأساة فلسطين

الخطبة الأولى:

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

قُدِّرَ علينا أن نعيش حتى نرى الإسلام يناوش بالسهام من كل جانب من الجوانب، وتصب عليه سياط العذاب من كل فئة من الفئات. تفرق الكفر شيعاً وأحزاباً، ولكنهم اجتمعوا على هذا الدين وعلى أهله، فالكفر ملة واحدة، والله تعالى يقول: {... وَإِنَّ الظُّلْمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} [الجاثية: 19]، {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ...} [الأنفال: 73].

فلا عجب أن نرى في هذا العصر، كل فئات الشرك والكفر، تتآمر على المسلمين، تريد أن تقتلع جذورهم، وان تهدم عليهم بنيانهم، وأن تأخذهم من دينهم وعقيدتهم.

اجتمع على ذلك اليهود والذين أشركوا والصليبيون الجدد، هذا ما نراه على خريطة الحياة في عصرنا.

الصليبية الجديدة في أوروبا نراها في أولئك الصربيين. هؤلاء الوحوش المفترسون، الذين حدوا أنيابهم ليأكلوا المستضعفين من المسلمين. أهل البوسنة والهرسك.

(230) وقعت الاتفاقية في (13/9/1993) بواشنطن

أرادوا أن يقضوا على هؤلاء مرة واحدة، ولكن الله عسع نفخ الروح في هذا الطين ... هذا الفتات ... هؤلاء الذين بقوا من حكم الشيعوية نحو نصف قرن ... هؤلاء الذين كانوا تحت وطأة الاستبداد والتسلط الاستبدادي الشيعوي الأحمر، تحت حكم (تيتو) ... هؤلاء الذين عزلوا عن الإسلام، فلم يكادوا يعرفوا عنه شيئاً إلا مجرد «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتى الأسماء لم تعد إسلامية، حتى الختان، لم يكن الكثيرون منهم يختنون أبناءهم الذكور «ألف باء الإسلام» لم يكونوا يعرفونها، عزلوا عن جسم الأمة الإسلامية، وجعلوا بالإسلام، ثم شاء الله أن تنهار الشيعوية في بلادها الأم.

الشيعوية التي كانت تحلم بأن تغزو العالم، وغزت أفغانستان لتنتقل منها إلى بلاد المسلمين، وتصل هنا إلى الخليج وإلى ما بعد الخليج، شاء الله أن تنهار الشيعوية، وتزول دولتها، ويذهب ريحها.

وكان مما سلطت عليه الشيعوية ما كان يسمى «يوغسلافيا» وانقسمت يوغسلافيا، انقسم الكروات وأقاموا لهم دولة اسمها «كرواتيا» ولما أراد المسلمون في «البوسنة والهرسك» أن يكون لهم ما للكروات، وصوت لذلك، ونالوا أغلبية باسم الديمقراطية التي يتغنى بها الغرب، واعترف الغربيون أنفسهم واعترفت الأمم المتحدة بالدولة الجديدة، ولكن كيف تقوم دولة فيها رائحة الإسلام، فيها بقايا الإسلام، تحمل عنوان إسلام ما في أوروبا؟! هذا ما جن له جنون الغرب كله.

وتأمر هؤلاء وحملوا الصليب من جديد، ليعلنوها حرباً على الإسلام، حرباً على المسلمين. كانوا يظنون أن هؤلاء سيسقطون بعد أسبوع أو أسبوعين، هذا ما قدر له «سراييفو» أنها لن تحتل أكثر من أسبوعين أو

ثلاثة.

ولكن هؤلاء الذين لم يكونوا يعرفون من الإسلام إلا القليل، والأقل من القليل، أيقظتهم الأحداث الهائلة، والقوارع النازلة فجأة، ليتعرفوا على الإسلام.

حينما وجدوا الناس يقاتلونهم من أجل الإسلام، يقطعون رقابهم من أجل الإسلام، يهدمون عليهم بيوتهم من أجل الإسلام، يغتصبون أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهن من أجل أنهن مسلمات، يخربون عليهم مساجدهم، يدمرون عليهم مدارسهم، يحرقون مزارعهم وحقولهم، لا لذنب إلا لأنهم مسلمون.

لهذا بحثوا عن هذا الإسلام الذي لا يعرفه، وادوا أن يتشبثوا به وبدأوا يحفظون أبناءهم سوراً من القرآن، يحفظونهم سورة «الفاحة» وسورة «الإخلاص» وسورة «العصر» بعد أن كانوا لا يحفظون إلا نشيد:

أيها الرفيق تيتو لا نلطف إلا باسمك

أصبحت أناشيدهم الجديدة: سور القرآن، وقصار السور من كتاب الله. هؤلاء استطاعوا أن يصمدوا! وما الذي جعلهم يصمدون ويستمررون ويقاتلون هذه القوة العاتية ... الجيش الصربي الذي يعتبر رابع الجيوش في أوربا، وهم لا يملكون شيئاً يذكر من الأسلحة؟!!

وحرمت هيئة الأمم المتحدة وحرم مجلس الأمن الدولي عليهم وصول السلاح. حظر بيع السلاح، حتى لا يستمر القتال، ولا يكثر سفك الدماء! يعني هذا أنهم أرادوا أن يكون القتل من جانب واحد فحسب! أي أرادوا أن يقتل المسلمون بسرعة، وتنتهي القضية.

كيف يُمكن طرف واحد من كل الأسلحة، والطرف الآخر يحظر عليه أدنى سلاح؟

ولكن هؤلاء المسلمين الجدد، بما نفخ فيهم من روح الإيمان الجديد، استطاعوا أن يصنعوا ذخائر للأسلحة بأيديهم، واستطاعوا أن يعيشوا رغم الحصار المضروب عليهم ... يعيشوا بأقل القليل، ويزرعوا الخضروات في البيوت التي يعيشون فيها حتى يأكلوا، ويأكلون القليل، ويكفيهم القليل، ويؤثر بعضهم على بعض {... وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ...} [الحشر: 9].

هؤلاء ما الذي جعلهم يصمدون، ويثبتون، ويقفون كالطود الشامخ ستة عشر شهراً؟ إنه الإسلام الجديد إنه الإيمان الذي خالطت بشاشته قلوبهم، وسرى فيهم مسرى الماء في العود، أنشأهم شيئاً آخر.

ولذلك يقول الكثير منهم ممن لقيناهم: إن هذه نعمة من الله علينا، هذه المحنة في طيها منحة، قد كان يمكن أن نعيش، ولكننا سنعيش غير مسلمين، اليوم يموت منا من يموت ولكن من يحيا منا سيكون مسلماً، ليس المهم أن نعيش ولو بغير دين، إنما المهم أن نعيش مؤمنين.

هذا منطوق هؤلاء أيها الإخوة.

ومن هنا نقول: إنه رغم قساوة الظروف المحيطة بإخواننا، ورغم غلظ المحنة التي يمرون بها، فإن من وراء هذه المحنة منحة، ورب ضارة نافعة، ومن الشر ما يأتي بالخير، والخير قادم إن شاء الله لقد أرادوا أن يقتلعوا الإسلام من شرق أوربا، وألا تقوم للإسلام قائمة، ولا يبقوا فيه من باقية،

ولكنهم باؤوا بالإخفاق.

وبقى الإسلام، وسيظل الإسلام، وسيخرج من ضئضى هؤلاء من يرفع راية «لا إله إلا الله محمد رسول الله».

هذا ما صنعته الصليبية الجديدة ... الصليبية الغربية، في عصر يتنادى الناس فيه بحقوق الإنسان ... بميثاق الأمم المتحدة ... بحق الشعوب في تقرير المصير، وكأنهم يقولون: إن الشعوب كلها لها حقها في تقرير المصير، إلا الشعوب الإسلامية ... إلا أن يكون الشعب مسلماً.

ولكن هؤلاء ليسوا هم الذين يملكون هذا الكون، الذي يملك هذا الكون ربه عز وجل، إن الذي هدم الاتحاد السوفيتي يمكن أن يهدم هؤلاء، والله لن يبقى الظلم يتحكم في العباد، وينزل الرقاب، إن دولة الباطل ساعة. ودولة الحق إلى قيام الساعة {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبُطْلُ إِنَّ الْبُطْلَ كَانَ زَهُوقًا} [الإسراء: 81]، {بَلْ نَقَدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبُطْلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ...} [الأنبياء: 18]، {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ...} [الرعد: 17]. صدق الله العظيم.

هذا ما صنعته الصليبية في أوربا.

ونجد على الجانب الآخر في الشرق: الوثنية المتعصبة ... الهندوسية التي تذبح المسلمين بغير حساب، وتهدم مساجدهم، وتهدم وجودهم، هذا ما نسمعه ونقرأه ونراه، حتى أن أحد علماء المسلمين الكبار قال: كانت تعد لنا مجزرة هائلة. والمسلمون في الهند ليسوا شيئاً قليلاً، إنهم ما يقرب من مائتي مليون، يحاولون أن يقللوا العدد فيقولوا: المسلمون في الهند مائة وخمسون مليوناً إنما

هو حوالي مائتي مليون أو يزيدون، أي ما يقارب العالم العربي كله - قال لي هذا العالم: ولكن الأحداث التي حدثت في «بومبي» جعلت هؤلاء يعيدون حساباتهم من جديد.

لا بد من الوقوف في وجه الباطل، لا بد من الصمود أمام الطغيان الظالم، لا يجوز للمسلم أن يستسلم ويلقي السلاح مهما تكن قوة أعدائه.

وثلاثة الأثافي أيها لإخوة: هو ما يجري في قضايا القضايا، في قضية المسلمين الأولى ... قضية فلسطين ... أرض النبوات ... أرض المسجد الأقصى ... أرض أولى القبليتين ... مسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ها نحن نرى اليوم فصلاً جديداً من فصول هذه الرواية. لقد عايشنا قضية فلسطين منذ وعينا على هذه الدنيا، منذ بدأنا نعي أن هناك عالماً إسلامياً، وأن هناك مأساً وقضايا له، فكانت قضية فلسطين هي القضية الأولى التي تشغلنا، تشغل الفكر، وتشغل القلب، وتشغل اللسان، في كل سنة ... في ذكرى ما سمي وعد «بلفور» ... في «2 نوفمبر» بلفور وزير الخارجية البريطاني الذي وعد اليهود أيام الحرب العالمية الأولى بوطن قومي لهم، وقد علق على ذلك من قال: من لا يملك وعد من لا يستحق! وعلق عليه مفتي فلسطين الأكبر الحاج «أمين الحسيني» رحمه الله بقوله: إن فلسطين ليست وطناً بغير شعب، حتى تستقبل شعباً بغير وطن!.

ولكن جرت الأحداث، وصنعت بريطانيا ما صنعت خلال الأعوام الثلاثين التي حكمت فيها فلسطين، وهيأت لأبناء «الصهيون» الفرصة ليستوطنوا ويهاجروا من أوربا الشرقية وغيرها هجرات جماعية وفردية،

وقامت العصابات الصهيونية بأعمالها الإرهابية، إلى أن حدث ما حدث في سنة (1948 م).

قبل ذلك كان هناك قرار التقسيم الذي رفضه الفلسطينيون، ورفضه العرب بالإجماع، كيف يقسم بلد بين أهله وبين الغرباء عنه؟! لا يستطيع أن يقسم داره بينه وبين لص جاء واقتحم عليه داره، هل يستطيع الإنسان أن يقسم زوجته بينه وبين عادٍ عليه، يريد أن يهتك عرضه، وينتهك حرمة؟!!

كان التقسيم مرفوضاً، ومع هذا حدث ما هو شر من التقسيم، وقامت دولة «إسرائيل»، واعترفت بها أمريكا، ثم اعترفت بها روسيا، وقال الجميع: إن إسرائيل خلقت لتبقى.

ودخلت الجيوش العربية السبعة إلى فلسطين، وبالخianات والتآمر والأسلحة الفاسدة التي كانت تقاتل بها بعض الجيوش، انهزمت الجيوش السبعة امام العصابات.

كنا نقول عن إسرائيل، وكانت أجهزة إعلامنا المقروءة والمسموعة - لم تكن هناك أجهزة مرئية في ذلك الوقت - الصحافة ومثلها الإذاعة كانت إذا ذكرت إسرائيل تقول: إسرائيل «المزعومة» بين قوسين «المزعومة» وظللنا سنوات نقول عن إسرائيل: «المزعومة».

ثم خجلنا من أنفسنا حينما كانت هذه المزعومة تركل هذه الجبهة وتصفع هذه الجبهة، وتعتدي هنا وهناك، ولا يملك العرب المعتدى عليهم إلا أن يشجبوا وينكروا هذا العدوان، ويحتجوا لدى مجلس الأمن وهيئة الأمم، وهناك آلاف الاحتجاجات والاستنكرات.

بعد هذا خجلنا من أنفسنا أن نقول عن إسرائيل: «المزعومة» بعد أن
أوشكنا أن نكون نحن: المزعومين!

وظل هذا الوهم إلى أن هيا الله الفرصة لجهاد فلسطيني يقوم على أكتاف
أبناء فلسطين أنفسهم؛ وقامت «فتح» وقامت فصائل مختلفة، تجاهد وتتادي:
ثورة حتى النصر. إلى ان قامت حركة المقاومة الإسلامية ... الجهاد باسم
الإسلام ... ثورة المساجد، الثورة التي انطلقت من بيوت الله، وكانت
صيحاتها من فوق المآذن ... من ميكروفونات المآذن: حي على الجهاد ...
حي على الجهاد، راياتها المصاحف ... القرآن الكريم امرفوعاً، شعاراتها: لا
إله إلا الله ... والله أكبر، اناشيد أبنائها واشبالها:

خير خير يا يهود جيش محمد سوف يعود

هذه الثورة المسجدية الإيمانية قلبت الموازين وجعلت هؤلاء يحسبون ألف
حساب لهذه الروح الجديدة، فما كانوا يخافون كثيراً أن يكون الجهاد باسم
«الوطنية» أو تحت شعار «القومية» إنما الذي كان يخيف يهود وابناء
صهيون: ان ينطلق الجهاد باسم الله ... باسم الإسلام.

كانوا يريدون أن يكون جهادهم أو نضالهم أو قتالهم هو تحت اسم الدين ...
تحت اسم التوراة ... التلمود، أما المسلمون فما كانوا يحبون أن ينطلق لهم
جهاد تحت راية الإسلام، ولكن هذا الذي حدث.

ومن هنا كان الضغط المستمر على المقاومة الإسلامية، وكان تكسير
العظام، وكان القتل، وكان التشريد والإبعاد، وكان السجن والاعتقال، وكان
هدم البيوت ... إلى آخره، ولكن لم يفت ذلك في عضد هؤلاء المجاهدين

الجدد. إنه الإسلام ... الإسلام أنشأهم خلقاً جديداً، يرون أن الموت في سبيل الله هو عين الحياة.

ما أخشى ما يخشاه الناس؟ الناس يخشون على أمرين: يخشون على الرزق، ويخشون على العمر. والرزق بيد الله، والعمر بيد الله، لا يستطيع أحد أن ينقص من رزقك لقمة أو درهماً، ولا يستطيع أحد أن يؤخر أجلك يوماً أو ساعة أو لحظة من زمن، الأرزاق والآجال بيد الله.

ولهذا لم يخف هؤلاء من الموت، لم يباليوا أوقعوا على الموت، أم وقع الموت عليهم، فإما أن نعيش سعداء، وإما أن نموت شهداء. إنما هي إحدى الحسنين {وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتٌ ۗ بَلْ أحيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ} [البقرة: 154]، {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا ۗ بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} [آل عمران: 169]. هذه الروح الجديدة وهذا الجهاد الجديد، هو الذي جعل أبناء صهيون يفكرون تفكيراً جديداً.

دعوكم من كل ما يكتب ويقال أحياناً. تذكر وكالات الأنباء وتقارير الصحف الأجنبية والعالمية ما وراء السطور، قالت «رويتر»: إن الذي جعل الإسرائيليين يعجلون بالاتفاق الجديد، هو خوفهم من تنامي الأصولية الإسلامية.

إن هذه الأصولية يصلب عودها يوماً بعد يوم، قامت ثورة إسلامية في إيران، ووصل حكم إسلامي إلى السودان، وفاز إسلاميون في الأردن، وفي اليمن، وواشك الإسلاميون في الجزائر أن يصلوا إلى الحكم بطريق ديمقراطي و ... و ... إلى آخره، وهذا هو الخطر.

العالم كله الآن يتنادى بالتحذير - أقصد العالم الغربي اليهودي والصليبي - يتنادى بالتحذير مما سموه: الخطر الأخضر، يقصدون الخطر الإسلامي.

زال الخطر الأحمر الذي كان يتمثل في الشيوعية العالمية بقيادة الاتحاد السوفيتي، والخطر الأصفر الصيني لم يعد يخوفهم، الخطر الجديد هو: الخطر الإسلامي.

هل الإسلام خطر والمسلمون بهذا الضعف؟! والمسلمون في مؤخرة الأمم؟! وفي ذيل القافلة؟! كان يعتبر هذا خطرًا تحشد القوى للتخويف منه، وتضخيم مساطره، وغرس هذه المعاني في العقول والنفوس؟!!

صحيح أن الإسلام ضعيف الآن، ولكنهم يقولون: لقد عرفنا من طبيعة الإسلام أنه يكون ضعيفًا ثم سرعان ما يقوى، متفرقًا ثم سرعان ما يتجمع، نائمًا ثم سرعان ما يستيقظ، إذا وجد من يقود الأمة باسم الله، ومن يخاطبها بكلمة الله، فسرعان ما يظهر هذا العملاق، ويخرج من قمقمه، ويتحدى الدنيا، كما فعل ذلك أيام صلاح الدين، وأيام قطز، وأيام محمد الفاتح وغيرهم من الأبطال.

إنهم يخشون أن يعود صلاح الدين من جديد، هذا ما يخشاه هؤلاء، ولذلك سارعوا لمثل هذا الاتفاق، الذي لا يعطي للشعب الفلسطيني ما كان يتنادى به من سنين طويلة: من حق تقرير مصيره، وإقامة دولته الوطنية المستقلة على كامل ترابه، وإعادة اللاجئين المشردين إلى أهليهم وديارهم وأوطانهم التي أخرجوا منها بغير حق، وأن تكون عاصمة هذه الدولة المستقلة: القدس الشريف، هذا ما كانوا يتنادون به.

ولكن - للأسف - لم نجد هذا في الاتفاق الجديد، فمما قاله الذين مثلوا الجانب الفلسطيني: إننا نأمل أن تحل المشكلات الصعبة في المرحلة القادمة ... مشكلات القدس والمستوطنات واللاجئين والحدود فإذا كانت هذه المشكلات معلقة، فما الذي حل من مشكلات إذن؟!!

إن «رابين» عشية ذهابه إلى «واشنطن» لحضور حفل التوقيع، صرح لوكالات الأنباء: أن القدس ستظل العاصمة الموحدة الدائمة لإسرائيل، وأن علم فلسطين لن يفحق فوقها يوماً من الأيام.

أراد بذلك أن يبلغ رسالة إلى الجانب الفلسطيني: أن هذه القضية أحد الثوابت التي لا تقبل التغيير أو التعديل أو التنازل.

وفي كلمته في حفل التوقيع قال: نحن قادمون من «أورشليم» أو من «القدس» العاصمة التاريخية والأبدية للشعب اليهودي.

هل يمكن أن نقبل تنازلاً عن القدس؟ عن المسجد الأقصى؟ عن أولى القبلتين وثالث المسجدين العظيمين؟ هل يمكن أن يصبح هذا أمراً هامشياً يترك إلى نهاية المفاوضات، بعد أن يكون كل شيء قد تم؟ وتم الاعتراف، وتم التطبيع، وتم الاختراق، وتم، وتم؟ ماذا يملك الذين يمثلون فلسطين عند ذلك؟ هل يرجعون في كل ما تم إذا تصلب الجانب الإسرائيلي، وهو متصلب من اليوم.

كيف نفرط في القدس؟ كيف نسكت عن اللاجئين ... الملايين الأربعة المشردين؟

ذكر «رابين» في كلمته: يهود الشتات ... اليهود المشتتين، وهؤلاء اليهود

المشتتون كما يسميهم، يهود عاشوا في أقطارهم قروناً من الزمن، ولدوا فيها، ونشأوا هم وآباؤهم وأجدادهم وأجداد أجدادهم، ومع هذا يسميهم: يهود الشتات، وسكتنا نحن عن فلسطيني الشتات، وكثير منهم ولد في فلسطين عاش فيها ونشأ فيها وشهد بنفسه مجازر «دير ياسين» وغيرها، كيف نسكف عن هذا، ولا نقول كلمة واحدة عن هؤلاء المشتتين، وما عانوه، وما يعانونه؟! هذه قضية اللاجئين.

قضية الاستيطان: مازال المستوطنون يصلون ويجولون، هؤلاء الذين جاءوا من خارج فلسطين، أصبحوا يتحكمون في أرض فلسطين، وفي أهل فلسطين في الضفة الغربية وغيرها.

الاتفاق يعطي القوات الإسرائيلية الحق في التحرك بحرية في الطرق ما بين غزة وأريحا، أين الانسحاب إذن؟! كيف رضينا بالهوان؟! كيف قبلنا هذا الدون؟!.

لقد وقفنا ضد اتفاقية «كامب ديفيد»، وقلنا: إنها خيانة، فما هو الذي جعلنا نقبل ما هو شر منها؟! ولهذا البعض الآن يقولون: إن «كامب ديفيد» الأولى خير من «كامب ديفيد» الثانية، كما قال أبو الطيب المتنبي:

يقضى على المرء في أيام حتى يرى حسنا ما ليس
ما السر في هذا؟ إنه الوهن، الوهن الذي أصاب القائمين على هذه القضية،
وهو ما حذر منه القرآن فقال عع: {فَلَا تَهِنُوا - أي لا تضعفوا - وَتَدْعُوا إِلَى
السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَلُكُمْ} [محمد: 35].

هؤلاء يقولون: ليس معنا أحد، ذهبت روسيا التي كانت تعضدنا، والعالم

العربي ممزق وضعيف، فلم يبق أمامنا إلا أن نقبل ما يعرض علينا.

هذا هو الوهن، الوهن الذي يصيب الأمم في مرحلة الضعف، وحذر منه النبي صلى الله عليه وسلم الأمة في المرحلة الغنائية، حينما تصبح كثرة كغناء السيل، قال صلى الله عليه وسلم: «ولينز عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن - قال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت»⁽²³¹⁾.

هذا هو الوهن النفسي، أن يخذ الناس إلى الدنيا ... إلى المناصب ... إلى الشهوات، ويكرهوا الموت في سبيل الله.

لهذا نهى القرآن عن الاستسلام لهذا الوهن والضعف {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ} لأن الإسلام يعلو ولا يعلو - {... وَاللَّهُ مَعَكُمْ ...} إذا تخلت عنكم روسيا أو غيرها، حسبك أن يكون الله معك، ومن كان الله معه فلن يضيع، ومن نصره الله فلا يغلب {إِنْ يَتَّصِرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ} [آل عمران: 160].

لنأخذ مثلاً من إختنا في البوسنة والهرسك، هؤلاء الصامدون الذين رأيناهم كما نشرت الصحف من أيام: ثمانية عشر رجلاً منهم في سجن من سجون الكروات، يقتسمون رغيفاً من طول ما أهلكهم الجوع، كل واحد يأخذ منه لقيمة، ومن شدة العطش لعقوا بأفواههم الثرى، عسى أن يجدوا فيه بعض

(231) من حديث ثوبان الذي أخرجه أبو داود وأحمد. وأوله: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. قال قائل: يا رسول الله ومن قلة يومئذ؟ قال: لا بل أنتم كثير، ولكنكم غناء كغناء السيل...» «شرح البغوي» بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (16/15)، حديث (4224).

الندى.

هؤلاء صمدوا فأين أبناء فلسطين؟ لماذا لا يصمدون؟ لماذا يهينون ويستكينون؟ وقد قال الله تعالى في شأن قوم: {وَكَايِن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ} - وفي قراءة قتل معه ربيون كثير - {وَكَايِن مِّن نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ 146 وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 146، 147]. أي إنهم اتهموا أنفسهم: إذا كنا أصبنا في بعض المعارك، فلا بد أن نكون قد أذنبنا أو قصرنا، ولذلك سألوا الله المغفرة، قبل أن يسألوه التثبيت والنصر.

نهى القرآن عن الاستسلام للوهن {فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَلِكُمْ} [محمد: 35]. {وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران: 139]، {وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِعَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ} [النساء: 104] إن قلتم إننا قد ضحينا وعانينا وتعبنا، فالعدو أيضاً يضحى ويعاني ويتعب، ولكن فرق بين من يعاني في سبيل الله ... في سبيل الحق ... في سبيل الشرف والعدل ... ومن يعاني ويتعب في سبيل الطاغوت ... في سبيل الظلم والباطل {إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ}.

يا أيها الأخوة: ربما يقول البعض: هذا شأن فلسطيني، وهل نحن فلسطينيون أكثر من الفلسطينيين، وملكيون أكثر من الملك كما يقال؟ ونقول: صحيح أن هذا ربما كان في المقام الأول شأنًا فلسطينيًا، ولكن هل دعيت

السلطة الشرعية الوطنية الأولى للفلسطينيين في مثل هذا الأمر الجلل؟ هل دعى المجلس الوطني الفلسطيني قبل أن يصدر قرار ويفاجأ بالأمر الواقع؟ لم يحدث.

ثم إن هناك فصائل لها شأنها في الجهاد الفلسطيني، إسلامية وغير إسلامية ترفض هذا، لم يجمع إذن الشعب الفلسطيني. ثم من يقول: إن فلسطين ... إن المسجد الأقصى ... إن قبة الصخرة ... إن أرض الإسراء والمعراج، هي ملك للفلسطينيين وحدهم؟ لا ... إنها ملك المسلمين جميعاً، ملك هذه الأمة من مشرق الأرض إلى مغربها، ملك الأجيال الإسلامية كلها. حتى لو وهن هذا الجبل وتخاذل، فليس من حقه هذا، لأنه يقطع الطريق على الأجيال القادمة.

فلسطين أرض المسلمين، إن الذي حرر المسجد الأقصى من الصليبيين من قبل، بعد بقائه تسعين عاماً في أيديهم لم يكن فلسطينياً، ولم يكن عربياً، بل كان رجلاً كردي الأصل، وإن عربيه الإسلام، كان كردياً اسمه «صلاح الدين الأيوبي» هذا هو الذي هيا الله على يديه النصر، وقامت معركة حطين، وفتح بيت المقدس، لهذا نقول: إن هذه القضية قضية المسلمين حيثما كانوا.

لا ينبغي أن تسقط الراية أبداً، سيظل الجهاد مستمراً، وعندنا بشائر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن المعركة بيننا وبين اليهود قائمة، نقاتلهم ويقاتلوننا. قال صلى الله عليه وسلم: «تقاتلكم اليهود - وفي رواية تقاتلون اليهود - فتسلطون عليهم، حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر والشجر

فيقول الحجر: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله»⁽²³²⁾. وفي بعض الألفاظ: «حتى يختبي اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله...»⁽²³³⁾. هذا ما رواه البخاري ومسلم عن ابن عمر، وعن أبي هريرة.

وروى عبد الله بن أحمد في المسند والطبراني في معجمه الكبير بسند رواه ثقات، عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين، ولعدوهم قاهرين، لا يضرهم من خالفهم أو جابهم، إلا ما أصابهم من لأواء»⁽²³⁴⁾ «اي من أدى كأن يسقط منهم شهداء وضحايا» قالوا: يا رسول الله: وأين هم؟ قال: «ببيت المقدس، وأكناف بيت المقدس»⁽²³⁴⁾.

هؤلاء المرابطون مستمررون. بشائر رسول الله صلى الله عليه وسلم تعطينا الأمل وتزرع في نفوسنا الرجاء، أن هذه الأمة منصوره، وأن هناك طائفة ستظل مستمسكة بعروة الحق لا انفصام لها، لا تستخذي ... لا تتحني ... لا تستسلم، مهما عصفت الريح من حولها، لأنهم يعتقدون أن نصر الله آت لا ريب فيه، وأن هناك معركة قادمة، سيكون كل شيء فيها مع المسلمين، ولصالح المسلمين، حتى الحجر والشجر ينطق ... هل ينطق بلسان الحال، أو ينطق بلسان المقال؟ أيا ما فسرنا هذا الأمر، فعندما يأتي النصر يكون كل

(232) ذكره في «صحيح الجامع الصغير» برقم (2977).

(233) سبق تخريجه (ص 172)، و (ص 222).

(234) هو في «المسند» (269/5) وفي «مجمع الزوائد» (288/7) وقد تقدم تخريجه (ص

شيء معنا. وعندما يقدر عليك الخذلان، فكل شيء ضدك، حتى السلاح الذي في يديك، كما رأينا هذا في سنة 1967 م.

إن المعركة قادمة، وفلسطين هي أرض الإسلام، والأقصى يجب أن يكون إسلامياً، وفي يد المسلمين، والقدس هي عاصمة فلسطين.

غنا ينبغي أن نؤكد على أمور لا بد منها وهي:

إن المعركة دينية إسلامية⁽²³⁵⁾، هذه هي الحقيقة، ومن أجل ذلك نتحدث عنها على هذا المنبر، لا يظن بعض الناس أننا نتحدث في السياسة، نحن نتحدث في الدين ... في صلب الدين، نتحدث في أرض الإسراء والمعراج، وفي المسجد الأقصى. القضية إسلامية كما أنها من جانب «صهيون»

(235) وهذا ما نادى به الشيخ في أكثر من كتاب من كتبه، أو خطبة من خطبه، أو محاضرة من محاضراته، وهو ما ينبئ به لفظ الحديث الصحيح: «يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون ... فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله ...» فالحديث حدد أوصاف المقاتلين الذين ينصرهم الله على اليهود من خلال قوله: «المسلمون» ومن خلال نداء الحجر أو الشجر للواحد منهم: «يا مسلم، يا عبد الله» وليس: يا عربي، أو يا قومي، أو يا وطني، ثم إننا إذا أسقطنا من حسابنا «إسلامية المعركة» وخضناها على أساس أن فلسطين أرض عربية فحسب خسرت المعركة وكسبها اليهود.

فللعامل الديني وزنه وأهميته، وهذا ما يعيه اليهود جيداً، ويحرصون على استغلاله في حربهم مع المسلمين. وجاء في مذكرات «وايزمان» حول هذه النقطة ما يلي: «ولقد قابلت لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذي بادر بسؤالي على الفور: لماذا لم تقبلوا إقامة الوطن القومي في أوغندا؟ وقلت لبلفور: إن الصهيونية حركة سياسية قومية، هذا صحيح، ولكن الجانب الروحي منها لا يمكن إغفاله، وأنا واثق تمام الوثوق أننا إذا أغفلنا الجانب الروحي فإننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسي القومي» نقلاً من كتاب «خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية» للأستاذ عبد الله التل (ص 401)، ط. المكتب الإسلامي.

يهودية ... يهودية لحمًا ودمًا.

هل شاهدتم وسمعتم حفل التوقيع؟ هل سمعتم ما قال «رابين»؟ إنه انتهز فرصة أن العالم يسمعه، فأراد أن يؤكد يهودية القضية، فاستشهد بالتوراة وقرأ فقرات من «سفر الجامعة» أحد أسفار العهد القديم، وتحدث عن السنة العبرية اليهودية. استشهد بالتوراة، ولم نر أحدًا من وفدنا استشهد بآية من القرآن، أو جاء على لسانه مجرد ذكر الإسلام، أو ذكر مجرد كلمة «المسجد الأقصى» فيا للهوان! ويا للضياع!!

القضية إسلامية هذا ما ينبغي أن نؤكد، والنصر ينبغي أن نؤمن به، قد يبطل علينا، وهذه سنة من سنن الله، حتى نستكمل عدده، وحتى تمحصنا الأحداث، ليمتحن الله ما في صدورنا، وليمحص ما في قلوبنا. ولتفرز المعركة الأبطال الحقيقيين، ويتميز الخبيث من الطيب، ولكن النصر آت لا ريب فيه.

لا ينبغي أن نستعجل الثمرة قبل أوانها، ونفرط في تاريخ الجهاد، ويضيع دم عز الدين القسام، وعبد القادر الحسيني، وأبي جهاد، وغيرهم، وتضيع الدماء في دير ياسين، وصبرا، وشاتيلا عبثًا، ينبغي ألا نفرط في هذه الدماء.

في معرض الكتاب بالدوحة عقد في ديسمبر من عام 1993 م، واقامت فيه ندوة شعرية، ألقى قصيدة انكر فيها ما يعرض في مؤتمرات السلام هذه، أنكر فيها أن نرضى بحكم لكل ما بقى من فلسطين تحت الرعاية الصهيونية والعلم الإسرائيلي، وقلت فيما قلت في ذلك الوقت:

فيا عجبًا لمن يجري وراء سرابه النفسي

يظن له به ريا ويرجع فارغ الكأس
يفرط في دم الشهداء ياللعار والبؤس!
يبيع الأرض والتاريخ بالأرخص من فلس
بحكم في حمى صهيون يالللثمن البخس!
فلا دولته قامت ولا أبقى على النفس
وضاع جهاد أجيال فقد دفنوه في الرمس
جهود كلها ذهببت «كأن لم تغن بالأمس»
فما معنى فلسطين بلا أقصى ولا قدس؟
فلسطين بلا قدس كجثمان بلا رأس⁽²³⁶⁾
ولكنا قبلنا الجثمان بغير الرأس!!

القضية إسلامية، والنصر أت، وينبغي أن نعلم ذلك لأولادنا، ونلقنه أبناءنا
هو لاء المظلومين ... إننا نشفق والله على أبنائنا واحفادنا الذين ظللنا نحفظهم
أناشيد العودة، وأغاني البطولة والقدس والأقصى، ثم بعد ذلك نسكت عن هذا
كله مرة واحدة.

إسرائيل التي قلنا: إنها خطر اقتصادي وثقافي وديني وسياسي وعسكري
و ... و ... الآن نمد إليها اليد، ونرى أعداء الأمس شركاء اليوم! ماذا نقول
لأبنائنا وأحفادنا؟ ينبغي أن نحمي أبناءنا من الخطر القادم الآن، وهو عملية
غسيل المخ.

(236) انظر: القصيدة بكاملها في ديوان الأستاذ القرضاوي الذي صدر مؤخرًا تحت عنوان
«المسلمون قادمون» (ص 93 - 97).

احذفوا إذن من القرآن: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدُوًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَلْيَهُودَ...} [المائدة: 82]، احذفوا إذن من القرآن: {... وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [الأعراف: 167]، احذفوا من البخاري ومسلم: «تقاتلون اليهود فتسلطون عليهم...»⁽²³⁷⁾، اغسلوا أمخاج ابنائكم وأحفادكم!!

لا والله، سنثبت، ونصبر، ونقاوم، القضية لم تنته بعد، وهي مستمرة. كل ما نريده من أبناء فلسطين وقد حدث ما حدث: ألا يضرب بعضهم رقاب بعض، ألا يسفك بعضهم دماء بعض، حرام أن تراق قطرة دم فلسطينية من أجل ما يريده اليهود، دعوا الانتفاضة تعمل عملها خارج غزة وأريحا في الأرض المحتلة الباقية، وهذا أضعف الإيمان لأننا ظللنا سنين نقول: إسرائيل كلها قائمة على الاغتصاب والعدوان، وما قام على الباطل فهو باطل، ولا حق لها في الوجود.

حتى لو رضينا بالذل ... بما لا يقبله مسلم بمنطق الإسلام والإيمان، حتى لو رضينا بهذا، لا يجوز أن تقمع الانتفاضة، ويقمع الجهاد من أجل حماية أمن اليهود، لا يجوز هذا.

هذا ما نرجوه من إخواننا في فلسطين أمام هذا الوضع الجديد.

يا أيها الآخوة: نحن في أوضاع ربما يقابلها بعض الناس بالتشاؤم أو باليأس ولكني أقول والله: إن هذه الأوضاع لن يكون من ورائها إلا إيقاد الجذوة، وإلا استمرار الصحوة، وإلا نفخ روح القوة، وإلا أن هذا العملاق

(237) تقدم ذكره كاملاً في (ص 235، 236).

سينقض من جديد.

لقد طالما أصاب الإسلام محن طوال تاريخه، منذ حروب الردة، ومنذ حروب التتار، ومنذ غزوات الصليبيين، ومنذ الاستعمار الذي احتل ديار الإسلام، ولكن الإسلام لم يمت، وهذه الأمة لم تمت، وان قدر الله لهذه الأمة أنها لا تموت، وأنها ستظل تفرز الأبطال يوماً بعد يوم.

إن الذي أخرج طارق بن زياد من قديم، وصلاح الدين الأيوبي، ومحمد ابن مراد الفاتح، وعبد القادر الجزائري، وعمر المختار، وعز الدين القسام وغير هؤلاء من المجاهدين المقاتلين، سيخرج أمثالهم وأمثالهم، وقد أخرج، وها نحن نرى - و الحمد لله - ما يطمئن النفوس.

إن فلسطين إسلامية، والمعركة إسلامية دينية، لن يبني الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى، لن تنتصر اليهودية المنسوخة على الإسلام الخالد، لن تنتصر التوراة المحرفة على القرآن المحفوظ، لن ينتصر الباطل على الحق، بل الحق سينتصر، لأن الله هو الحق المبين {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَو لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

أقول قولي هذا أيها الإخوة، وأستغفر الله تعالى لي ولكم، وادعوه يستجب لكم، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الخطبة الثانية:

أما بعد: فقد ورد أن في يوم الجمعة ساعة إجابة، ولعلها تكون هذه الساعة. اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها

معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر، اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، اللهم اجعل كلمة الإسلام هي العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هي السفلى.

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على الصليبيين، اللهم انصرنا على الوثنيين، اللهم رد عنا كيدهم، وقل حدهم، وأذل دولتهم، واذهب عن أرضك سلطانهم، ولا تدع لهم سبيلاً على أحد من عبادك المسلمين.

الله ارفع بنا راية الإسلام واعل بنا كلمة القرآن. واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]، {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

عباد الله: سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} [الأحزاب: 56]. اللهم صل وسلم وبارك على عبدك ونبيك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

{... وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [العنكبوت: 45].

خطبة عيد الفطر (238)

ألقيت في ميدان عابدين بالقاهرة سنة 1977م

الحمد لله, الحمد لله (239) نحمده ونستعينه ونستغفره, ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضل له, ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمداً عبده ورسوله, صلوات الله وسلامه عليه, ورضي الله عن آله وأصحابه, الذين آمنوا به وعزروه ونصروه, واتبعوا النور الذي أنزل معه, أولئك هم المفلحون.

أما بعد فيا أيها المسلمون:

هذا يوم العيد, هذا يوم التكبير (240). زينة أعيادنا نحن المسلمين التكبير, فإله أكبر الله أكبر الله أكبر, الله أكبر الله أكبر الله أكبر, الله أكبر الله أكبر الله أكبر, لا إله إلا الله والله أكبر, الله أكبر والله الحمد.

الله أكبر شعار المسلمين, يدخل المسلم صلاته في كل يوم خمس مرات

(238) قال الشيخ سيد سابق: «وكل ما ورد في أن للعيد خطبتين يفصل بينهما الإمام بجلس فهو ضعيف»، قال النووي: «لم يثبت في تكرير الخطبة شيء». «فقه السنة» (322/1) ط. مكتبة الخدمات الحديثة.

(239) ذكر العلامة ابن القيم في «زاد المعاد»: «أنه لم يثبت أنه صلى الله عليه وسلم ابتداء خطبة - لا في جمعة لا في عيد - بغير الحمد لله». يراجع «زاد المعاد» (447/1)، (448).

(240) تكبير عيد الفطر سنة، ووقته عند الأكثر من حين خروج الإمام للصلاة إلى مبتدأ الخطبة.

بهذه الكلمة العظيمة: الله أكبر, يؤذن للصلاة كل يوم خمس مرات ويفتح أذانه بهذه الكلمة: الله أكبر الله أكبر, يقيم لصلاته كل يوم خمس مرات, يفتح إقامته بهذه الكلمة: الله أكبر الله أكبر, إذا ذبح المسلم ذبيحة, سمي الله وكبير: بسم الله والله أكبر.

الله أكبر هي شعار المسلم في كل حين, إذا دخل المسلم معركة, كانت الصيحة التي تملأ قلوب الأعداء فرعاً وخوفاً, هي صيحة: الله أكبر الله أكبر. الله أكبر هي زينة العيد, فكبروا الله, وقولوا: الله أكبر الله أكبر, لا إله إلا الله والله أكبر, الله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة المسلمون:

هذا يوم العيد, هذا يوم عيد الفطر, وللمسلمين عيدان: عيد الفطر وعيد الأضحى, وكل عيد يأتي بعد عبادة من العبادات الكبرى, وبعد فريضة من الفرائض العظمى, عيد الأضحى يأتي بعد الحج, وعيد الفطر يأتي بعد الصيام {... وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [البقرة: 185].

جاء هذا العيد, ليفرح فيه المؤمنون بتوفيق الله, و«للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره, وإذا لقي ربه فرح بصومه»⁽²⁴¹⁾. إذا أفطر كل يوم فرح, وإذا أفطر بعد الفراغ من رمضان فرح فرحة أخرى, هي فرحة التوفيق لطاعة الله عز وجل, هي أن الله عسع عليه بنعمة الصيام

(241) من حديث أبي هريرة الذي رواه البخاري واللفظ له, ورواه مسلم. انظر «المنقى من كتاب الترغيب والترهيب» (307/1), حديث (505) وقوله: «إذا أفطر فرح بفطره» يحتمل أن تكون فرحته عند الإفطار بالطعام, ويحتمل أن يكون سروره بما وفق له من تمام الصوم واستحقاقه الثواب الجزيل.

والقيام، وجاء العيد متمماً لهذه النعمة، وفيه يفرح المؤمنون بتوفيق الله {قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ} [يونس: 58].

ومن شكر نعمة الله على توفيقه ألا يعيش المسلم فرحة العيد وحده، بل يجتهد أن يشرك معه الفقراء والمساكين من عباد الله، ولهذا فرض الإسلام زكاة الفطر من رمضان، يؤديها المسلم عن نفسه وعن يموئه ويولي عليه من زوجة وأولاد، وهي مقدار يسير يجب على من يملكه فاضلاً عن قوت يوم العيد ولينته ولو لم يكن مالاً للنصاب عند جمهور العلماء. فقد أراد الإسلام أن يعوّد المسلم العطاء والإنفاق في السراء والضراء، وأن تكون يده العليا يوماً، فهو يعطي وإن كان فقيراً، وقد يعطي الصدقة من ناحية، وتجيئه - لفره - صدقات من ناحية أخرى، وفي الحديث: «... أما غنيكم فيزكيه الله، وأما فقيركم فيردّ الله عليه أكثر مما أعطى»⁽²⁴²⁾.

والمسلم يطلب المسكين في هذا اليوم ويوصل إليه الصدقة في مكانه، كما جاء: «أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم»⁽²⁴³⁾.

أيها الإخوة: يوم العيد أشبه بيوم الوعيد، أشبه بيوم القيامة {وَجُودَ يَوْمِنِذٍ مُّسْتَفْرَّةً 38 ضَاحِكَةً مُّسْتَبْشِرَةً 39 وَوَجُودَ يَوْمِنِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ 40 تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ}

(242) رواه أحمد، وأبو داود. انظر الحديث (572) من «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب».

(243) رواه ابن عدي والدارقطني عن ابن عمر رضي الله عنهما بإسناد ضعيف. «سبل السلام» (270/2)، وأخرج البيهقي والدارقطني عن ابن عمر قال: فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر وقال: «أغنوهم في هذا اليوم»، وفي رواية للبيهقي: «أغنوهم عن طواف هذا اليوم»، وأخرجه أيضاً ابن سعد في «الطبقات» من حديث عائشة وأبي سعيد «نيل الأوطار» (258/4).

[عبس: 38 - 41].

أما المستبشرون الفرحون، فأولئك الذين أتم الله عليهم نعمة الصيام والقيام، فهم في هذا اليوم يفرحون وحقّ لهم أن يفرحوا. وأما الوجوه التي عليها غبرة، ترهقها قنطرة، فوجوه أولئك الذين لم يقدرُوا نعمة الله، ولم يمتثلون لأمر الله في الصيام والقيام، فيا ويلهم ثم يا ويلهم {فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى 31 وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى 32 ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ 33 أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ 34 ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ}.

[القيامة: 31 - 35].

أيها الإخوة المسلمون:

هذا يوم عيدنا، يوم العيد ليس يوم انفلات ولا انطلاق للشهوات، بعض الملل والنحل عيدها عيد شهوات، عيد إباحية وذات، ولكن عيد المسلمين يبدأ بالتكبير ويبدأ بالصلاة. فيه المعنى الرباني، فيه معنى الصلة بالله عز وجل، فأول شيء في يومنا هو التكبير، وثاني شيء هو الصلاة.

العيد ليس معناه انطلاقاً من كل قيد، لا، وليس العيد قطعاً للصلة بالله عز وجل، إن بعض الناس يظنون انقضاء رمضان، هو انقضاء العهد بالمساجد والجماعات والصلوات والطاعات، لا... لا يا إخواننا المسلمين... لا، من كان يعبد رمضان فإن رمضان قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

إن رمضان موسم المتقين، ومتجر الصالحين، والتاجر يضاعف نشاطه في الموسم، ولكنه لا يغلق دكانه بعد الموسم. إن رمضان موسم نشحن فيه بطاريات القلوب بمعاني الإيمان والتقوى، والرغبة فيما عند الله، والإقبال على

ما عند الله. وعلامة القبول في رمضان, أن يظل الإنسان موصولاً بحبل الله بعد رمضان, ألا يقطع الود بينه وبين ربه, وقد كان بعض السلف يقولون: بنس القوم قومًا لا يعرفون الله إلا في رمضان, كن ربانيًا ولا تكن رمضانياً. لا تكن إنسانًا موسميًا يعرف الله شهرًا في العام, ثم بعد ذلك ينقطع عن طاعة الله, وعن عبادة الله.

من كان قد قُبل صيامه, وقُبل قيامه, فلذلك علامة. علامة هذا أن نجد أثر ذلك بعد رمضان {وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ} [محمد: 17]. فمن علامة قبول الحسنة, ومن ثواب الحسنة: الحسنة بعدها. ومن عقوبة السيئة: السيئة بعدها.

فيا أخي المسلم كن مع الله دائمًا, إن الله يحب الطاعة في كل زمان, ويكره المعصية في كل أوان, ورب رمضان هو رب شوال, هو رب ذي القعدة, هو رب سائر الشهور.

كن مع الله أبدًا, إتق الله حيثما كنت, في أي مكان كنت, وفي أي زمان كنت, وعلى أي حال كنت {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَتَمَّ وَجْهُ اللَّهِ...} [البقرة: 115].

أيها الإخوة المسلمون:

نحن في يوم العيد ... عيد الفطر, نحن في يوم من أيام الله, نحن في يوم مهرجان إسلامي, كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي العيد في الخلاء, ولم يرد أنه صلى العيد في مسجد, إلا ما روي أن السماء أمطرت يومًا فاضطر

إلى إقامة العيد في المسجد⁽²⁴⁴⁾. وإنما كان يصلي في الخلاء, ليجتمع المسلمون الذين في المدينة جميعًا في صعيد واحد, وفي مكان واحد, في مهرجان إسلامي كبير, يجتمع فيه الرجال والنساء, حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئِل: إذا كانت إحدانا ليس لها «جلباب» أي عباة, أو ملاءة, أو ثوب خارجي تلتحف به وتخرج, فماذا تفعل يا رسول الله؟ قال: «لتعرها أختها من جلابيها»⁽²⁴⁵⁾. تستعير جلابيًا وتخرج للصلاة.

وكان الصبيان يخرجون, وكانت المرأة تخرج, حتى المرأة الحائض, التي

(244) عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أنهم أصابهم مطر في يوم عيد فصلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العيد في المسجد» رواه أبو داود بإسناد لين؛ لأن فيه رجلًا مجهولًا، ورواه ابن ماجه، والحاكم بإسناد ضعيف. وقد اختلف العلماء على قولين هل الأفضل في صلاة العيد الخروج إلى الجبانة - أي الصحراء - أو الصلاة في مسجد البلد إذا كان واسعًا؟ وعند مالك وجمهور العلماء الخروج إلى الجبانة أفضل ولو اتسع المسجد للناس، وحثهم محافظته صلى الله عليه وسلم على ذلك ولم يصل في المسجد إلا لعذر المطر، ولا يحافظ صلى الله عليه وسلم إلا على الأفضل، ولقول علي رضي الله عنه: «لولا أنه السنة لصليت في المسجد، واستخلف من يصلي بضعفه الناس في المسجد». «سبل السلام» (123/2، 124) و«نيل الأوطار» (359/3، 360). ويقول البغوي من الشافعية: «السنة أن يخرج إلى المصلى لصلاة العيد، إلا من عذر، فيصلي في المسجد» «شرح السنة» (294/4).

(245) عن أم عطية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج الأبيكار والعواتق، وذوات الخدور، والحيض في العيدين، فأما الحيض فيعتزلن المصلى، ويشهدن دعوة المسلمين، قالت إحداهن: إن لم يكن لها جلاباب؟ قال: «فلتعرها أختها من جلابيها». رواه البخاري ومسلم، والترمذي. والعواتق: جمع العاتق، وهي الجارية التي قاربت الإدراك. وقال البغوي: وفيه دليل على أن الحائض لا تهجر ذكر الله ومواطن الخير ومجلس العلم، إلا أنها لا تدخل المسجد. «شرح السنة» للبغوي بتحقيق الشاويش والأرنؤوط (319/4)، (320) حديث (1110).

ليس عليها صلاة, ولا يقبل منها صلاة, كانت تحضر العيد, تعتزل الصلاة, ولكنها تشهد الخير ودعوة المسلمين⁽²⁴⁶⁾.

والحمد لله قد أحيا الشباب الإسلامي في هذا البلد هذه السنة, التي أميتت زمنًا طويلاً, سنة مشاركة المرأة المسلمة في صلاة العيد, فجعلوا جناحًا للأخوات المسلمات, وجعلوا كذلك متسعًا للصبيان, وشجعوهم بالحلوى والهدايا, وهكذا ينبغي أن نكون.

ينبغي أن نحيي السنن المهجورة, السنن التي أماتها الناس في عصور التخلف والانحطاط, ونحمد الله عز وجل أن سننًا كثيرة قد أحييت, بفضل الحركة الإسلامية, حركة الإسلام, وحركة الشباب المسلم في هذا البلد.

كانت هناك سنة لم يكن يعرفها إلا القليل النادر, أو الشاذ من الناس, وهي سنة الاعتكاف في رمضان, وفي العشر الأواخر من رمضان. والحمد لله أحييت هذه السنة بفضل هذا الشباب الإسلامي في كثير من المساجد, فالحمد لله ما زال الإسلام بخير.

رأينا عشرات ومئات من الشباب, يتحدثون «المودات», ويتحدون البدع الوافدة من الشرق والغرب, يطلقون لحاهم, ويحيون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رأينا أخوات مسلمات, يقفن ضد التيار... التيار الزاحف بالفجور والتحلل ويتحجبن, بل ويتنقبن. إن هذا النقاب الذي يعترضه بعض الناس - وإن كنت لا أقول بوجوده ولا استحبابه في عصرنا - إنما يمثل التحدي, التحدي

(246) سبق ذكره في الهامش السابق.

للحضارة الغربية: حضارة التطل والعري والإباحية، والتحدي لعبيد الحضارة الغربية وتلاميذها.

الحمد لله، هذه الحركة الإسلامية - نجدها - والحمد لله - في كل مكان. شباب مسلم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، يصومون الإثنين والخميس، يقرأون القرآن، يقرأون السنن والسير، يتفقهون في دين الله، يقومون بخدمة المجتمع، يستنبقون الخيرات.

كان الناس قد ظنوا يوماً أن الحركة الإسلامية في هذا البلد لن تقوم لها قائمة، فلقد ضربت ضربات وحشية متلاحقة.

في عهد الطغيان⁽²⁴⁷⁾، اختلطت الشياطين باللحم والدماء في رجال وشباب من أبناء هذا البلد، ولكنهم ظلوا رجالاً والرجال قليل. كان هناك من يتحدى الله فوق سمواته وفوق عرشه، كان هناك من يقول: هاتوا ربكم وأنا أحطه في زنزارة⁽²⁴⁸⁾!! كان هناك المتجبرون المتكبرون. أين هؤلاء؟ لقد ذهبوا ولم يعد لهم إلا ذكر السوء، ولعنة السوء عليهم من الله والملائكة والناس أجمعين.

وبقي الإسلام، وبقيت حركة الإسلام، بقيت هذه الحركة، لم يطو بساطها كما ظنوا، لم تنكس أعلامها، بل ظهرت في مثل هذه التجمعات الإسلامية، التي يدعو إليها الشباب المسلم المثقف.

(247) يعني: عهد عبد الناصر وزبانيته في السجن الحربي وغيره.

(248) هو الواء حمزة البسيوني قائد السجن الحربي، الذي قتل في حادث سيارة فمزقته شر ممزق، ولم يغن عنه تطاوله شيئاً.

يا أيها الإخوة:

الإسلام بخير إذ وعيناه, وفهمناه, وعملنا له, والتفطنا حوله.

إن هذه الظاهرة ... ظاهرة الشباب الإسلامي, في كل مكان. المعسكرات الإسلامية, المخيمات الإسلامية, الوعي الإسلامي, إنها ظاهرة صحيّة.

إنها ظاهرة ترينا بكل وضوح, أن هذه الأمة لم تكفر بربها, ولا بقرآنها, ولا بمحمدنا عليه الصلاة والسلام. إنها ما زالت موصولة بالإسلام, وإنما تحتاج إلى من يصحّيها, إلى من ينبهها من غفلتها, إلى من يوقظها من نومها, إلى من يجمع شتاتها, إلى من يحيي مواتها, إلى من ينفخ فيها روح الإيمان, وإلى من يناديها بـ «الله أكبر».

«الله أكبر» هي الكلمة التي تفعل الأعاجيب. «الله أكبر» هي الكلمة التي توقظ القلوب من الغفلات, هي التي تجمّع الناس من الفرقة والشتات.

هذه الأمة فيها خير, فيها كنوز مرصودة, ولكن أين من ينبش عنها؟ ليس هناك شيء يحرك عزائم هذه الأمة مثل كلمة الإيمان وكلمة الإسلام.

لن تحركها الاشتراكية, ولا الثورية, ولا الديمقراطية, ولا العروبة, ولا الوطنية, ولا القومية, وإنما حركتها كلمات الله, حركتها كلمة الإسلام, حركها «قطر» يوم نادى فيها نداءه المعروف: وإسلاماه ... وإسلاماه, ولا زال الأمر كذلك.

هذه الأمة إنما تقاد باسم الله, باسم الإسلام, باسم الإيمان. بغير هذا لا يمكن أن تجد هذه الأمة نفسها, ولا أن نصنع منها شيئاً ذا بال.

إن لكل أمة شخصية, ولكل شخصية مفتاح, إنك إذا أردت أن تفتح قفلاً
بغير مفتاحه, لن يفتح إلا إذا كان قفلاً غير أصيل. القفل الأصيل لا يفتح إلا
بمفتاحه الخاص.

وهذه الأمة مفتاحها الإيمان, حرّكها بالإيمان تتحرك, قدها بالإيمان وهي
تنقاد, اجعل منها أمة الأمم إذا حركتها بدوافع الإيمان بالله عز وجل, إنها
تتخطى العقبات, وتصنع المستحيلات, وتنشئ البطولات, وتعيد لنا عهد خالد,
وطارق, وصلاح الدين من جديد, وهذا ما يخشاه أعداء هذه الأمة.

يخشون أن تتحرك هذه الأمة بالإسلام, ولهذا يضعون العقبات وراء
العقبات, ويحاولون تشويه الحركة الإسلامية, والتخويف منها, والتفجير من
دعوتها, وإطلاق الشائعات حولها, وما رأينا أنظف من هذه الحركة, ولا أمثل
منها, أهدافاً وطرائق وأسلوباً ورجالاً وشباباً وشابات, النظافة في كل شيء,
الإخلاص في كل شيء, الإيمان في كل شيء, هذا أيها الناس ما ينبغي أن
نسجله, وهذا ما يفرح به المؤمنون.

وفي مقابل هذا أريد أن أسجل شيئاً: لقد جئت قبل انقضاء رمضان بيومين,
ولكنني رأيت عجباً, ما كنت أراه من قبل في هذا البلد ... البلد الذي دينه
الإسلام ... بلد المساجد ... بلد الأزهر ... بلد العلم والقرآن, رأيت عجباً أيها
الإخوة المسلمون, رأيت الناس يعالنون بالإفطار في رمضان, رأيت محلات
العصير والناس عليها مزدحمون, رأيت من يبيع «العرقسوس» و«الكولا»
وغيرهما في الشوارع في نهار رمضان, حتى في حي الأزهر. رأيت
وسمعت أن الناس يجاهرون بشرب الدخان في الشوارع, رأيت أشياء من هذا
النوع.

أين نحن؟! نحن في أوروبا أم في أمريكا؟! ألسنا في مصر، والتي حملت الإسلام وحمت زماره أكثر من ألف عام؟ ألسنا في بلد الأزهر؟ ألسنا في بلد العلماء؟ ألسنا في بلد القرآن؟

ما هذا؟ ولم السكوت على هذا المنكر؟

إن أشد من المنكر أن يسكت على المنكر، أن يحدث هذا ولا يجد المفطر المجاهر من يقول له: أيها المفطر اختبئ إن كنت معذورًا، وإن كنت فاجرًا فلا تظهر فجورك على الناس.

لم يفعل هذا الشعب، ولم تفعل هذا الشرطة، ولم يفعل ذلك أحد، فأين نحن؟! وكيف ننتظر نصر الله عز وجل إذا كنا نرتكب المنكرات عيانًا بيانًا، جهازًا نهارًا؟ ونصر الله لا يأتي إلا إذا نصرناه، والله تعالى قد حدّد صفة المنصورين، الذين يستحقون نصره بقوله: {... وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ 40 الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَعَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبُ الْأُمُورِ} [الحج: 40 - 41].

كيف يحدث هذا في بلد إسلامي، بل في بلد واجهته الإسلام، ويفتخر بالإسلام، كيف تحدث هذه المنكرات؟!

كنت أعلم من قديم أن الناس قد يتركون الصلاة، ولكن إذا جاء رمضان صلوا، وإذا جاء رمضان صاموا. كان الإنسان الفاجر... الإنسان الشرير، لا يجرؤ على انتهاك حرمة رمضان. كان لرمضان حرمة، وهيبة في قلوب الناس، حتى النصارى كانوا يتركون شرب الشاي والتدخين في مكاتبهم طوال نهار رمضان، رعاية لحرمة عند المسلمين، فليت شعري أين ذهبت

هذه المهابة؟! وأين ضاعت هذه الحرمة!؟

إن النبي صلى الله عليه وسلم حذّرنا من هذا العصر الذي تموج فيه الفتن كموج البحر، والتي تضل الناس عن عقائدهم ببريق المادة، وجاذبية الطين، يقول عليه الصلاة والسلام: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع أحد دينه بعرض من الدنيا قليل»⁽²⁴⁹⁾.

ومن فتن هذا العصر التي حذّرت منها الأحاديث: طغيان النساء، وفسق الشباب، وترك الجهاد في سبيل الله، وترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بل اضطراب المعايير، حتى يرى الناس المعروف منكراً، والمنكر معروفاً! وهو ما جاء في الحديث الذي رواه أبو أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «كيف أنتم إذا طغى نساؤكم، وفسق شبابكم، وتركتم جهادكم؟»، قالوا: وإن ذلك كائن يا رسول الله؟! قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون»، قالوا: وما أشد منه؟ قال: «كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف ولم تنهوا عن المنكر؟»، قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟! قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون». قالوا: وما أشد منه؟! قال: «كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً؟» قالوا: وكائن ذلك يا رسول الله؟! قال: «نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون، يقول الله تعالى: بي حلفت لأتيحنّ لهم فتنة يصير الحليم فيها

(249) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي عن أبي هريرة «صحيح الجامع الصغير» وزيادته (2814).

حيران»⁽²⁵⁰⁾.

نحن في هذه الفتنة التي تذر الحليم حيران, ولكن لهذه الفتنة مخرجًا واحدًا, هو الرجوع إلى الإسلام, إلى القرآن ... دستور هذه الأمة ومنهاجها الرباني. روى الترمذي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم». قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟ قال: «كتاب الله سبحانه وتعالى, فيه نبأ من قبلكم, وخبر ما بعدكم, وحكم ما بينكم, هو الفصل ليس بالهزل, من تركه من جبار قصمه الله, ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله, هو حبل الله المتين, ونوره المبين, والذكر الحكيم, وهو الصراط المستقيم, وهو الذي لا تزيغ به الأهواء, ولا تلتبس به الألسنة, ولا تتشعب معه الآراء, ولا يشعب منه العلماء, ولا يمله الأتقياء, ولا يخلق على كثرة الرد, ولا تنقضي عجائبه, هو الذي لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا: إن سمعنا قرآنًا عجبا، من علم علمه سبق, من قال به صدق, ومن حكم به عدل, ومن عمل به أجر, ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم»⁽²⁵¹⁾.

(250) قال الحافظ العراقي في «تخريج الإحياء» أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد ضعيف من حديث أبي أمامة، ورواه أبو يعلى من حديث أبي هريرة مقتصرًا على الأسئلة الثلاثة الأولى وأجوبتها، وإسناده ضعيف أيضًا (309/2) ط. دار المعرفة ببيروت. وانظر «مجمع الزوائد» (280/7، 281) و«إتحاف السادة المتقين» (17/8) ط. دار الكتب العلمية ببيروت.

(251) رواه الترمذي من أبواب ثواب القرآن: باب ما جاء في فضل القرآن، حديث (2908) وقال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث - أي الأعور - مقال. وانظر «تفسير القرطبي» (5/1) ط. دار إحياء التراث العربي ببيروت، و«شرح العقيدة الطحاوية» (ص6) تحقيق شعيب الأرنؤوط. ومعنى الحديث

القرآن هو المخرج لهذه الأمة, لا القوانين الوضعية, ولا الأنظمة اليمينية أو اليسارية, إنه القرآن وحده, علينا أن نعود إليه ونتبع هداه, وقد ذكرنا رمضان بالقرآن, فرمضان شهر القرآن. يقول تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأنعام: 155]. فبركة القرآن في اتباعه والعمل بما فيه, والحكم بما أنزل الله فيه. ليست البركة فيه أن نعلقه لافتات للزينة, أن نقرأه على الموتى, أو نجعل منه حجباً للحبالي والأطفال. القرآن حرز للإنسانية كلها من الضلال, القرآن قد نزل ليحكم الأحياء لا ليقرا على الأموات, القرآن نزل ليطبّق في المحاكم لا ليتلى في المآتم. القرآن دستور هذه الأمة, فينبغي أن نعود إليه, لتدبر آياته, ونحسن فقهه, ونحسن تطبيقه, ونجعله لنا خلقاً, كما وصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنه خلقه القرآن: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [ص: 29].

أيها الإخوة المسلمون:

ما أجدنا في هذا الجمع الحاشد, أن نتداعى جميعاً إلى العودة إلى الإسلام ... إلى القرآن ... إلى دين هذه الأمة. لقد جربنا الأنظمة اليمينية ويسارية, المستوردة من الشرق والمستوردة من الغرب, جربنا هذه الحلول, جربنا التسوّل من موائد الآخرين, من هنا وهناك, فماذا صنعت هذه الحلول المستوردة, والأنظمة المتسوّلة؟ إنها لم تجن علينا إلا الهزيمة, والعار, والنكسات, والوكسات, والتفكك الاجتماعي, والاضطراب الاقتصادي, والاستبداد السياسي, والفساد الأخلاقي, والتحلل الأسري, وشك الإنسان في

أخيه, وزعزعة الثقة بين الناس. ما حققنا نصرًا عسكريًا ولا رخاء اقتصاديًا, ولا استقرارًا سياسيًا, ولا ترابطًا اجتماعيًا, ولا رقيًا أخلاقيًا, ولا سمومًا روحياً. ماذا حققنا من وراء هذه المذاهب, وهذه الحلول المستوردة المتسوّلة؟(252).

إن حرامًا على الغني أن يتسوّل. تسوّل الأغنياء أمر تعاقب عليه القوانين, وتكره الأخلاق, ونحن أغنياء بمادتنا الإسلامية, بشريعتنا الربانية, بمناهجنا المحمدية, بتراثنا العظيم, فلماذا نستورد؟! ولماذا نتسوّل؟!
يا أيها الإخوة:

لنعد إلى قرآننا: النور الإلهي, وإلى سنة نبينا: النور النبوي. الأنوار بجوارنا, لا ينقصنا إلا أن نضغط على الزر لتتير الحياة من حولنا. أنوار في كتاب الله, وفي سنة رسول الله, والخلاص في أن نعود مستمسكين بعري التوحيد, بمعنى لا إله إلا الله محمد رسول الله, بمعنى أن نعود مسلمين كما كنا, مسلمين حقيقة لا بالأسماء, ولا بالوراثه, ولا بالوجود في أرض الإسلام.
لا نريد مسلمين جغرافيين, لا نريد مسلمين وراثيين, لا نريد مسلمين شكليين, إنما نريد مسلمين مستعدين أن يبذلوا في سبيل دينهم, مستعدين أن يضحوا من أجل هذا الدين, فكل أصحاب ملة, وكل أرباب نحلة يبذلون في سبيل مللهم, وفي سبيل نحلهم, فما بالنا لا نضحى نحن في سبيل الإسلام؟!
يا أيها الإخوة المسلمون:

(252) من أراد التوسع في هذا فليرجع إلى كتاب «الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا» للأستاذ القرضاوي.

إن هذا الدين منصور ولا محالة، ولكن إنما ينتصر بفضل الله، وبالمؤمنين، كما قال الله تعالى لرسوله: {... هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِبَصْرَةٍ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 62].

إن عدد المسلمين في العالم يقاربون - وربما يتجاوزون - البليون ... الألف مليون، ولكن العبرة ليست بالأعداد الوفيرة، ولا بالجموع الغفيرة، العبرة بالكيف لا بالكم، يوم كان المسلمون ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، حققوا نصراً عظيماً، سمى الله يومهم: «يوم الفرقان»، وفرق فيه بين الحق والباطل، وصدق الله العظيم: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [آل عمران: 123]، {وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِبَصْرَةٍ وَرَزَقَكُم مِّنَ الْأَرْضِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [الأنفال: 26].

يوم كانوا قلة مع الله، يوم كانوا قلة مع الإسلام الحق، نصرهم الله. ونحن الآن مئات الملايين، ولكن ما قيمة هذه المئات الذين تجمعهم زمارة وتفرقهم عصا؟! ما قيمة آلاف وملايين إذا كانوا كما قال القائل:

يزحمون الأرض من كثرتهم ثم لا يغنون في أمر جليل؟!
 ما قيمة الملايين ومئات الملايين إذا كانوا على غير ما وُصف الأنصار رضي الله عنهم: يكثررون عند الفزع ويقفلون عند الطمع؟! ما قيمة هذه الملايين إذا كانوا كما وصفهم النبي عليه الصلاة والسلام - وصف مسلمي آخر الزمان - بأنهم كثرة كغشاء السيل⁽²⁵³⁾؟! الغشاء: هو القش والحطب

(253) عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الكلة إلى قصعتها». قال قائل: يا رسول الله ومن قلة يومئذ؟ قال: «لا بل أنتم كثير، ولكنكم غشاء كغشاء السيل، ولينزع عن الله من صدور عدوكم المهابة منكم،

والورق والرغاوي والأشياء الخفيفة التي يحملها السيل، فهذه تذهب جفاء ولا تنفع الناس {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْعَثُ النَّاسَ فَيَمَكْتُ فِي الْأَرْضِ...} [الرعد: 17].

ما قيمة هذه المئات من الملايين إذا كانت كما قال الشاعر قديماً:

ما أكثر الناس لا بل ما أقلهم الله يعلم أي لم أقل فندا!

إني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا!

إن هذا الجمع الذي لا أرى آخره على مدّ بصري في هذه الساحة، هذا الجمع الذي احتشد لله، لا ليتهف لفلان أو لعلان، إنما ليتهف بهذه الصيحة: الله أكبر، الله أكبر، هذا الجمع جدير أن يصنع شيئاً، إذا خرجنا من هنا وقد عقدنا مع الله صلحاً، أن نكون لله، أن نكون لدين الله، أن يستمر نشاطنا بعد رمضان، كما كان في رمضان أو قريباً مما كان في رمضان. إذا خرجنا من هنا بتوبة نصوح، بنية صالحة بعزيمة صادقة، بعقد نعقد مع الله، لننفذ الصفقة التي عقدها الله معنا، الصفقة التي بعنا نحن فيها لله واشترى الله منا {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ} [التوبة: 111] (254). يقول الحسن البصري: ما أعظم فضل الله، اشترى منا أنفساً هو الذي خلقها، وأمواً هو الذي رزقها، ثم أعطى ثمناً غالياً هو جنة عرضها السموات والأرض.

ولتعرّفن [في أبو داود: وليقذفن الله] في قلوبكم الوهن». قال قائل: يا رسول الله وما

الوهن؟ قال: «حب الدنيا وكرهية الموت». أخرجه أبو داود وأحمد «شرح السنة»

للبيهقي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (16/15) الحديث (4224).

(254) وتتمتها: {يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ

وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْتِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}

نَقَدُوا، سَلَّمُوا لِه اللّهِ الثَّمَنَ بِسَلْمِكُم المَبِيعِ، بِسَلْمِكُم جَنَّةَ فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ، وَلَا أذَنَ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.

يا أيها الإخوة المسلمون:

ما أجددنا أن نصطلى على الله، وأن نخرج من هذا المكان بعزم على نصره الإسلام، ولنا في ذلك أعظم الأجر. فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجماعة من أصحابه يوماً: «أي الخلق أعجب إليكم إيماناً؟ قالوا: الملائكة. قال: وما لهم لا يؤمنون وهم عند ربهم؟! [لا شهوات ولا غرائز ولا مغريات بالشر ولا معوّقات عن الخير ولا ملاهي ولا مراقص ولا سينمات ولا أجهزة إعلام ولا لا] قالوا: فالنبيون. قال: وما لهم لا يؤمنون والوحي ينزل عليهم؟! قالوا: فنحن. قال: وما لكم لا تؤمنون وأنا بين أظهركم؟!»، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا أن أعجب الخلق إليّ إيماناً لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفاً فيها كتاب يؤمنون بما فيها»⁽²⁵⁵⁾. وفي حديث آخر: أنه صلى الله عليه وسلم سئل من بعض أصحابه: هل من قوم أعظم منا أجراً؟ أمنا بك واتبعاك. قال: «ما يمنعكم من ذلك، ورسول الله بين أظهركم، يأتيكم بالوحي من السماء؟ بل قوم بعدكم

(255) قال ابن كثير في «تفسيره»: رواه الحسن بن عرفة العبدى من طريق المغيرة بن قيس التميمي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. ونقل عن أبي حاتم الرازي: أن المغيرة منكر الحديث. قال ابن كثير: ولكن قد روى أبو يعلى في «مسنده»، وابن مردويه في «تفسيره»، والحاكم في «مستدركه» من حديث محمد بن حميد - وفيه ضعف - عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعاً. والله أعلم «تفسير ابن كثير» (41/1، 42) ط. الحلبي.

يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه, أولئك أعظم منكم أجراً»⁽²⁵⁶⁾ مرتين.

كتاب بين لوحين, أي مصحف بين دفتين, اتخذوه إماماً لهم ومنهاجاً لحياتهم. إنهم الذين يؤمنون بالغيب, يؤمنون برسول الله ولم يروه, يؤمنون بالمصحف ولم يروا جبريل يتنزل رواحاً غداً بآيات الله, لم يروا الملائكة تنزل في بدر ولا في الخندق ولا في حنين «يؤمنون به ويعملون بما فيه» إيمان وعمل, ولا خير في إيمان بلا عمل.

إن مثل هؤلاء يمكن أن يكونوا أعظم أجراً من كثير من الصحابة, بمن ليسوا من السابقين الأولين, ولا من أهل بدر وأهل أحد, وأهل بيعة الرضوان وأمثالهم.

فيا أيها الإخوة, كونوا أنصار الله, وأتباع رسول الله, أتباع محمد عليه الصلاة والسلام. وكونوا أنتم هذه الفئة المرجوة لنصر دين الله, فإن لم تفعلوا { ... فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } [المائدة: 54] ⁽²⁵⁷⁾.

أيها الإخوة المسلمون:

قبل أن أغادر مقامي هذا, أريد أن أنبئه إلى أمرين:

(256) ذكره ابن كثير في «تفسيره» عن ابن مردويه من حديث أبي جمعة الأنصاري (41/1) قال: وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التي اختلف فيها أهل الحديث. وذكر قبله حديث أبي عبيدة الذي رواه أحمد.
(257) وأولها: {يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ}.

أولاً: أريد أن تعلموا أن هذا الجمع، وهذا المهرجان الضخم، إنما قام بجهود الشباب، وعلى أكتافهم، وبنفقاتهم، ولا بد لهم من معاونة حتى يستمروا في هذا النشاط، داخل الجامعة وخارجها. ولهذا أدعوكم إلى أن تبذلوا لهم، وتعاونوهم بما استطعتم، وليس بالكثير أن نبذل بعض المال لأجل ديننا. لا بد أن نبذل لنصرة ديننا، ونبذل بسخاء، ولا نستمع لصيحات أولئك المثبطين {هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا} وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنْفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ { [المنافقون: 7].

أنفقوا وابدلوا {... وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [سبأ: 39] وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو الرجال والنساء إلى الصدقة في يوم العيد⁽²⁵⁸⁾، فهذا يوم مبارك ويوم عظيم.

هذا أمر، والأمر الثاني: من السنة من جاء من طريق فليرج من طريق آخر⁽²⁵⁹⁾. ومما عرف عن السلف أنهم كانوا في يوم العيد، إذا هنا بعضهم

(258) عن عطاء بن أبي رباح قال: سمعت ابن عباس يقول: أشهد على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه صلى قبل الخطبة يوم العيد، ثم خطب، فرأى أنه لم يسمع النساء، فأتاهن، فذكرهن ووعظن، وأمرهن بالصدقة، ومعه بلال قائل بثوبه هكذا، فجعلت المرأة تلقي الخرص والشيء، حديث متفق على صحته. والخرص: القرط، وهو الحلقة الصغيرة من الحلي. وفي حديث أبي سعيد المتفق عليه: «... وكان يقول: تصدقوا، تصدقوا، تصدقوا، وكان أكثر من يتصدق النساء...». «شرح السنة» للبعثي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط (ج 4) الحديثان (1102، 1099).

(259) عن جابر رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا كان يوم عيد خالف الطريق» رواه البخاري. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى العيد يرجع في غير الطريق الذي خرج فيه» رواه أحمد، ومسلم، والترمذي. واختلف في وجه الحكمة في ذلك، فقيل: ليسلم على أهل الطريقين،

بعضاً قالوا: تقبل الله منا ومنكم. ومن السنة التواصل والتزوار في هذا اليوم، ولم يرد زيارة الأموات والمقابر في هذا اليوم، فاحرصوا على إحياء سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإني داع فأمنوا:

اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات. اللهم افتح لنا فتحاً ميبئاً، واهدنا صراطاً مستقيماً، وانصرنا نصرًا عزيزاً، وأتم علينا نعمتك، وانشر علينا رحمتك، وأنزل في قلوبنا سكينتك. اللهم تقبلنا في جندك الصادقين، وحزبك الغالبين، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين. اللهم أعل بنا كلمة الإسلام، وارفع بنا راية القرآن، واجعل كلمة المسلمين هي العليا، واجعل كلمة أعدائهم هي السفلى. اللهم لا تكننا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك. اللهم أهلّ هلال هذا العيد علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى. اللهم تقبل صيامنا، وقيامنا، وصالح أعمالنا، وأخرجنا من هذا الموسم برحمة ومغفرة وعتق من النار.

{... رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} [آل عمران: 147]. «ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب»⁽²⁶⁰⁾، {... رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا فُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ

وقيل: ليشهد له الطريقان، وقيل: لإظهار شعار الإسلام فيهما، وقيل لإظهار ذكر الله، وقيل: ليغبط المنافقين واليهود، وقيل غير ذلك. انظر «نيل الأوطار» (357/3، 359)، و«سبل السلام» (121/2).

(260) كان من دعاء إبراهيم الخليل عليه السلام الذي سجله القرآن: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: 41].

إِمَامًا { [الفرقان: 74]، { رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } [الحشر: 10].

عباد الله: { إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل: 90].

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

خطبة عيد الأضحى

ألقى في ميدان عابدين بالقاهرة سنة 1977م

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

هذا يوم العيد، هذا يوم التكبير⁽²⁶¹⁾، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر والله الحمد.

نحن المسلمين بالتكبير نزين الأعياد، بالتكبير نصنع الأمجاد، بالتكبير نبدأ الصلاة، بالتكبير نبدأ الأذان، بالتكبير الإقامة، بالتكبير نبدأ المعارك، بالتكبير نبدأ الحياة! إذا ولد المولود منا أذنا في أذنه: الله أكبر، وإذا أقمنا للصلاة قلنا: الله أكبر، وإذا ذبحنا أو نحرنا قلنا: بسم الله والله أكبر. نحن المهللون المكبرون، نحن المسلمين تعلمنا أن يكون شعارنا: الله أكبر.

«الله أكبر» بها نرعب الأعداء في الحروب «الله أكبر» بها نقتحم الأحداث والخطوب. في يوم بدر انتصرنا لأن شعارنا كان: الله أكبر. في يوم عين جالوت كان شعارنا: الله أكبر. في يوم العاشر من رمضان تحقق لنا النصر لأننا جعلنا شعارنا: الله أكبر⁽²⁶²⁾.

(261) ذهب الجمهور إلى أن التكبير في عيد الأضحى سنة مؤكدة، وابتدأه من فجر يوم عرفة «التاسع من ذي الحجة» وانتهاه مع عصر آخر أيام التشريق.

(262) انظر هزيمة يونيو 1967، وانظر للعاشر من رمضان سنة 1393هـ. في (67) كانوا يقولون: ومدفعنا يتحدى القدر. وهذا المدفع لم يفعلوا به شيئاً، بل تركوه غنيمة لليهود، وأما في العاشر من رمضان فحينما نادى المنادي: الله أكبر، هبت على الجنود والناس

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر والله الحمد.

أيها الإخوة المسلمون:

«الله أكبر» ليست كلمة تقال، وليست مجرد شعار يرفع، إنما «الله أكبر» معناها يا أخي المسلم: أن تكون الدنيا كلها في عينك صغيرة في جنب الله عز وجل. إذا عرض عليك المال، أو عرض عليك الجاه، أو عرضت عليك الدنيا مجتمعة، لتتنازل عن دينك، استمسكت بدينك وقلت: الله أكبر. الله أكبر من المال والثروة، الله أكبر من الجاه والمنصب، الله أكبر من المتع والشهوات، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.

أيها الإخوة المسلمون:

نحن في عيد الأضحى، ولنا نحن المسلمين عيدان. حينما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: ما هذان اليومان؟ قالوا: كما نلعب فيهما في الجاهلية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قد أبدلكم بهما خيراً منهما: يوم الأضحى، ويوم الفطر» (263).

نفحات رمضان، وكان العبور واقتحام خط بارليف، حيث حطمت أسطورة القوة التي لا تقهر. وأخذنا من النصر على قدر ما كان عندنا من إيمان، ولو كان عندنا إيمان أكبر لكنا توسعنا وتوغلنا أكثر، إنما على قدر إيماننا أخذنا: أعطني إيماناً أعطيك نصراً «من كلام الشيخ القرضاوي في كتابه قضايا إسلامية على بساط البحث» (ص122)، وانظر: كتابه «درس النكبة الثانية: لماذا انهزمنا وكيف نتنصر»؟ (263) رواه أبو داود بهذا اللفظ عن أنس، ورواه أحمد والنسائي. وهذا إسناد على شرط مسلم «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية (ص184)، ط. دار المعرفة ببيروت.

وقد شاء الله لنا نحن المسلمين أن تكون أعيادنا عقب فرائض وعبادات كبرى، فعيد الفطر بعد عبادة الصيام، بعد أن تجوع البطون، وتظماً الشفاه لله، ويدع الإنسان طعامه من أجل الله، وشرابه من أجل الله، وشهوته من أجل الله، وزوجته من أجل الله، يأتيه العيد «جائزة» من الله تعالى، بعد هذه المشقة في سبيل الله، و«للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه»⁽²⁶⁴⁾.

ويأتي عيد الأضحى عقب الحج، فهو يوم الحج الأكبر، بعد أن يقف الحجاج في عرفات، متجردين لله تعالى من مظاهر الدنيا، لابسين ثياباً بيضاء، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، قد تساوا صغيرهم وكبيرهم، أميرهم وخفيرهم، غنيهم وفقيرهم، تجردوا وتساوا أمام الله، لبوا نداء الله، نداؤهم واحد، دينهم واحد، ربهم واحد، نبيهم واحد، كتابهم واحد، حداؤهم واحد: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. هناك يتجلى الله تعالى على عباده، يباهي بأهل الأرض أهل السماء، فيقول للملائكة: «انظروا إلى عبادي، أتوني شعثاً غبراً، ضاحين - أي متعرضين لحرارة الشمس - من كل فج عميق، أشهدكم أنني قد غفرت لهم...»⁽²⁶⁵⁾.

(264) رواه البخاري واللفظ له، ومسلم، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر: «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (307/1)، الحديث (505).

(265) رواه أبو يعلى، والبخاري، وابن خزيمة، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي واللفظ له، من حديث جابر رضي الله عنه، ونصه كاملاً: «إذا كان يوم عرفة، فإن الله سبحانه وتعالى يباهي بهم الملائكة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً ضاحين من كل فج عميق، أشهدكم أنني قد غفرت لهم، فتقول الملائكة: إن فيهم فلاناً مرهقاً وفلاناً!

الحج يأتي بعده العيد الأكبر: عيد الأضحى، والصيام يأتي بعده عيد الفطر.

أعيادنا بعد العبادات وبعد فرائض وشعائر تقام لله.

ولهذا فإن لأعيادنا نحن المسلمين خصائص:

أعيادنا أعياد ربانية: ليس يوم العيد عندنا يوم «كاس وطاس»، ولا يوم انفلات للشهوات، أو جري وراء الملذات، إن أعيادنا تبدأ بالتكبير، تبدأ بـ «الله أكبر»، تبدأ بالصلاة. أعيادنا أعياداً ربانية، أعياداً موصولة الحبال بالله سبحانه وتعالى.

وهي كذلك أعياد إنسانية: لأن المعاني الإنسانية تتجلى فيها أعظم التجلي. لا يريد الإسلام للمسلم أن يفرح بالعيد وحده، فليس منا من أكل وحده، وليس منا من عاش لنفسه.

في عيد الفطر شرع الإسلام زكاة الفطر، «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو الرفث، وطعمة للمساكين»⁽²⁶⁶⁾، فرضها على كل صغير وكبير، ذكر أو أنثى، حر أو عبد

قال: يقول الله عز وجل: قد غفرت لهم»، والمرهق: هو الذي يغشى المحارم، ويرتكب المفاسد. «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (352/1)، والحديث (612). (266) رواه أبو داود وسكت عليه هو والمنذري، وابن ماجه، والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتتمته: «فمن أداها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أداها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (331/1)، الحديث (571)، وانظر أيضاً: «فقه الزكاة» للقرضاوي، (921/2، 922) ط. مؤسسة الرسالة ببيروت.

من المسلمين⁽²⁶⁷⁾، وقال: «أغنوهم عن الطواف في هذا اليوم»⁽²⁶⁸⁾. بدل أن يطوف المسكين ويسأل الغني، فإن الغني يبحث عنه، ويسأل ويطوف، ويذهب إلى داره ليعطيه زكاة الفطر، لتعم الفرحة، ويعم السرور الجميع.

وكذلك في عيد الأضحى، شرع الإسلام «الأضحية»⁽²⁶⁹⁾ ليوسع الإنسان على أهله، ويوسع الإنسان على أحبائه وجيرانه، ويوسع على فقراء المسلمين. هكذا ينبغي أن توزع الأضحية أثلاثاً: ثلث لنفسه وأهله، وثلث يهدي منه جيرانه وأصدقائه، وثلث للفقراء. وإذا كان أكثر من الثلث للفقراء فقد أحسن.

وليس لفقراء المسلمين فقط، بل إن التسامح الإسلامي شمل المسلمين

(267) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير على الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمرنا أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة» متفق على صحته «شرح السنة» للبخاري بتحقيق الشاويش والأرنؤوط: (71/6) برقم (1594).

(268) تقدم تخريجه في (ص؟؟؟).

(269) الأصل في مشروعيتهما الكتاب والسنة والإجماع. أما الكتاب فقوله سبحانه: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾ [الكوثر: 2] قال بعض أهل التفسير: المراد به الأضحية بعد صلاة العيد. وأما السنة فلأحاديث منها حديث أنس المتفق عليه: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يضحي بكبشين أملحين أقرنين، يطأ على صفاحهما، ويذبحهما بيده، ويقول: «بسم الله والله أكبر». «شرح السنة» للبخاري (334/4)، برقم (1119) وأجمع المسلمون على شروعيتهما. وذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والفقهاء إلى أنها سنة مؤكدة. وذهب أبو حنيفة إلى أنها واجبة على أهل اليسار. ووقتها من بعد صلاة العيد فلا تجزئ قبله، ويمتد إلى غروب الشمس من آخر أيام التشريق، وهو قول الحسن وعطاء، وبه قال الشافعي. وذهب جماعة إلى أن وقت الأضحية يوم النحر ويومان بعده، وبه قال مالك وأحمد، وإليه ذهب أصحاب الرأي. ونجزي الشاة «من الضأن أو المعز» عن الواحد «أي عن الرجل وأهل بيته» أما الإبل والبقر فتكفي الواحدة عن سبعة.

وغير المسلمين. روى أبو داود والترمذي أن عبد الله بن عمرو بن العاص ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجاننا اليهودي؟ أهديتم لجاننا اليهودي؟ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»⁽²⁷⁰⁾ أي يورث الجار من الجار، كما يرث القريب من القريب.

أيها الإخوة:

هذا هو الإسلام. ليس من الإسلام أن تأكل وحدك، أن تجمع على مائدتك من الأطعمة أطيبها، ومن الأشربة أعذبها، وأن تلبس من الثياب أحسنها، وجوارك أخ لك أو قريب، أو جار، لا يجد ما يمسك الرمق، أو يطفى الحرق، يئن من الجوع أنين الملسوع. ليس هذا من الإسلام، برئ من ذلك محمد صلى الله عليه وسلم فقال: «ما آمن بي - وفي رواية: ليس المؤمن - من بات شبعاناً، وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»⁽²⁷¹⁾. أي ليس بمؤمن من عاش لنفسه ولم يعيش لإخوانه، ولم يعيش لمجتمعه، هذا هو الإسلام قبل أن تعرف الدنيا المذاهب المستوردة من هنا وهناك.

(270) رواه الترمذي - واللفظ له - في كتاب «البر والصلوة» من «سننه» برقم (1944)، ورواه أبو داود في كتاب «الأدب» برقم (5152)، كما رواه البخاري في «الأدب المفرد» برقم (105). وانظر: فصل «تسامح فريد» من كتاب «غير المسلمين في المجتمع الإسلامي» للأستاذ القرضاوي.

(271) رواه الطبراني، والبزار، وحسنه المنذري، وكذا قال الهيثمي: إسناد البزار حسن. ونص الرواية الثانية التي أشار إليها الشيخ: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع» رواه الطبراني، وأبو يعلى، ورواته ثقات، ونحوه قال الهيثمي، ورواه الحاكم من حديث عائشة، ولفظه: «ليس المؤمن الذي يبيت شبعاناً، وجاره جائع إلى جنبه». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (691/2)، الحديثان (1530، 1531).

أيها الإخوة:

هذا التجمع المؤمن علام يدل؟ إنني أنظر مد البصر، فلا أكاد أرى له آخرًا. علام يدل هذا التجمع الذي دعا إليه فتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى إنه يدل على وجه مصر الحقيقي. هذا هو وجه مصر، من أراد أن يعرف هذا البلد، فليعرفه هنا. ليس الذين يجلسون في البارات، أو في الكباريهات، أو يجلسون حول الموائد الخضراء، أو في الليالي الحمراء، ليس هؤلاء ممثلي مصر.

إن وجه مصر هو هنا وليس في شارع الهرم وملاهيته! مصر مسلمة، مصر مؤمنة، وهذا ما ينبغي أن يعرف لطوائف من الناس جهلوا هذه الحقيقة. أول هذه الطوائف: طائفة الماركسيين، طائفة الذين يريدونها إلحادية، يريدونها مادية جدلية. الذين يقولون: لا إله والحياة مادة، الذين يزعمون أن «الدين أفيون الشعوب»⁽²⁷²⁾.

هذا هو الدين محرك الجماهير، هذا هو الدين مصدر القوة، لم تستند هذه الأمة إلى الدين يومًا واخفقت أو هزمت.

يوم صاح الصائح في عين جالوت، صاح في جنود مصر: وإسلاماه... وإسلاماه. قالها قطز قائد معركة عين جالوت، ورمى خوذته، هنالك حرك الكامن، وهاج الساكن، وأقبل المتردد، وتشجع الجبان، وكان النصر على التتار.

(272) للأستاذ العقاد رحمه الله كتاب بعنوان: «أفيون الشعوب»، فند فيه هذه المقولة الزائفة، وأكد أن هذا الوصف هو آخر ما يمكن أن ينطبق على الدين، وأول وصف ينطبق على مذهب «ماركس» بجميع معانيه.

يوم استندت هذه الأمة إلى معاني الإيمان في العاشر من رمضان وصاحت: الله أكبر، انتصرت.

في سنة (1967م) يوم دخلوا المعركة بعيدين عن الله، ناسين، يقولون للجنود: معكم الممثل الفلاني والممثلة الفلانية، وتوزع عليهم صور المطربات والممثلين بدل أن يوزع المصحف ... أن يوزع القرآن، كانت النتيجة ما عرفناه من العار، والهزيمة، والنكسة، والوكسة.

الدين ليس أفيوثاً، الدين ليس مخدراً، إن صح هذا في دين من الأديان، فلن يصح في الإسلام.

الإسلام دين القوة، الإسلام هو مصدر العزة والقوة... مصدر التحريك لهذه الأمة.

لا يحرك هذه الأمة شيء كالإسلام. لا يحركها وطنية، أو قومية، أو عروبة، أو فرعونية، إنما يحركها: الله أكبر، إنما يحركها: لا إله إلا الله محمداً رسول الله، إنما يحركها أن ينادي المنادي: يا خيل الله اركبي، ويا ريح الجنة هبي! هنالك نرى هذه الأمة حقيقة واقعية، لا دعوى تدعى.

إن الشيوعيين الذين يريدون هذا البلد شيوعياً واهمون مخطئون. لن تكفر مصر، لن تترد عن إسلامها، لن ترجع عن دينها. هؤلاء غرباء عن هذا البلد، غرباء عن مصر. مصر مسلمة مؤمنة.

أما الذين يقولون: إن الله لم يخلق الإنسان، ولكن الإنسان هو الذي خلق الله، فهؤلاء الماديون ... الملحدون ... الشيوعيون، لا مكان لهم في بلدنا، البلد المسلم ... الشعب المؤمن.

ثم هناك طائفة أخرى على النقيض من هؤلاء، ولكنهم جهلوا مصر أيضاً. إنها طائفة غفلت عن حقيقة هذه الأمة. غرهم ظاهر المنكرات التي يرونها في الشوارع، وفي الأجهزة التي تبث الفساد، غرهم هذا فظنوا أن هذا الشعب قد كفر. كفروا الناس بالجملة، كفروا المجتمع بغير تمييز ولا تفصيل، هؤلاء أخطأوا.

هذه الأمة لم تكفر بربها، ولا بقرآنها، ولا بمحمدها عليه الصلاة والسلام. هذا الشعب مسلم، قد يتراكم عليه غبار المعصية، قد يعتريه الصدأ من كثرة التوجيهات المضللة الفاسدة المفسدة من هنا وهناك. ولكن إذا أزلت هذا الغبار، إذا حككت هذا الصدأ، تبين لك المعدن الحقيقي، تبين لك الجوهر الأصيل. معدن هذه الأمة هو الإسلام، الخامة الأصلية لهذه الأمة، هي الإسلام، أرضية هذه الأمة هي الإسلام، فليعلم ذلك الغلاة المتطرفون⁽²⁷³⁾.

وفئة ثالثة أذكرها بهذا الجمع. إنها فئة العلمانيين، الذي يريدون أن يفصلوا بين العقيدة والشريعة، أو بين الدين والدولة، الذين يريدونها دولة لا دين لها، أو ديناً لا دولة له. لا، أخطأتم أيها العلمانيون، هذه الأمة تريد أن تحكم وفق عقيدتها.

إن هذا الصراع وهذا التناقض الذي يحس به المسلم في حياته، يجب أن يزول. المسلم يحس في أعماقه أنه مؤمن بالله، مؤمن بالإسلام، مؤمن بالقرآن، رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً،

(273) للأستاذ القرضاوي رسالة مركزة نافلة بعنوان: «ظاهرة الغلو في التكفير». ضمنها ثماني قواعد جامعة، وبين من خلالها مدى الخطأ الجسيم الذي سقط فيه هؤلاء الذين أسرفوا في التكفير.

وبالقرآن منهاجًا وإمامًا.

هذا المسلم يحس أنه يحكم ويقاد في كثير من الأوضاع والمفاهيم والقوانين والتقاليد بغير الإسلام، وبغير شريعة الإسلام. ولهذا يجب أن تتعالى الأصوات في كل مكان، تنادي بشريعة الإسلام، تنادي بحكم القرآن، يجب أن يكون ذلك في كل مكان.

وأحب أن أقول هنا شيئًا: ماذا نريد بشريعة الإسلام؟ إن بعض الناس يظن أن مجرد تعديل القوانين يقيم شريعة الإسلام، وأن مجرد تطبيق الحدود يقيم مجتمع الإسلام، وأمة الإسلام.

لا. الإسلام أيها المسلمون: فلسفة حياة، ونظام حياة. نظام يصحب الفرد من ساعة الميلاد إلى ساعة الوفاة، بل ربما صحبة قبل الميلاد وبعد الوفاة.

فإن في الإسلام أحكامًا تتعلق بالجنين في بطن أمه، وأحكامًا تتعلق بالميت بعد موته: أحكام الغسل والتكفين والصلاة والدفن وتقسيم التركة وغير ذلك.

الإسلام يصحب الإنسان في رحلة الحياة كلها، كما يصحبه في مجالات الحياة كلها: في المسجد، والبيت، والمزرعة، والمصنع، والمدرسة، والمحكمة، والطريق... إنه يهيئ للإنسان حياة إسلامية متكاملة، توجهها العقيدة، وتضبطها القيم، وتحكمها الشريعة في كل شيء. من قضاء الحاجة إلى نظام الخلافة، من أدب المائدة إلى بناء الدولة، يعلمك كيف تأكل وكيف تشرب «سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»⁽²⁷⁴⁾، «ولا تشربوا في آنية

(274) متفق عليه من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما «رياض الصالحين».

الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها»⁽²⁷⁵⁾ ولا بملعقة من فضة أو ذهب، و... و... كما يعلمك كيف تحكم {وَأَنْ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ...} [المائدة: 49]، ... وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [المائدة: 42].

فإذا أردنا أن نحكم الإسلام، فلا بد أن يتغير المجتمع كله إلى الإسلام. تتغير الأفكار والمفاهيم، تتغير القيم والأخلاق، تتغير العادات والتقاليد، تتغير العواطف والمشاعر، تتغير الأنظمة والشرائع والقوانين، وتتغير الثقافة والإعلام، تتغير التربية والتعليم. نريد تشريعاً إسلامياً ... تربية إسلامية ... إعلاماً إسلامياً ... ثقافة إسلامية ... توجيهاً إسلامياً في كل مكان، هذا ما نريده إذا أردنا أن نحكم الإسلام، ونقيم المجتمع المسلم حقاً⁽²⁷⁶⁾.

يا أيها الإخوة المسلمون:

إن الإسلام دين عظيم. إن الله منّ علينا بهذا الدين، وهو أفضل دين. منّ الله علينا بأكرم نبي أرسل، وأعظم كتاب أنزل، منّ علينا بالقرآن، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وأنعم علينا بالإسلام {... أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ...} [المائدة: 3]، {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

(275) رواه البخاري، ومسلم عن حذيفة رضي الله عنه. ونصه كاملاً: «لا تلبسوا الحرير، ولا الديباج، ولا تشربوا في أنية الذهب والفضة، ولا تأكلوا في صحافها، فإنها لهم في الدنيا ولهم في الآخرة». «المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب» (598/2)، الحديث (1237)، وانظر في حكم تحريم هذه الأشياء المذكورة وحكمته: كتاب «الحلال والحرام في الإسلام» للأستاذ القرضاوي، فصل: «في الملبس والزينة» و «في البيت».

(276) راجع في هذا كتاب «ملاحم المجتمع المسلم الذي ننشده» للأستاذ القرضاوي، وفيه ذكر أحد عشر مقوماً للمجتمع المسلم المنشود، وقد نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة.

بِالْهُدَىٰ وَدِينٍ آٰلِحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة: 33،
الصف: 9].

ولكن هل يعز على الإسلام، ويسود الإسلام، وينتصر الإسلام وحده؟ هل ينتصر الإسلام ويظهر على الدين كله بغير مسلمين؟ هل يعز الإسلام بغير رجال؟ لا، إن الإسلام يحتاج إلى رجال ينصرونه، ويعزون، وينشرونه، ويكونون مثلاً له في الأرض، مثلاً عملية يراهم الناس فيرون فيهم الإسلام. إذا سار أحدهم قالوا: انظروا، هذا هو الإسلام المجسم، هذا قرآن يسعى على قدمين، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم وكما كان الصحابة رضوان الله عليهم.

الإسلام عظيم، ولكنه يحتاج إلى مسلمين عظماء يكافئون عظمته. إن الله تعالى يقول لرسوله: {... هُوَ الَّذِي آٰيَدَكَ بِنَصْرَةٍ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} [الأنفال: 62] وبالمؤمنين ... لا بد من المؤمنين.

إن رجلاً أجنبيًا درس الإسلام، فأعجب به، وأعجب بتعاليمه، فقال كلمة يجب أن نحفظها ونرويها، لأنها تقطع نياط القلوب. ماذا قال؟ قال: ما أعظمه من دين لو كان له رجال!! دين عظيم ولكنه في حاجة إلى رجال عظماء، دين قوي ولكنه في حاجة إلى رجال أقوياء.

فواعجبًا: إن عدد المسلمين في العالم يقارب المليار، وربما يجاوز المليار، نحو ألف مليون مسلم في العالم، كما تدل على ذلك الإحصائيات، ولكن هؤلاء المنسوبين إليه، المحسوبين عليه، لا يمثلون الإسلام حقيقة التمثيل. إنهم كما

جاء في الحديث: «غُثَاءُ كَغُثَاءِ السَّيْلِ»⁽²⁷⁷⁾.

نريد قلة مؤمنة لا كثرة عاطلة. نريد الكيف قبل الكم، لا نريد الكثرة الغثائية التي قال فيها الشاعر قديماً.

إنني لأفتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً!
لا نريد أناساً من هذا الصنف، نريد مسلمين... مسلمين حقيقيين، الواحد منهم بألف، وقد قال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمرنا
وقال الله تعالى: {... كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ...} [البقرة:

[249].

أيها المسلمون:

إن هذا التجمع يعرفنا حقيقة أنفسنا، لا نريد أن ننصرف لنهوى ونلعب، ولكن نريد أن ننصرف لنتعاهد على نصره الإسلام، لنربي أنفسنا على الإسلام، لنربي أبناءنا وبناتنا على الإسلام، لنربي أهلينا وزوجاتنا على الإسلام.

الإسلام أساس عزنا في الدنيا، وأساس سعادتنا في الآخرة. إذا أردنا العزة في الدنيا، فلا عزة والله إلا بالإسلام.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان في طريقه إلى الشام، وكان معه أبو عبيدة رضي الله عنه فقابلتهم مخاضة - فنزل عمر ليخوض هذه المخاضة،

(277) من حديث ثوبان: وقد مر تخريجه في (ص ؟؟؟).

وخلع نعليه، وأمسك بهما كأبي رجل عادي من الناس، فانزعج أبو عبيدة وقال يا أمير المؤمنين: لو فعلت غير هذا، الناس يرونك، وأنت يا أمير المؤمنين وخليفة المسلمين. فماذا قال عمر؟ قال: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيره أذلنا الله.

أيها الإخوة:

لا عزة بغير الإسلام {... وَبِاللَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون: 8].

إذا أردنا النصر على عدونا فلا نصر إلا بالإسلام. النصر لا يأتي بغير الإيمان، ولا إيمان بغير الرجوع إلى الإسلام.

الإيمان هو الذي يصنع البطولات، هو الذي يصنع الروائع، الأسلحة وحدها لا تغني، السلاح لا يقاتل وحده، إنما يقاتل بالرجل الذي يستخدمه، وقديماً قال المتنبي:

وما تنفع الخيل الكرام ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام؟
خيل بغير خيال ماذا تصنع؟ وقال الطغرائي:

وعادة السيف أن يزهى وليس يعمل إلا في يدي بطل!

في سنة (1967م) كانت عندنا دبابات تزن الواحدة منها (ستين) طنًا من أحدث طراز، ولكن تركوها وهروا... طلبوا الفرار، ولم يكلف أحدهم خاطره أن يخربها قبل أن يتركها، وتسلمها الأعداء لقمة سائغة، وغنيمة باردة، لماذا؟ لأن كل واحد كان يقول: الفرار الفرار... النجاة النجاة... نفسي نفسي.

بالإيمان نستطيع أن نصنع الرجال الذين يكسبون حقوقهم بأيديهم بمثل هذا الإيمان هبت نفحة من نفحات رمضان، فحققنا ما تحقق في رمضان.

إذا أردنا العزة، فلا عزة إلا بالإسلام. وإذا أردنا النصر، فلا نصر إلا بالإسلام. وإذا أردنا الوحدة، فلا وحدة إلا بالإسلام.

يريدون الوحدة العربية. كيف يتحد العرب إذا لم يكن منهجهم الإسلام؟! إذا تركوا الإسلام تفرقوا إلى يمين ويسار، واليمين درجات، واليسار درجات. هناك يمين اليمين، ووسط اليمين، ويسار اليمين، وهناك يسار اليسار، ووسط اليسار، ويمين اليسار. هناك من يتجه إلى موسكو، وهناك من يتجه إلى بكين، وهناك من يتجه إلى لندن، وهناك من يتجه إلى واشنطن، قبلات متعددة، ووجهات متفرعة، سيتفرق الجميع إذا لم يلتقوا على الإسلام.

الإسلام دين الأمة، وهو الذي يوحد الجميع. يوحد قبلتهم، ويوحد مشاعرهم، ويوحد أهدافهم، ويوحد مناهجهم. إن الله تعالى يقول: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ...} [الأنعام: 153]. قال ابن مسعود رضي الله عنه (278): خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً - أي على الرمل، يرسم لهم بوسائل الإيضاح المتاحة - ثم قال: «هذا سبيل الله، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن شماله، وقال: هذه سبيل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، وقرأ: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...} [الأنعام: 153]».

(278) إسناده حسن، وأخرجه الإمام أحمد، والطبري، والحاكم وصححه، وأقره الذهبي «شرح السنة» للبعوي بتحقيق الشاويش والأرنؤوط: (196/1، 197)، الحديث (97).

أيها الإخوة المسلمون:

في هذا اليوم ... في هذا المهرجان الإسلامي ... في هذا اليوم الرباني ... في هذه الساحة التي التقت فيها الألوف وعشرات الألوف وربما مئات الألوف ... في هذه الساحة يجب أن نعرف أنفسنا، يجب أن نكتشف أنفسنا، نحن المسلمون قبل كل شيء، مهما عرضت العوارض، أو طرأت الطوارئ، يجب أن نعرف أننا مسلمون، ولا حياة لنا بغير الإسلام. وعلى هذا يجب أن نطبق الإسلام على أنفسنا، ثم ندعو إليه العالم، والعالم كله في حاجة إلي الإسلام. البشرية المعذبة في الأرض لم تنفعها الرأسمالية ولا الشيوعية، ولن يجدوا ديناً ينقذهم من الجاهلية الحديثة ... لن يجده إلا في الإسلام.

ذهبت إلى أوروبا وأمريكا، فوجدت الناس يدخلون في الإسلام كل يوم، ويمكن أن ينتشر الإسلام أكثر وأكثر لولا سو حال المسلمين.

إنهم ينظرون إلى الإسلام من خلال المسلمين، ويقولون: إذا كان الإسلام يدعو إلى العلم، فما بال المسلمين جهلاء؟ إذا كان يدعو إلى التقدم، فما بال المسلمين متخلفين؟ إذا كان يدعو إلى النظام، فما هذه الفوضى في حياة المسلمين؟ إذا كان يدعو إلى النضافة، فما بال بلاد المسلمين أقذر بلاد العالم، إذا كان يدعو إلى الوحدة، فما لكم متفرقين.

وأذكر حادثة أقولها لكم. رجل غربي دخل في الإسلام، اعتنق الإسلام عن طريق الكتب، قرأ عن الإسلام فاعجب به، وأمن بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، ولكنه بعد عدة سنين أراد أن يقوي دينه بالحج إلى بيت الله الحرام. هناك ذهب إلى موسم الحج، فرأى سوء حال المسلمين، وسوء

نظامهم، ورأى الفوضى، وعدم الأدب في المعاملة، وغير ذلك، مما قرأ ضده في كتب الإسلام، فماذا قال؟ قال هذه الكلمة: الحمد لله الذي عرفني الإسلام قبل أن أعرف المسلمين!!

نحن صورة سيئة للإسلام. لماذا يا مسلمون؟ لماذا لا نعود إلى ديننا؟ لماذا لا نكون مسلمين حقاً؟ نعمل بالإسلام، ونعمل للإسلام. لماذا لا نقف حياتنا وجهودنا على نصره هذا الدين؟

أي دين في الدنيا وجد من يدعون إليه، ويعملون له. حتى الشيوعية الباطلة وجدت لها أنصاراً ورجالاً، الماسونية وجدت رجالاً، اليهودية أقامت لها دولة في قلب بلاد المسلمين، النصرانية لها مبشرون ومبشرات بعشرات الألوف في أنحاء العالم. كل مذهب له أهله وأنصاره ورجاله. فأين أنصار الإسلام؟ أي رجال الإسلام؟

كونوا أنتم رجال الإسلام، كونوا أنصار الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ [الصف: 14].

يا أيها الإخوة:

كلمة أريد أن أختتم بها. إن دعوتنا إلى الإسلام لا تحمل أي عدوان على أحد، ولا تحمل أي تعصب ضد أحد. حينما ندعو إلى الإسلام، إنما ندعو إلى المثل العليا، إنما ندعو إلى القيم الرفيعة التي جاء بها الأنبياء، ونادت بها كل الرسالات. القيم والمثل التي نادى بها موسى وعيسى، ونادى بعد ذلك خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

فلنحرص جميعاً على الإسلام، ولنعيش بالإسلام، ولنمت على الإسلام، وليكن شعارنا: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 162 لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام: 162، 163].

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل يومنا خيراً من أمسنا، ويجعل غدنا خيراً من يومنا، ويحسن عاقبتنا في الأمور كلها، ويجيرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. اللهم اجعل هذا العيد بشير خير وبركة على المسلمين، ونذير وبال وحسرة على الظلم والظالمين. اللهم أعد أمثاله على أمتنا الكبرى من المحيط إلى المحيط، بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى. {رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} [الحشر: 10].

أقول قولي هذا وأستغفر الله تعالى لي ولكم.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. بسم الله الرحمن الرحيم.

{وَالْعَصْرِ 1 إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ 2 إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ} [العصر: 1 - 3].

وصيتي إلى الإخوة أن ينصرفوا في هدوء مشكورين مأجورين، ومن جاء من طريق فليرجع من طريق آخر. تهنئة المسلمين بعضهم لبعض: تقبل الله منا ومنكم. زوروا بعضكم بعضاً، وتواصلوا فيما بينكم، فإن الصلة من أهداف الإسلام، ومن مبادئ الإسلام.

وصلى الله على محمد وآله وصحبه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *